علي بلسان علي (ع)

د. جعفر شهيدي
ترجمة: أحمد الحلبوني

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

علي بلســـان علي

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس ٥٤١١٩٩ - ص. ب ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

علي بلسان علي

د. جعفر شهيدي

ترجمة احمد الحلبوني

دار الهادي

للطباعة والنشر والتوزيع

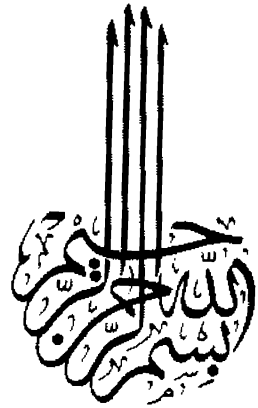
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شهور بل سنوات وأنا أهُمّ بتناول القلم لأكتب صفحات حول حياة أمير المؤمنين علي عليه السلام. ولكن في كل مرّة كنت أهيىء نفسي لهذا الأمر، كنت أسمع من أعماقي نداءاً يقول: «رويداً! ما هذا التسرّع! أتريد الدخول إلى هذا الميدان الواسع لتعرض ما لديك من قليل الزاد؟ ألا تعلم أن عملك هذا عبث! لا تدخل هذه الحلبة لأنها للأبطال الكبار وليست لأمثالك». كنت أخجل من نفسي وأعتذر منها، وأضع القلم جانباً. ولا تمضي مدة طويلة حتىٰ يَفلت شوقي لهذا الأمر من عنانه، ويقودني لهذا العمل دون إرادة مني مسوّغاً لنفسي: ألا تعرف أنه في محضر العظماء ما يُتوقع من الشخص هو ما يناسب وسعه؟

"إلهي! ما العمل؟".

في خاتمة المطاف قلت في نفسي: صحيح أنك لست أهلاً للقيام بمثل هذا العمل، ولكن لا تنظر إلى ما لديك: ما هو؟، بل أنظر إلى الكلام، حول مَن هو؟. فهو الذي يأخذ بيد العاجزين ويعين المقصرين، أطلب المدد من الله، وألطافه، ومن كلام سلطان الأولياء! فلربما تلطف بك كما فعل في نهج البلاغة. فكما أعانك في ترجمته، لن يحرمك من فيض ألطافه هذه المرّة أيضاً، وكما وفقك في عملك ومسعاك، لتقدم لأوليائه ومحبيه هدية قيمة، ولتبذل جهدك في ترجمة كلامه إلى الفارسية فسيأخذ بيدك لتعرفهم على علي عليه السلام نفسه.

هذه المرّة، تهيأت واستعديت وسطرت هذه الأوراق، وها أنا أقدمها على شكل كتاب

إلى عشاق علي ﷺ، وكلّي أمل في أن يتغاضى القراء الكرام، عند قراءتهم له عن القصور فيه، وأن يستحضروا في خواطرهم عظمة مقام علي ﷺ وشموخه، وأن لا ينسوا هذا العبد الفقير من دعائهم له بالخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفصل الأول

أستهل كتابي هذا بتعريف من هو غني عن التعريف، ألا وهو عليؑ، هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعبد المطلب هو عامر بن هاشم، وقد كان معروفاً بـ"شيبة الحمد" وذلك لأنّه وُلد بشعر رأس أبيض، وبعد وفاة والده أحضره عمّه المطّلب من المدينة، إلىٰ مكة فسئل: «من هذا الصبي؟»، فأجاب بأنه عبدٌ له؛ وقيل أنّ الناس توهموا أن المطّلب في سفره هذا جاء معه بعبد، ولذلك اشتهر عامر بـ"عبدالمطلب".

تعود الأسرة الهاشمية في النّسب إلىٰ أسرة عبد مناف، التي تنشطر منها أيضاً أسرة عبد شمس (جدّ الأمويين)، وكلتاهما من قريش، وقد تميّزت أسرة عبد شمس عن الأسرة الهاشمية بإمكانات مادية أفضل، إلاّ أن الأسرة الهاشمية كانت ذات نفوذ وعظمة أكبر بين قريش.

أمّا بالنّسبة لأمّ الإمام عليؑ فهي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. كانت تلك المرأة العظيمة بمثابة أم للرسولﷺ، فقد ربّته واعتنت به ردحاً من الزمن. وكانت من المسلمات الأوائل في صدر الإسلام اللواتي هاجرن إلىٰ المدينة، وكان الرسول مُكرماً لها دائماً، ولما كانت تستحقه من التقدير فقد كُفّنت بقميص الرسولﷺ عند وفاتها[1].

كان الإمام يُكنّىٰ بأبي الحسن. وكانت له ألقاب عديدة من أشهرها: أسدالله، وحيدرة... كان رسول اللهﷺ يلقبه بـ"أسد الله"[2]. أما "حيدرة" فكانت أمه تناديه بهذا اللقب، وقد ذكر عليؑ ذلك في أحد الأبيات التي تنسب إليه، قائلاً:

١- الإرشاد، ج ١، ص ٢.

٢- ذخائر العقبىٰ، محب الدين الطبري، ص ٩٢؛ وبعض الكتب الأخرىٰ.

أنا الذي سَمَّتني أمّي حيدرة كليث غابات كريه المنظرة[١]

وحيدر في اللغة العربية بمعنى الأسد. ولد عليؑ يوم الجمعة الموافق للثالث عشر من شهر رجب. (أو الثالث والعشرين من رجب)، وقد ذكر البعض بأنه ولد في النصف من شعبان: في أيّ عام؟ كانت ولادته بعد عام الفيل بثلاثين أو تسع وعشرين سنة. عام الفيل في أي عام؟ سمّي ذلك العام بهذا الاسم لقيام أبرهة الحبشي بالتوجه نحو مكّة بجيش كبير لهدم الكعبة. وفي طريقهم أرسل الله عليهم طيوراً من السماء ترميهم بالحجارة. وكانت تلك الحادثة من أعظم حوادث ذلك العام. ولأنّ الناس كانوا يحفظون التواريخ طبقاً للحوادث المهمّة التي تحصل فيها، لذلك سمي ذلك العام بـ"عام الفيل" نسبة للفيل الذي كان يركبه أبرهة وجنوده. ولكن في أي سنة كان ذلك؟ الحقيقة أن الناس في ذلك الزمان لم يكن بإمكانهم ضبط الأحداث والأيام والأشهر وحتى السنوات بشكل دقيق، وذلك بسبب عدم معرفة غالبية الناس بالقراءة ولا الكتابة. ولذلك كانت الأحداث تحفظ وتسجل في أذهان الرجال وصدورهم، وليس على الورق. ولهذا فإنهم كانوا يجعلون من الحوادث الكبيرة مبدأً للتاريخ.

وقد ذكر أن الرسولﷺ وُلد في عام الفيل، وكانت وفاته في سنّ تقارب ٦٣ سنة. ولذلك عُرف تاريخ ميلاده ما بين سنة ٥٦٩ إلى ٥٧٠ ميلادي؛ ولأنّ الإمام عليؑ وُلد وقد بلغ الرسولﷺ من العمر ثلاثين عاماً. لذلك ذكر بأن تاريخ ولادته ما بين سنة ٥٩٩ وسنة ٦٠٠ ميلادي.

يعتقد عموم علماء الشيعة، وقسم من علماء السنة والجماعة أن ولادته عليه السلام كانت داخل الكعبة الشريفة. إلا أنّ بعض السنّة أنكروا هذه الفضيلة والمكرمة العظيمة للإمام عليه السلام. ذكر المسعودي أنه «ولد في الكعبة»[٢]. وجاء عن الشيخ المفيد في

١- طبقات، ج٢، القسم ١، ص٨١؛ وجاء النصف الثاني من البيت في بعض المصادر بهذا الشكل: «ضرغام آجام وليث قسورة».

٢- مروج الذهب، ج٢، ص٢.

كتابه الإرشاد: «لم يولد قبل الإمام ولا بعده أحد في الكعبة»[١].

والذين ذكروا أن ولادته عليه السلام كانت في الكعبة كثيرون. فقد جاء عن مؤلف السيرة الحلبية أنّه كتب: «وُلد عليﷺ في الكعبة الشريفة عندما كان عمر الرسولﷺ ثلاثين عاماً»[٢]؛ وجاء أيضاً في ديوان السيد الحميري الذي طبع في بيروت بتحقيق السيد شاكر هادي شكر قطعه مطلعها هذا البيت من الشعر:

وَلدتــه في حــرم الإله وأمــنه   والبيت حيث فناؤه والمسجد[٣]

وقد جاء مصحح الديوان بهذه القطعة نقلاً عن مناقب ابن شهراشوب ودلائل الصدوق. وقد جاءت هذه الأبيات وأبيات أخر أيضاً عن محمد بن منصور السرخسي[٤]. إذاً شهرة هذه الحادثة كانت مسلمة في أوائل القرن الرابع، وإذا كانت الأبيات للسيد الحميري تكون القصة مشهورة أيضاً في أوائل القرن الثاني للهجرة. وقد كُتِبَت لإثبات هذه الفضيلة للإمامﷺ كتب عديدة، ومن جملة مَن كَتب من المتأخرين يمكن الإشارة للشيخ محمد علي الأردوبادي الذي كانت تربطني به صداقة.

أنتهز الفرصة هنا، وأذكر قصّة جرت معي قبل أكثر من بضع وخمسين عاماً:

عندما كنت أعيش في النّجف الأشرف، أصبت بألم شديد في عيني، فذهبت إلى عيادة أحد الأطباء[٥] مرّات عديدة. وكنت في كل مرّة أعطيه ربع دينار أي ما يقارب ربع مرتبي الشهري. وكان يضع قطعة معدنية بين أجفاني ويسحبها، وكان الألم يشتد يوماً بعد يوم. لذلك وبعد أن نفذ صبري ذهبت إلى مرقد الإمامﷺ وتوجهت نحوه قائلاً: «يا إمام، لقد أتيت إلى مدينتك طالباً للدراسة والعلم، وليس عندي وسيلة أهمّ من عينيّ لأجل المتابعة». اغرورقت عيناي بالدموع وخطر في ذهني رباعيتان شعريتان، وترنمت حينها

١ - ج ١، ص ٢.
٢ - ج ١، ص ١٣٩.
٣ - الديوان، ص ١٥٥.
٤ - المناقب، ج ٢، صص ١٧٤ - ١٧٥
٥ - كان اسمه الدكتور محمّد العيد.

بهذه الأبيات:[١]

يا من مرقده قبلة المحتاجين
يا من روضته خلوة السر
وُلِدْت في الكعبة، وصار مكان ولادتك
قبلة للمسلمين في الصلاة.
يا من تجلّت فيه ذات الله
أيها النور المبين الكاشف للسرّ الأزلي
يكفي في مديحك أنّ النار لم تكن لتخلق
«لو اجتمع الناس على حبّ علي».

وبينما أنا على هذه الحالة، دخل الصحن الشريف أحد معارفي الذي لا أذكر الآن اسمه، وسلّم عليّ، ثمّ سألني عن أحوالي، فأخبرته عمّا أعانيه من ألم في عيني، فطلب مني أن نذهب في غد ذلك اليوم إلى الكوفة، ليفحص عيني رجلٌ كان يدعى «السيد أحمد الربيعي». وبالفعل ذهبنا في اليوم التالي إلى منزل «السيد» في الكوفة، وكان رجلاً كبير السنّ، يشّع النور من وجهه، وكان عنده عدّة أشخاص. انتظرنا حتى وصل الدور إلينا فنظر إلى عيني بعدسة كانت معه، ثم أخذ ورقة وكتب عليها اسم دواء، وعندما أخذت الورقة منه كان قد كتب عليها: «آرجِدُل». وطلب مني أن أضع منه في عيني ثلاث مرّات يومياً. فأخذت الدواء ووضعت منه مرتين في عيني، ولا أتذكر إن احتجت إلى الثالثة أم لا!. فهل كان لهذا الدواء كل هذا الأثر؟! أم كان للإمام علي عليه السلام علاقة بالموضوع؟ لا أدري. ولكنّ، سبحان الله كيف تهيأت لي الظروف، وقبل أن أكمل استعمال الدواء شُفيت عيناي تماماً!.

١- المذكور هنا ترجمة ما قاله المؤلف شعراً باللغة الفارسية.(المترجم).

هل كان لـ«الآرجدل» ذلك التأثير؟

أم أن انكساري وتوسلي بمقام الإمام هو الذي كان له ذلك التأثير؟

أم أن ذلك صدفة؟

اختاروا أنتم الاسم الذي تريدون، وسواءٌ قبلتم أم لا: فإن عيني شفيتا.

ولكن بعد مرور سنوات عاد الألم إليهما مرة أخرى، وفي هذه المرّة لم يُجْد «الآرجدل» معهما نفعاً.

لا تعترضوا عليّ بما أنشدته، ولا تتهموني بالغلو أو ترك الآداب الشرعية، فإنكم تعلمون أن بارقة العشق إذا لمعت، فإن العقل يتوقف عن الاستدلال.

وقديماً قال شاعر أهل البيت المرحوم السيد جعفر الحلي في ابن الإمام(عليه السلام):

وقد انجلىٰ من مكة وهو ابنها ... وبه تشرفت الحطيم وزمزم

الفصل الثاني

ذكرنا آنفاً بأن الأوضاع المادّية للأسرة الهاشمية كانت فقيرة، وكان أبو طالب الذي أعال النبيﷺ في طفولته كثير الأولاد والعيال، وفي إحدى السنوات التي كانت صعبة جداً على قريش بشكل عام، وعلى بني هاشم بشكل خاص، أتى الرسولﷺ إلى عمّه العبّاس، وقال له:

«يا عباس! إن أخاك أباطالب كثير العيال، وقد أصاب النّاس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله: آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ من بنيه رجلاً فنكفهما عنه». قبل العباس إقتراح الرسولﷺ هذا، وذهبا إلى بيت أبي طالب، وأخبراه بالأمر، فقال لهما أبو طالب: «إذا تركتما لي عقيلاً، فاصنعا ما شئتما»، فتولّى الرسولﷺ تربية عليﷺ، وتولى العباس تربية جعفر[١].

وبهذا تربّى عليﷺ في بيت وكنف الرسولﷺ منذ الصغر، وهو يقول حول ذلك:

«ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به»[٢].

ويقول أيضاًﷺ:

«وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويُكْنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه»[٣].

١- الطبري، ج٣، صص١١٦٣-١١٦٤؛ وأسناد أخرى.

٢- الخطبة ١٩٢ المعروفة بـ«القاصعة».

٣- الخطبة السابقة.

جاء في كتب التاريخ أنّه عندما رجع الرسولﷺ من "غار حراء" وقد بُعث بالرسالة النبوية، وجد في بيته خديجة وعلي وزيد بن حارثة. فدعاهم الرسولﷺ إلىٰ الإسلام. وأخبرهم بما حدث معه. فأسلم هؤلاء الثلاثة قبل جميع الناس. وقد ذكرت ذلك في كتابي «تاريخ تحليلي اسلام»[١]. وكان عليؑ أوّلهم إسلاماً، حيث يقولؑ:

«لن يسرع أحدٌ قبلي إلىٰ دعوة حق، وصلة رحم، وعائدة كرم»[٢].

كما أنّه يقول:

«ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللهﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرىٰ نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النّبوّة[٣]».

وقد نقل ابن هشام في سيرته[٤] عن ابن إسحاق أنه قال:

إنّ علياً هو أول من آمن بالرسالة المحمدية وصدّق بها، وكان في السنة العاشرة من عمره آنذاك. ومن نعم الله تعالىٰ علىٰ عليؑ أنه ترعرع وتربىٰ في كنف الرسولﷺ:

«كان أول ذكر آمن برسول اللهﷺ، وصلىٰ معه، وصدّقه بما جاءه من عندالله، علي بن أبي طالب، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين. وكان مما أنعم الله به علىٰ علي بن أبي طالب، أنه كان في حجر رسول الله قبل الإسلام».

وكما نعلم فإن الدعوة الإسلامية كانت في البداية سرّاً، إلىٰ أن نزلت الآية الكريمة: «وأنذر عشيرتك الأقربين»[٥]. وبعد نزول هذه الآية طلب الرسولﷺ علياًؑ وقال له:

١- الترجمة العربية لهذا العنوان هي « تاريخ الإسلام التحليلي »، والترجمة العربية له تحت الطبع.م

٢- الخطبة ١٣٩.

٣- الخطبة السابقة.

٤- ج١، ص ٢٦٤.

٥- الشعراء/ ٢٦: ٢١٤.

«يا عليّ إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فاصنع لنا صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عساً من لبن»

ففعل علي عليه السلام ذلك، وأتى ذلك اليوم ما يقرب من أربعين رجلاً من بني عبد المطلب، وأكل الجميع من ذلك الطعام حتى شبعوا، وعندما أراد الرسول صلى الله عليه وآله أن يخبرهم بأمر نبوته قاطعه «أبو لهب»، قائلاً: «لقد سحركم صاحبكم»، فتفرق القوم دون أن يكلمهم الرسول بالأمر الذي دعاهم لأجله.

ومرّة أخرى دعاهم الرسول صلى الله عليه وآله إلى بيته، ثمّ خاطبهم قائلاً:

«يا بني عبد المطلب! إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»[1].

وأخبرهم بالأمر، ثم قال:

«فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟».

فأحجم القوم عنها جميعاً، فقال علي عليه السلام:

«أنا يا رسول الله!»، فقال الرسول صلى الله عليه وآله:

«إنّ هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»[2].

وكانت تلك الحادثة هي بداية تصريح الرسول صلى الله عليه وآله بولاية علي عليه السلام على الناس. وكما سوف نذكر فيما يأتي فإنّ الإعلان العام عن هذه الخلافة والوصاية على جميع المسلمين حصل في الثامن عشر من شهر ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة النبوية المباركة فيما يُعرف في التاريخ الإسلامي بـ«واقعة غدير خم»، ومنذ ذلك الحين كان علي عليه السلام يرافق الرسول صلى الله عليه وآله أينما كان، يُدافع عنه ويسانده. وقد ذكر ابن أبي الحديد في كتاب شرح نهج البلاغة عن أمالي محمد بن حبيب أنّه:

«كان أبو طالب كثيراً ما يخاف على الرسول صلى الله عليه وآله المبيت إذا عرف مضجعه، فيقيمه ليلاً

١- سيرة ابن اسحاق، ص١٢٧.

٢- الطبري، ج٣، صص ١١٧١-١١٧٢.

من مضجعه، ويضجع ابنه علياً مكانه»، فقال له عليٌ ذات ليلة:

«يا أبت إني مقتول؟!»، فقال له:

اصبرنَّ يا بني فالصبر أحجى ... كل حيٍّ مصيره لشعوب

قدّر الله والبلاء شديد ... لفداء الحبيب وابن الحبيب

لفداء الأغرّ ذي الحسب ... الثاقب والباع والكريم النجيب

إن تصبك المنون فالنبل تبرى ... فمصيب منها، وغير مصيب

كلُّ حي وإن تمتّى بسعمر ... آخذ من مذاقها نصيب

فأجاب علي عليه السلام قائلاً:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمدٍ ... ووالله ما قلت الذي قلت جازعاً

ولكنني أحببت أن ترى نصرتي ... وتعلم أني لم أزل لك طائعاً

سأسعى لوجه الله في نصر أحمدٍ ... نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعاً[1]

وعندما حاصرت قريش بني هاشم في شعب أبي طالب، كان أبوطالب موجوداً معهم وكان دائماً يأمر ويوصي علياً عليه السلام بالإهتمام بحماية الرسول صلى الله عليه وآله. وليس من البعيد أن تكون القصّة التي نقلها ابن أبي الحديد قد حصلت في هذه الأيام [من هذه الفترة العصيبة].

١ ـ شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٦٤.

الفصل الثالث

إنّ مَنْ لديهم إطلاع علىٰ التاريخ الإسلامي يعرفون أنه في ذلك الزمان لم يكن هناك قوانين حاكمة في مكّة لتحقيق الأمن الاجتماعي، ولا دين رادع للناس للابتعاد عن الأفعال المشينة. حيث أن القبائل في ذلك الوقت ومنذ نزولها في مكة كانت تجمعها أحلاف تمنع اعتداء بعضها علىٰ بعض، وتحض علىٰ مساندة بعضها للآخر عند الحاجة. ولكن مع دخول الناس تدريجياً في الدين الإسلامي ظهر التفكك والانحلال في تلك الأحلاف. ممّا جعل قريشاً تشعر بالخطر الذي كان يهدد مصالحها.

وممّا أضعف تلك الأحلاف وجعل القبائل تعيش حالة من القلق المتزايد هو اتباع الجيل الشّاب من القبائل والأسر المختلفة للدين الإسلامي، دون الإكتراث بما يعبد آباؤهم، بالإضافة إلىٰ أن النساء كنّ يُسلمن علىٰ الرّغم من بقاء أزواجهن علىٰ الشرك. وممّا كان ملاحظاً أنّ الرجل كان يقف مع الرسول ﷺ مسلماً، بينما أخاه قد يقف موقف المعادي للرسول ﷺ. كلّ ذلك كان يبعث حالة الفرقة والتفكك بين النّاس في مكّة.

وكان أكبر همّ قريش هو المحافظة علىٰ احتكارها للسوق في مكّة، والتي بدأت تخرج من بين أيديها شيئاً فشيئاً. بالإضافة إلىٰ أن الأغنياء قد ازدادوا خوفاً علىٰ أموالهم وثرواتهم.

وكما ذكرنا في مواضع أخرىٰ، فإن قريشاً لم تكن خائفة من الدعوة الإسلامية لـ«توحيد الله عزّوجلّ»، وذلك لأن إعتقادهم بأصنامهم لم يكن ذلك الإعتقاد القوي، وإنّما كان أكثر خوفهم هو علىٰ أموالهم وثرواتهم، ولا سيما أنّ الإسلام كان قد جاء ببعض التعاليم والآيات التي كانت خلافاً لمصالحهم دنيوياً ومادياً. كالوصيّة بالأيتام خيراً، وعدم ظلم العبيد، وعدم تبذير الأموال، واستثمارها ضمن نطاق مفيد.

وللتخلص من خطر الدعوة الإسلامية أشاعت قريش بين الناس أن محمداً ﷺ يشتم أصنامهم «المقدسة»! وزادت من حصارها للمسلمين وتعذيبهم، فسمح الرسول ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، ولكن قريشاً ما لبثت أن بعثت وفداً لإرجاع المهاجرين إلى مكّة، وهناك التقى الجمعان عند النجاشي، ملك الحبشة: فقام جعفر بن أبي طالب وتحدث للنجاشي عمّا يدعو إليه محمد ﷺ وتلا عليه بعض آيات القرآن، فرأى النجاشي أن المسلمين على حقّ، ولذلك لم يبعث بهم إلى قريش مع رسلها. وجاء بعد ذلك، الحصار في شعب أبي طالب، والذي لم يُجدِ نفعاً أيضاً، فاستاءت قريش من ذلك، وخصوصاً بعد أن أعلن أهل «يثرب» قبولهم للدين الإسلامي.

لم يكن تحمل وطأة ذلك سهلاً على أهل مكة، ومن الآن فصاعداً سوف تصبح السلطة بيد الجنوبيين، وسوف يترأس العبيد على القرشيين، وهذا أمر لا يمكن قبوله بهذه السهولة، فما العمل؟ إذا لم يُقتَل محمد فإن الإسلام سوف ينتشر بشكل أكبر. ولكن إذا قتل محمد فإن بني هاشم سوف يطالبون بدمه، وبذلك ستشتعل الحرب بين قبائل قريش.

إذاً ما العمل؟.

اجتمع زعماء قريش في «دار الندوة» للتشاور حول هذا الموضوع[1]. وبعد أن دار نقاش طويل بينهم اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة شاباً قوياً شجاعاً، وأن يجهزوا كل واحدٍ منهم بسيف، بحيث يكونون للرسول ﷺ أمام بيته، وعند خروجه يقومون بضربه ضربة رجل واحد، فيضيع دمه بين القبائل، ويضطر بنو هاشم للقبول بالدية. فأخبر جبرائيل رسول الله ﷺ أن: لا تَبِت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: نَم على فراشي، فإنه لا يَخلُص إليك شيء تكرَهُه منهم.

فسأله علي عليه السلام: أوَ تسلَم يا رسولَ الله؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «بلى»، فتبسم عليّ وخرّ ساجداً لله.

١ - سيرة ابن هشام، ج٢، ص٩٢ وما بعدها.

ونام عليؑ في تلك الليلة مكانه، فنزل فيه قوله تعالىٰ:

«ومن النّاس من يَشري نفسَه ابتغاءَ مرضاة الله»[١].

وقد ذكر الميبُدي في تفسيره أنّهم ذكروا أن هذه الآية نزلت في عليؑ عندما هاجر المصطفىٰ إلىٰ المدينة، وطلب من عليؑ أن ينام مكانه في فراشه[٢].

ولكنّ أكثرَ مُفَسّري أهل السنّة ذكروا هذه الآية في أناس آخرين.

وذكر ابن هشام في سيرته: «أنّ الرسولﷺ خرج في تلك الليلة، ورشّ قبضة من التراب علىٰ رؤوسهم بعد أن قرأ من أول سورة «يس» إلىٰ الآية التاسعة منها، فما انتبهوا عندما خرج من بيته، وبقي علي[ؑ] في مكة لإرجاع الأمانات المودعة عند الرسولﷺ لأصحابها»[٣].

وبعد وصولهﷺ إلىٰ «يثرب» بعدة أيام بعث أبا الواقد الليثي ليخبر علياً بالحضور إلىٰ «يثرب».

انطلق عليؑ مع «الفواطم» إلىٰ يثرب، والفواطم هنّ: فاطمة بنت الرسولﷺ، وفاطمة بنت أسد أم الإمام عليؑ، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب. وفي وسط الطريق قطع جماعة من المشركين عليهم الطريق، إلا أنّ عليّاًؑ بارزهم وقتل واحداً منهم هو «جناح مولى حرب بن أمية»، وفرّ الباقون؛ وهكذا وصل عليؑ مع الفواطم إلىٰ «يثرب» سالمين.

وكما نعرف فإن الرسولﷺ اتجه إلىٰ يثرب بعد البيعة الثالثة في العقبة، وتبعه المسلمون إلىٰ هناك.

المهاجرون الذين جاؤوا من مكة، هم من شمال شبه الجزيرة العربية، وهم من أصل عدناني. وأمّا سكّان يثرب فهم جنوبيون، يرجعون إلىٰ الأصل القحطاني. وكان معروفاً أنّ

١- البقرة/٢: ٢٠٧.

٢- كشف الأسرار، ج١، ص٥٥٤.

٣- سيرة ابن هشام، ج٢، ص٩٨.

هؤلاء على خصام وعداء مستمر مع بعضهما البعض. كل منهما كان يَدَّعي بأنه عربي الأصل، ويتهم الآخر بأنه من العرب المستعربة.

أما الآن، وبعد أن صار الطرفان من المسلمين، فإنّهما لا بدّ من أن يتحابّا، وأن يُخرجا كلّ ما في قلوبهم من حقد، وتمّ ذلك بعد أن آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار. واختار الرسول ﷺ لنفسه أخاً من مكة، هو علي ﷺ. ويذكر ابن هشام في سيرته:

«كان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، ومبعوث رب العالمين، لم يكن له مثيل من عباد الله، وكان علي بن أبي طالب أخاه»[1].

١- نفسه، ج ٢، ص ١٢٤.

الفصل الرابع

شارك علي عليه السلام في كل الغزوات التي حصلت في عهد الرسول صلى الله عليه وآله تقريباً، وكان مرافقاً له باستمرار. ومن تلك الغزوات «غزوة بدر» التي أجّجها المشركون لأجل القضاء على المسلمين في «المدينة المنوّرة». ولكن جرت المعركة بعكس ما رنا إليه المشركون. فعلى الرّغم من أن عدد جيش المشركين كان ثلاثة أضعاف عدد جيش المسلمين إلا أنهم هُزموا هزيمة نكراء، وقُتل منهم ما يقارب السبعين رجلاً، وأُسر ما يعادل ذلك، وكان للإمام عليه السلام في تلك المعركة دور فاعل، فقد قَتل العديد من زعماء قريش وفرسانها، وقد ذكر علي عليه السلام في خطبة له فعله في تلك المعركة، قائلاً:

«أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر، وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة»[١].

انتهت معركة بدر كما ذكرنا بانتصار المسلمين، وساد على أثر ذلك جو من الهدوء في المدينة، وكما يذكر التاريخ، فإنّ علياً عليه السلام تزوّج السيدة الزهراء عليها السلام بعد غزوة بدر، وكان عمرها حينذاك تسع سنوات، بعد أن تقدّم لخطوبتها الكثير من الصحابة، من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما، إلا أن النبي صلى الله عليه وآله قابلهم بالرفض، وبعدها اقترح بعض الأنصار فضلاً عن

١- الخطبة ١٩٢.

أبي بكر وعمر على علي عليه السلام التقدم لخطوبتها.

ذهب علي عليه السلام إلى بيت الرسول صلى الله عليه وآله خاطباً للزهراء عليها السلام، فوافق الرسول صلى الله عليه وآله على ذلك، ليصبح علي عليه السلام زوجاً لبنت خير الأنبياء. وقد أتيت بقصة زواج علي من فاطمة في كتاب حياة فاطمة الزهراء، فلا أعيد تكرارها هنا.

وفي السنة الثالثة للهجرة وقعت «غزوة أحد»، حيث أنّ أبا سفيان أراد أن يرد الإعتبار لقريش بعد هزيمتها أمام المسلمين في «غزوة بدر». فتوجه بثلاثة آلاف رجل ومئتين من الخيل وألف من الجمال نحو «المدينة». ونزلوا في مكان في وسط الطريق إلى المدينة، ووصل الخبر لرسول الله صلى الله عليه وآله فأراد البقاء في المدينة، والإنتظار هناك آخذاً لنفسه حالة دفاعية داخل المدينة إلا أن بعض المتحمسين من الشبان الذين كانوا أكثرية في المجلس الذي عقده الرسول للتشاور معهم، ممّن لم يشهدوا «معركة بدر» ألحوا على الرسول صلى الله عليه وآله في طلب الخروج، ومواجهة الأعداء خارج المدينة. فلبس الرسول صلى الله عليه وآله لامته وخرج معهم، وفي الطريق تخلّف عبدالله بن أبي، وتخلّف عنه ثلاثمائة رجل من المنافقين، إلا أن البقية تابعوا مسيرهم إلى أن وصلوا إلى «جبل أحد»، وقام الرسول بتكليف كل منهم بمهمة محددة، ونشبت الحرب بين المسلمين والمشركين، وكانت الغلبة في البداية للمسلمين. إلا أنّه وبعد أن تفرّق المشركون نزل الرماة من مواقعهم، لجمع الغنائم، ممّا أتاح الفرصة للمشركين بقيادة خالد بن الوليد لإعادة ترتيب صفوفهم، والهجوم مرة أخرى على المسلمين من جهتين، وأشاعوا بين صفوف المسلمين أن الرسول صلى الله عليه وآله قد قتل، فتفرق المسلمون، وبقي القليل للدفاع عن الرسول صلى الله عليه وآله، وكان علي عليه السلام بين يدي الرسول يتلقى الضربات للحيلولة بينها وبين الرسول صلى الله عليه وآله. وبعد أن علم المسلمون بعدم موت الرسول صلى الله عليه وآله أعادوا تشكيل صفوفهم من جديد، فقرر أبو سفيان إنهاء الحرب متوعداً المسلمين في السنة القادمة، ثم انصرف ومن معه؛ فأرسل الرسول صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام في أثرهم لينظر، فإن كانوا قد ركبوا الإبل، وجنبوا الخيل فهم يريدون مكه، وإن كان العكس فهم يريدون المدينة، فذهب علي عليه السلام، وعاد، فأخبره بأنهم جنبوا الخيل، وركبوا الإبل.

لم تكن النتائج التي تمخضت عن جهود أبي سفيان في معركتي «أحد» و«بدر» مُشَرِّفة، وقد اهتزت هيبته ومكانته بين زعماء قريش، ولرد إعتباره جهز جيشاً كبيراً يتراوح عدده بين سبعة وعشرة آلاف رجل. وكان ذلك الجيش منتخباً من عدة قبائل من المشركين لهذا سمي بالأحزاب؛

وقد انضم للأحزاب قبيلتان: «بنو النضير» و«بنو قريظة».

عند وصول الخبر إلى المدينة قرر المسلمون اتخاذ حالة دفاعية في الحرب، واقترح «سلمان الفارسي» حفر خندق حول المدينة، وحراسته من قبل فريق من الرماة كي لا يستطيع المشركون الدخول إلى المدينة.

وقد فوجيء المشركون بهذا الخندق، ولم يستطيعوا العبور منه، وكان فيهم الفارس المشهور بشجاعته «عمرو بن ودّ العامري» الذي استطاع العبور من الخندق برفقة عكرمة بن أبي جهل. وطلب مبارزاً من المسلمين، فلم يجرؤ أحد من المسلمين على الخروج لمبارزته، فخرج علي‌ﷺ بعد أن استأذن الرسول ﷺ لمبارزته. وبعد مبارزة قصيرة بين الطرفين تمكّن علي‌ﷺ من «عمرو بن ودّ»، إلا أن الإمام لم يضرب عمرو بن ودّ الضربة الأخيرة (القاضية) ممّا أثار المسلمين. فألح «حذيفة» بسؤال النبي ظناً منه أن علياً‌ﷺ قد خاف من «عمرو». فطلب منه الرسول‌ﷺ السكوت والإنتظار حتى يأتي الإمام فيخبرهم بالأمر. وبعد أن قتل علي‌ﷺ عمرو بن ودّ عاد إلى صفوف المسلمين. فسئل عن سبب تأخره في قتل عمرو بن ودّ؛ فأخبرهم بأن عمراً قد شتم أمه، وتفل في وجهه، ممّا أثار غضبه، فانتظر الإمام‌ﷺ حتى يسكت غضبه، فيقتل عمراً قربة إلى الله تعالى، وليس انتقاماً لنفسه[١]. وقد ذكر الغزالي هذه القصة في كتابه «كيمياى سعادت»[٢] وذكرت في كتاب المعارف[٣] للمحقق الترمذي، وفي تاريخ الفخري[٤].

١- المناقب، ج٢، ص١١٥؛ البحار، ج٤١، صص٥٠-٥١.

٢- ج١، ص٥٧١.

٣- ص٢.

وقد نظم "مولانا جلال الدين الرومي" هذه الحادثة شعراًبتعابير لطيفة وجميلة طبقاً للمعهود من أسلوبه العذب، وقد استحسنت نقلها هنا[٥]:

١. تعلّم الإخلاص والتقوىٰ من حضرة علي، عليﷺ أسد الله الطاهر المطهر من الرجس.
٢. إذ رأىٰ علي أمامه في ساحة المعركة بطلاً، فاستل سيفه وتوجّه نحوه.
٣. تفل ذلك الشخص [الكافر] في وجهه، وهو فخر الأنبياء والأولياء.
٤. لقد تفل علىٰ وجهٍ كريم، يَتَمَنَّىٰ القمرُ أنْ لو يسجد له
٥. في تلك اللحظة، وضعَ عليﷺ سيفَه جانباً، ومكث هنيهة.
٦. تعجب ذلك المحارب من عمل علي، وممّا تَوَهّمَه عفواً في وقت لم يكن ذلك متوقعاً.
٧. فخاطب علياًﷺ قائلاً: لقد جرّدْت سيفَك البتّار عليّ، فلم تركتني؟.
٨. ما هو الشئ الذي وجدته أفضل من محاربتي حتىٰ تباطأت عن قتلي؟
٩. ماذا رأيت حتىٰ سَكَتَ غَضَبُكَ وَهَدَأ، وَبَعدَ أن أبرقت وأرعدت تراجعت؟
١٠. ماذا رأيت حتىٰ تَأَجَّجَ في نفسك وروحك ما تأجج؟
١١. هل هناك شئ أغلىٰ و أعزّ من الروح؟ لماذا أعدت لي روحي؟
١٢. أنت أسد الله في الشجاعة، وفي الرجولة والمروءة، وأنت وحدك الذي تعلم ما لك من منزلة ورتبة عَلِيّة!!.
١٣. علي! يا مَن استولىٰ علىٰ وجوده العقل والبصيرة النافذة، تَلَطّف بتوضيح شئ مما حصل!!.
١٤. لقد مزّق سيف حلمك روحي، وطَهّرَ ماءُ عملك جسمي الترابي من

٤- ص ٤٤.

٥- ما ترجمته.

القذارات.

١٥. أنا أعلم أن عملك هذا من الأسرار الإلهية، لأنّ القتل بغير السيف هو من شأن الله فقط.

١٦. الله الذي أتقن صنع كل شيْ دون استعانة بوسيلة أو أداة، هو الذي تفضل و تَلَطّفَ بهذه الهِبَة والهَدِيّة الرّابِحَة.

١٧. هو الذي منح العقل القدرة علىٰ فهم وإدراك ما لا تقوىٰ عليه العين والأذن.

١٨. يا طائر العرش الإلهي! قل: ماذا أراك الله؟

١٩. عينك تستطيع رؤية عالم الغيب، في حين تعجز بقية العيون عن ذلك.

٢٠. أيها المرتضىٰ علي! أَخْبِرنا عَن سِرّ هذا العمل! يا من ردّ بحسن القضاء سيئه.

٢١. فقال علي عليه السلام: أنا أحارب قربة إلىٰ الله تعالىٰ، وأنا أطيع أوامر الله فقط، دون ما تهوىٰ نفسي.

٢٢. أنا أسد الله، ولست أسد أهوائي ورغباتي النفسية، وجميع أعمالي تنبع من عين الدين.

٢٣. أنا مصداق آية «وما رَمَيتَ إذْ رَمَيت» أنا سيفٌ يحركه الله.

٢٤. لباسي هو درعي، ولا قيمة عندي لغير الله.

٢٥. أنا ظلٌّ للنور الذي فيضه من عند الله. أنا حاجب لمحضر الله دون أن أكون حجاباً.

٢٦. أنا سيفٌ أُفيض الحياة دون القتل، حتىٰ ولو كنت في المعركة!!

٢٧. أنا سيفٌ لا يُغَطّي بَرِيقَه الدّم، وأنا غَمام لا يُحَرّكُه الرّيح.

٢٨. أنا لست ريشة، بل أنا جبل من الصبر والحلم والعدل، وأنّىٰ للعَواصِف أن تُحَرّك الجبل من مكانه؟

٢٩. ما تحركه الريح هو القش والقشور والحشائش اليابسة. وما أكثر تلك الرياح المُعاندة التي تَعصفُ بالمَذكورات.

٣٠. إنّ رياحَ الغَضَب ورياح الشهوة ورياح الحرص والطمع تحرك مَن ليسَ مِن أهل الصلاة.

٣١. أنا جبل أو جدني الله تعالىٰ، ولو أنني أردتُ الحركة كما يتحرك القش، فإنّ الريح الوحيدة التي تقوىٰ علىٰ ذلك هي رياح الله.

٣٢. لا أتحرك حركة واحدة إلا بإرادة الله ولا شئ يقودني ويحكمني سوىٰ عشق الله ومحبته.

٣٣. الغضب حاكم مالك متسلط علىٰ الملوك، ولكنّه أمامي عبد خاضع، لأنني طوّعْتُه وَلَجَمْتُه.

٣٤. إنّ سيفَ الصَّبرِ وَالحلم قد قطع عُنُق غضبي، ولهذا السبب صار غضب الله بالنسبة لي رحمة إلهية.

٣٥. أنا يملأكياني النور، رَغم أن سقف بيتي مُهَدّم وأنا رياضٌ مَليئةٌ بالورود الجميلة رغم كوني "أبا تراب".

٣٦. ولمّا ظَهَر في هذه المنازلة والمبارزة شئ لغير الله تعالىٰ، فإنني رأيت أن إخفاء السيف أفضل من إظهاره.

٣٧. وهذا ما أدّىٰ إلىٰ أن يكون حبي لله، وبُغضي لله، وعطائي للهّ، ومنعي لله؛ فأنا كلي لله، ولستُ لأحد سواه.

٣٨. وما أقوم به قربة لله، ليس من قبيل التقليد والتبعية، بل إنّ كل شئ عندي حتىٰ الخيال والظن هو عن يقين وعلم.

٣٩. لقد تجاوزت الاجتهاد والتحقيق إلى الإعتصام المطلق بحبل الله المتين.

٤٠. فإذا طرت فإنني مشرف علىٰ كل مكان، وإذا دُرْت فإنني أعرف مسيري جيداً.

٤١. إذا قمت بشيء، أو تحملته، فإنني أعلم لأي شيء ذلك.(لأنني ومصدر العلم) كما يستمد القمر نوره من نور الشمس.

٤٢. أكثر من هذا لا يمكنني أن أتحدث إلىٰ النّاس، لأن الساقية لا يُمكنها أن تستوعب البحر المحيط.[١]

وروي عن علي عليه السلام نفسه عدة أبيات قالها في تلك الواقعة:

نَصَرَ الحجارة من سفاهة رأيه ونَصَرتُ ربّ محمد بصواب
فغدوت حين تركته متجدلاً كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني كنت المجدل بزني أثوابي
لا تحسبنَ الله خاذل دينه ونبيه يا معشر الأحزاب[٢]

ونقل صاحب كشف الغمة عن مناقب الخوارزمي الحديث التالي:

... عن النبي صلى الله عليه وآله: لمبارزة علي لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أمتي إلىٰ يوم القيامة.[٣]

١- مثنوي، الدفتر الأول: ٣٨١٠-٣٧٢١. ٢- سيرة ابن هشام، ج٣، ص٢٤٢.
٣-كشف الغمة، ج١، ص١٥٠؛ وطرق أخرى:البحار، ج٤١، ص٩١.

الفصل الخامس

بعد غزوة الأحزاب [الخندق] وتحديداً في شهر ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة، توجّه الرسول ﷺ برفقة ألف وخمسمائة رجل من أصحابه إلىٰ مكة لأداء مراسم العمرة، وإظهار عظمة الإسلام والمسلمين أمام أهل مكة. لكن عند وصولهم إلىٰ منطقة قريبة من مكة تُدعىٰ "الحديبية" قطع مسيرهم المشركون فأرسل لهم رسول الله ﷺ بأنه لم يأت محارباً وإنما أتىٰ معتمراً، فلم يقبل المشركون دخول المسلمين إلىٰ مكة، ودارت بينهم مكاتبات عديدة نتج عنها معاهدة فيما بينهم لمدة عشر سنوات، وأن يعود الرسول وأصحابه إلىٰ المدينة في هذه السنة، ويرجعوا لأداء المناسك في السنة القادمة في مثل هذه الأيام علىٰ أن يخرج المشركون من مكة لمدة ثلاثة أيام. كان علي ؑ كاتب الرسول ﷺ في تلك المعاهدة، وعندما أراد أن يكتب المعاهدة طلب الرسول ﷺ بأن يبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو «أنا لا أعرف الرحمن والرحيم» أكتب كما نكتب «باسمك اللهم»، فقال الرسول ﷺ: أكتب «باسمك اللهم». هذا ما اصطلح عليه رسول الله، فقال سهيل «لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، اكتب اسمك واسم أبيك»، فطلب الرسول من علي أن يكتب ذلك.

وكما سوف نذكر حصل للإمام علي ؑ مع معاوية وأهل الشام حادثة مشابهة لها تماماً.

جرت وقائع غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة. ومن أهم أسبابها مساعدة يهود خيبر لأبي سفيان في معركة الخندق علىٰ ما روي، كما كان يتوقع منهم الهجوم علىٰ المسلمين في المدينة، ولذلك قرر الرسول غزوهم، فذهب المسلمون إلىٰ خيبر. وحاصروا قلعتها عشرين يوماً إلا أنهم لم يستطيعوا اقتحام القلعة، وبعد محاولات عديدة، قال

رسول الله ﷺ:

«غداً سوف أعطي الراية رجل يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، فيكون النصر على يديه». فانتظر المهاجرون والأنصار على أمل أن تكون الراية من نصيب أحدهم، ويحظى بهذه المنزلة العظيمة.

وفي اليوم التالي سأل الرسول ﷺ عن علي ؑ، فقيل له أن علياً ؑ يعاني من رمد في عينيه، فطلب منهم أن يدعوه له. جاء علي ؑ وعيناه معصوبتان إلى أن وصل إلى الرسول ﷺ، فمسح الرسول ﷺ بلعاب فمه على عيني الإمام ؑ فشفيتا.

فقال حسان بن ثابت حول هذا الموضوع:

وكان علي أرمد العين يبتغي ... دواءاً فلمّا لم يُحسَّ مداوياً

شفاه رسول الله منه بتفلة ... فبورك مرقياً وبورك راقياً

ذكر هذان البيتان والأبيات الثلاثة التي بعدها في كتاب الإرشاد للمفيد، وفي كتب أخرى أيضاً. ولكن مع الأسف تمّ إسقاط هذه الأبيات، وكثير من الأبيات الأخرى التي نظمها في مديح علي ؑ من ديوانه.

في هذه الحرب قُتل أشجع فرسان اليهود وهو «مرحب» بيد علي ؑ، وبهذا انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً.

الفصل السادس

تمّ فتح مكة في السنة السابعة للهجرة، وقام عليّ ﷺ بإزالة الأصنام التي كانت قد جعلت على أطراف الكعبة. وتذكر الأحاديث أنه ﷺ عندما أراد أن يُكسّر الأصنام صعد على كتفي الرسول ﷺ ليصل إليها.

اضطرت قريش للاستسلام أمام المسلمين، كما أن قبيلة ثقيف قد سلّمت أمرها أمام المسلمين بعد غزوة «حنين»، ومع استسلام كل من "قريش" و"ثقيف" اضطرت بقية القبائل العربية للتخلي عن الوقوف في وجه المسلمين والقبول بالإسلام. وصار أهلها مسلمين.

بقي الرسول ﷺ مدةً من الزمن في مكة بعد فتحها، وبعث خالد بن الوليد على سرية من المسلمين خارج مكة للدعوة إلى الإسلام، وطلب منهم عدم قتال الناس إن قبلوا الإسلام؛ إلا أنّ ابن الوليد وسريته لم يعملوا بهذه الوصية، وعند وصولهم إلى قبيلة بني جذيمة دعاهم خالد للإسلام وأمرهم بالتسليم للمسلمين، فقال رجل من بني جذيمة معترضاً: «إذا وضعنا السلاح فإنهم سوف يأسروننا ثم يقطعون أعناقنا»، ولكن الكثيرين منهم قبلوا التسليم لخالد بن الوليد. وسلّمت على أثر ذلك القبيلة كلها فقابلهم خالد بن الوليد وأصحابه بالقتل والتعذيب. وعندما وصل الخبر لرسول الله ﷺ لم يرض عن هذا العمل، وقال:

«اللهمّ إني أبرأ إليك مما فعل خالد»

وأعطى علياً ﷺ مقداراً من المال، ثم طلب منه الذهاب إلى هناك لإصلاح ما أفسده ابن الوليد وأصحابه. فذهب علي ﷺ إلى تلك القبيلة، وأعطى الدية لمن قُتِل له قتيل ودفع غرامات لكل من تضرر، ثم استفسر منهم، ما إذا كان قد وصل الحق إلى الجميع أم لا؟.

فأجاب القوم بأن حقّهم قد وصل إليهم، فتركهم، وعاد إلى مكة، فقابله الرسول ﷺ بمباركة عمله. ومرة أخرى أشهدَ الله عزّوجل بأنه ليس راضٍ عما فعله خالد بن الوليد[١].

وأما السنة التاسعة للهجرة فقد سميت بسنة الوفود[٢]، وذلك لكثرة ما أتى وقَدِم من الوفود على الرسول ﷺ معلنين قبولهم للدين الإسلامي. ولكن كان البعض يمنّ على الرسول بأنه جاء دون أن يبعث الرسول من يدعوهم للإسلام، فقيل أن هذه الآية نزلت في هؤلاء الناس:

«يَمُنّون عليك أن أسلموا، قل: لا تَمُنّوا عليّ إسلامكم، بل الله يَمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان»[٣].

كما أن البعض أحضروا معهم شعراءهم وفصحاءهم لكي يتنافسوا مع شعراء وفصحاء الرسول ﷺ.

ولكثرة ما كانوا ينادونه من وراء حجراته دون احترام مقامه ومنزلته فيهم، نزلت فيهم هذه الآية، مُقَرِّعة لهم:

«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون»[٤].

على أية حال، يمكننا القول: بأنه مع حضور كل هذه الوفود أصبحت كل شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، ولكن من الواضح أن إسلام جميع هؤلاء لم يكن بالمعنى الصحيح للكلمة. حيث أنّ الضرورة والمصلحة الدنيوية كانت تقتضي منهم التسليم أمام المسلمين. وكان إسلامهم بمعنى "أننا لا نحاربك" وذلك ليبقوا عن طريق إسلامهم في أمان، آمنين على دمائهم. ولكن هل قبلوا أحكام الإسلام؟ وإذا قبلوا هل قبلوا ذلك بقلوبهم أم بألسنتهم؟ إن ذلك محل شك وتردد. فقد كان البعض يقولون إننا نؤمن لكم على أن لا ندفع

١- سيرة ابن هشام، ج ٤، صص ٥٣ - ٥٤.
٢- جمع وفد بمعنى المجيء الى شخص كرسول.
٣- الحجرات / ٤٩: ١٧.
٤- الحجرات / ٤٩: ٤.

الزكاة، وكان الآخر يضع شروطاً مشابهة للشرط السابق، والتي لم يكن قبولها ممكناً، فجاءت هذه الآية دالّة على مدى إيمان هؤلاء:

«قالت الأعراب آمنّا، قل: لم تُؤمنوا، ولكن قُولوا:أسلمنا »[١].

نعود لنوجّه مسير البحث نحو الإمام علي عليه السلام فهو بالإضافة إلى تلك الغزوات التي كان يحضرها إلى جانب الرسول صلى الله عليه وآله كان أيضاً يتولى قيادة بعض السرايا[٢] دون الرسول صلى الله عليه وآله، ومنها تلك التي جرت وقائعها في السنة السادسة للهجرة، وهي غزوه عليه السلام لبني سعد في "فَدَك". حيث أن الرسول صلى الله عليه وآله بعد أن علم بأن بني سعد يريدون التحالف مع "يهود خيبر" أرسل إليهم مائة رجل بقيادة علي عليه السلام، فكان يسير بهم ليلاً، ويَكمُن بهم نهاراً إلى أن وصل إلى ماء، يقال له: «هَمْج»، يقع بين "خيبر" و"فدك"، فرأى هناك رجلاً، فسأله:

عن بني سعد، فقال له الرجل: إذا أعطيتني الأمان، فإنني أدلكم عليهم، فأعطاه علي عليه السلام الأمان، فأوصلهم الرجل إلى تلك القبيلة. فانتصروا في غزوتهم هذه، وحصلوا على غنائم مهمة[٣].

وفي السنة العاشرة للهجرة، انطلق الإمام بأمرٍ من الرسول صلى الله عليه وآله إلى اليمن، لدعوة أهلها إلى الدين الإسلامي. وكان قد بعث إليهم خالد بن الوليد ولكنهم لم يقبلوا منه الدخول في الإسلام.

بعد وصوله عليه السلام إلى اليمن، قرأ عليهم كتاب الرسول صلى الله عليه وآله المُرسَل إليهم، فأسلمت قبيلة "همدان" دفعة واحدة، وفي يوم واحد. فكتب علي عليه السلام للرسول بما حصل، فقال الرسول صلى الله عليه وآله:

«السلام على أهل همدان» (قالها ثلاثاً).

وبعد ذلك بدأ أهل اليمن يُسلمون واحداً تلو الآخر، فبعث علي عليه السلام للرسول صلى الله عليه وآله يخبره

١- الحجرات/٤٩: ١٤.

٢- السرايا: مفردها سرية، وهي المجموعة التي يُرسلها الرسول للحرب دون أن يشترك هو بنفسه فيها.

٣- الطبقات، ج٢، القسم الأول، ص٦٥.

بذلك، فسُرّ الرسول ﷺ كثيراً، وحَمَد الله وأثنىٰ عليه[١].

وفي نفس السنة، أي السنة العاشرة للهجرة، تَوَجّه الرّسول ﷺ إلىٰ مكّة لأداء مناسك الحج، فعلّم الناس بكيفية أدائه وأحكامه هناك. وخطب فيهم خطبته المعروفة، التي قال فيها:

«أيها الناس! اسمعوا قولي، فإني لا أدري لَعَلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلىٰ أن تلقوا ربكم».

وفي طريق العودة، عندما وصل الحجيج إلىٰ "الجُحفة" وهي المنطقة التي يفترق عندها الناس، وبأمرٍ من الله تعالىٰ طلب الرسول ﷺ من الجميع التوقف. حيث خطب بالناس، وأعلن تنصيب علي ﷺ إماماً علىٰ الناس قائلاً:

«من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه».

ولم تكن هذه هي المرّة الأولىٰ التي يُعلن فيها الرسول ﷺ ولاية علي ﷺ علىٰ الناس، وقد أعلنها قبل ذلك بسنوات، مرّات عديدة في مكة، وفي بني هاشم، ومنذ بداية الدعوة الإسلامية، ولكن للتأكيد علىٰ إعلام الناس قاطبة، وتذكيرهم بمن يقتدون، كرّر ذلك في "غدير خم".

وهذا الحديث أعني "حديث الغدير" مشهور لدرجة أنه ندر أن لا يذكره مؤرخ. ولكن عندما كان (المؤرخ) يواجه «السقيفة» وما حصل فيها، فإنه كان يلجأ إلىٰ التأويلات التعسفية والمجانبة للحق والصواب ما أمكنه ذلك.

١- الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٢، ص٣٠٠؛ انظر أيضاً: طبقات ابن سعد، ج٢، القسم١، ص١٢٢.

الفصل السابع

كما هو معروف فإنّ الرسول ﷺ قد التحق بالرفيق الأعلى بعد عودته من الحج بشهرين.

يمكن القول أن أشدّ الأيام حزناً في حياة الإمام علي ﷺ يومان: يوم وفاة الرسول ﴿ﷺ﴾ ويوم دفن السيدة الزهراء ﴿عليها السلام﴾. لم يفارق ﷺ الرسول طوال فترة مرضه إلى أن قُبضَت روحه الشريفة، ويقول ﷺ حول ذلك:

«ولقد قُبض رسولُ الله ﷺ، وإنّ رأسَه لَعَلَى صَدري، وَلَقَد وُلّيت غُسله والملائكة أعواني، فَضَجَّت الدّار والأفنية: ملأٌ يهبط وملأٌ يعرُج، وما فارقَت سمعي هينمةٌ منهم، يُصلّون عليه حتى واريناه في ضَريحه، فَمَن ذا أحقُّ به منّي حيّاً وميتاً؟![1]».

وقد قام الكثيرون بدسّ الروايات والأحاديث، حسب ما يرغبون، ليستروا ما كان في ذلك اليوم العظيم من أحداث، ثمّ أشاعوا ذلك بين الناس، الذين تناقلوه فيما بينهم، ومن ثمّ تسرّبت تلك الأحاديث الموضوعة والمجعولة إلى كتب التاريخ، فذكر بعضهم أن عائشة قالت أن الرسول ﷺ قد مات ورأسه على صدري[2].

كما ذكر الطبري في تاريخه رواية عن ابن عباس أنّه: «عندما خرج علي بن أبي طالب من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي تُوُفِّيَ فيه، قال له الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله، فقال: أصبح بحمد الله بارئاً؛ فأخذ بيده العباس بن عبدالمطلب، وقال له: إني لأعرف وجوه بني عبدالمطلب عند الموت، وإني أرى رسول الله سَيُتَوفّى في وَجَعِه، فاذهب إلى رسولِ الله، فَسَله: فيمن يكون الأمر؟، فإن كان فينا عَلمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمر به فَأوصَى بنا، فقال علي ﷺ: والله لئن سألناها رسول الله فَمَنَعَنَاها لا يُعطيناها النّاس أبداً،

والله لا أسألها رسول الله أبداً[١]».

مما يَجدُر التساؤل به هنا: هل كان العباس عالماً بالطبّ؟ وهل كانت وجوه بني عبدالمطلب عند الموت تختلف عن وجوه بقية الناس؟. الله أعلم!! ولكن أكثر الإحتمالات تشير إلى أن هذه الرواية وأمثالها قد وضعها بنو العباس علىٰ لسان جدّهم ليُفهموا النّاس بأنّ الرّسول لم يكن قد عيّن الخليفة بعده، وأنّ عمّه كان يريدها لنفسه. وكلّ ذلك لتبرير ما قام به بنو العباس من تعذيبٍ للأئمة ﷺ. وما ذُكر من أن الرسول ﴿ﷺ﴾ قُبض و هو علىٰ صدر عائشة ليس أكثر من قصّة رُويت بعبارتين مُختلفتين عن عروة بن الزبير عن عائشة، وعن عباد بن عبدالله بن الزبير.[٢] ولكن هل هذه الرواية من جَعل هذين الاثنين؟ أم أنّ عائشة أرادت أن ترفعَ مَنزلتها بهذا الكلام؟ العلمُ عندالله! في الوقت الذي كان فيه علي وبنو هاشم مشغولينَ بمراسم دفن الرسولﷺ، رأىٰ البعضُ أن الفرصة سانحةً لهم، فذهبوا إلىٰ مكانٍ يُدعىٰ سقيفة «بني ساعدة» وتجمعوا هناك ليتشاوروا في تعيين الخليفة...

كما ذكرت في كتاب «تاريخ تحليلي اسلام»، وكما يعرف كلّ مُسلم، فإنّ السُّنّة الإسلامية هي التعجيلُ في تغسيل الميت والصلاة عليه ودفنه، وهذه السنة جارية في شأن جميع المسلمين. والقيام بها تجاه الرسول﴿ﷺ﴾ أولىٰ وأفضل. وممّا يُثير التعجب هو أنّه لماذا لم يأتِ هؤلاء، لدرك تلك الفضيلة العظيمة، وهي المشاركة في دفن الرسولﷺ؟ ولماذا لم يذهبوا إلىٰ بيت الرسول للتخفيف عن بني هاشم؟ أكان في ذلك الوقت شيء أهمّ من ذلك؟ أم كان هناك خطر حتمي توجهوا لمواجهته؟ أجل! فالقرآن يجيبنا عن ذلك في الآية الكريمة التالية:

«وما محمّد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم»[٣].

١- سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٣٤.
٢- المصدر السابق.
٣- آل عمران / ٣: ١٤٤.

ومن المحتّم أن يكون الرسولﷺ قد قرأ عليهم هذه الآية من قبل، ومن الممكن أنهم قالوا: لا يا رسول الله إنّا سنبقىٰ علىٰ العهد. ولكن وقبل أن يُدفن الرسولﷺ تركه الجميع، واجتمعوا لأمر دُنيوي!

اختلف الجنوبيون والشماليون وكلٌّ كان يريد الخلافة لنفسه، فالجنوبيون يقولون: نحن من دعا الرسولﷺ وآواه عنده، وقد عاش بيننا، ولذلك فإن الحكومة من حقّنا. وأمّا الشماليون فكانوا يقولون: نحن أقرباء الرسولﷺ، وهو من قريش، والأحقية بالحكم لنا.

كان الجميع يفكرون بأنفسهم دون الإلتفات إلىٰ ما قاله الرسولﷺ، وما أوصىٰ به حول هذا الموضوع، كل ما دار في ذلك المجلس من أحاديث، وتجادل القوم حوله كان هو الحكومة ! وليس تطبيق السنة والعمل بها ولا زال هذا الموضوع نفسه مطروحاً للنقاش حتىٰ بعد مرور أربعة عشر قرناً.

بعد طول نقاش وجدال قام أبو بكر، فخطب بهم، وروىٰ لهم حديثاً عن الرسول مضمونه بأن الخلافة لا تكون إلا في قريش، وبذلك لم يَترك مجالاً للأنصار بالكلام، بالإضافة إلىٰ أنّ الأنصار أنفسهم لم يكونوا متفقين، فالأوس التي كانت تنافس قبيلة الخزرج منذ وقت طويل، ولم تَذُق طعم النصر عليها، وقفت بجانب قريش، وهذا ممّا أتاح الفرصة للمهاجرين بأن يحصروا الأمر فيما بينهم، ولذلك قدّم بعضهم بعضاً إلىٰ أن انتهىٰ الأمر بهم بأبي بكر، وبالتالي حُرِم الإمام عليؑ من حقه بالخلافة التي منحه إياها الرسولﷺ أمام الجميع منذ شهرين فقط.

وهكذا حصلت قبيلة تيم علىٰ امتياز في مقابل القبائل الأخرىٰ، ويمكن القول أن أساس الإمتياز والتفاضل والتفاخر القبلي بعد الإسلام قد وُضِع في ذلك المجلس الذي حصل في "السقيفة"! وفي حين كانت بقية القبائل تراقب الموقف بصمت وعن بعدٍ، اكتفىٰ بنو أمية بالإبتهاج لطرد أبناء عمومتهم بني هاشم عن الساحة، وترصد ما يأتي به المستقبل.

الفصل الثامن

قلّما يجهل شخصٌ قرأ تاريخ صدرِ الإسلام واطّلع عليه، ما حصل في "سقيفة بني ساعدة". كلّ وجيهٍ كان يَعتبر قومَه أحقّ بزعامة المسلمين من غيرهم دون أن يكترث بما قاله رسول الله ﷺ لهم قبل شهرين فقط من وفاته.

أكان حقاً يهمهم أمر المسلمين لهذا الحد؟ أم كان المال والجاه هو أكبر همهم؟ أكانوا يريدون تطبيق السنّة النبوية؟ أم كانوا يريدون أن يُظهروا براعتهم في اختلاق البدع بعد رسول الله ﷺ!.

لقد انتقل هؤلاء جميعاً إلى جوار ربّهم، والأفضل أن لا نخوض في الحكم عليهم، ونَكِل ذلك إلى الله تعالى. ولكن وكما ذكرت سابقاً، فإن هؤلاء وبعد ثلاث وعشرين سنة من جهود الرسول ﷺ وبعد عشرات الآيات القرآنية التي تحضّ الناس على التزام التقوى، وتحذرهم من الرجوع إلى الجاهلية، بعد كل ذلك، قدّم ذلك الجمع الحاضر في "السقيفة" الحكومة على أمر الدين، وإلا كان يجب عليهم أن يسارعوا إلى تجهيز الرسول، ثمّ انتخاب الشخص الأصلح للقيادة. لقد أثبت عملُ الحاضرين في السقيفة وبَيّنَ أنّ العصبية القبيلية لا تزال حية، وأن الإسلام ليس أكثر من نقاب تختفي خلفه دون أن تزول.

وقد ظهر في ذلك اليوم ما تحمله بعض القلوب من حقد وكره لبني هاشم، فبعد أن انبثق من بني هاشم نور مشع بالضياء لم يستطيعوا تحمل ذلك، وأرادوا أن يُطفئوا ذلك النّور، وأن يُغيّروا مسيره إلى جهة أخرى ظنّاً منهم بأن الشمعة تضيء أينما وضعت، ولكن التاريخ أثبت لو أن شمعة الحق وضعت في مكانها الصحيح لأضاءت وبقي نورها على مرّ التاريخ والزمان.

لقد فعلوا ما فعلوا، ولا أعيد هنا كتابة تلك القصة المحزنة والمؤلمة.

انتهى أمر تعيين الخليفة. ويجب أن يرتاح بال هؤلاء القوم من جانب علي وآل النبي. ماذا جرى لعلي عليه السلام في ذلك اليوم؟ لا يعلم حقيقة الأمر إلا الله، وقليل من تلك الكتب التاريخية التي ذُكر فيها غَيض من فَيض. وقد خَصّصنا في كتاب حياة السيدة الزهراء فصلاً لمناقشة هذا الموضوع. وجاء في بعض كتب التاريخ كيف بايع الإمام الخليفة الأول بالإجبار مرغماً، ودون رضىً منه، وقد ذكر ذلك عليه السلام في كتاب وجّهه لمعاوية رداً على ما قاله معاوية عن الإمام، جاء في كتاب الإمام علي عليه السلام:

«قلتَ: إنّي كنت أُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش حتىٰ أبايعَ، ولَعمرو الله لقد أردت أن تذمَّ فَمَدَحت، وأن تفضحَ فافتضحت، وما علىٰ المُسلم من غَضَاضة في أن يكون مَظلوماً ما لم يكن شاكّاً في دِينه، ولا مُرتاباً بيقينه! وهذه حجتي إلىٰ غيرك قصدُها، ولكنّي أطلقتُ لك منها بقدرِ ما سَنح من ذكرها»[١].

هل تصرّف الباحثون عن الدنيا مع علي بوقاحة وشناعة؟ لو لم يتصرفوا لما ذكر ذلك معاوية في كتابه. ولَمّا أجاب علي عليه السلام عن ذلك.

أجل! «عندما يحل الإمتحان يقلّ الدّيانون»[٢]

فرغ المتجمعون في السقيفة من عملهم. ومن الملاحظ على الروايات التي ذكرت عن ذلك اليوم أنها ليست متطابقة، فها هو معاوية يبعث لعلي عليه السلام بأنهم قد أخذوك بالقوة للبيعة، وفي روايات أخرىٰ أن علياً عليه السلام كان قد تولّىٰ أمر غُسل وتجهيز الرسول صلى الله عليه وآله. ونتساءل هنا: أنّه هل تُرك جسدُ الرسول صلى الله عليه وآله في منزله، وأُخذ علي بالقوة. فقط لأجل البيعة؟ لماذا هذه العجلة ؟ فعلي وبنو هاشم لم يكن لديهم القوة لمناوءة الخليفة الجديد. فلماذا

١- نهج البلاغة، الكتاب ٢٨.

٢- الحسين بن علي(ع).

لم يترك المجال لبني هاشم لينتهوا من تجهيز ودفن الرسول ﷺ؟ والأعجب من ذلك هو أنه لماذا وقف المسلمون مكتوفي الأيدي عندما كان علي ﷺ يُجرّ بالقوة إلىٰ المسجد؟ ولماذا لم يدافعوا عنه؟. هل كان في الأمر تطميع بالمال وتخويف بالرجال؟

أجل! علىٰ ما يبدو أنه كان في الموضوع مسألة ترغيب وترهيب! وإن كان الترغيب قليلٌ فالترهيب قد بلغ أوجه، خصوصاً وأنه لم يقف مع الإمام علي ﷺ إلا بني هاشم، وثلّة قليلة من أولئك الذين يعرفون قدر الإمام ومنزلته. وأما البقية فلم يكن أحد يُظهر التأييد لعلي، ولو فعل ذلك بلسانه، فإن عمله كان يخالف ذلك.

يقول علي ﷺ حول ذلك:

«فنظرت فإذا ليس لي مُعين إلا أهل بيتي، فَضَنَنت بهم عن الموت، وأغضيت علىٰ القذىٰ، وشربتُ علىٰ الشجا، وصبرت علىٰ أخذ الكظم، وعلىٰ أمرّ من طعم العلقم»[1].

ثمّ انتهىٰ علي وعدد من بني هاشم الذين كانوا حول جنازة الرسول ﷺ من تغسيله وتكفينه. وقد ذكر ابن هشام في سيرته أنّ: «علياً ﷺ والعباس وابنيه الفضل وقُثَم بالإضافة إلىٰ خادمي الرسول شُقران وأسامة، كانوا قد تولّوا أمر غسل الرسول ﷺ»[2]. وكأنّ علياً ﷺ هو مَن تَوَلّىٰ تغسيله، وقام هؤلاء الأشخاص بمساعدته. وقيل أن علياً ﷺ كان يقول أثناء تغسيل الرسول ﷺ:

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من

١- نهج البلاغة، الخطبة ٢٦.

٢- سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٣٤٢.

النبوة والإنباء بأخبار السماء. خَصَصت حتىٰ صِرتَ مُسلّياً عمّن سواك، وعَمَمت حتىٰ صار النّاس فيك سواء. ولولا أنّك أمَرت بالصّبر، ونهَيتَ عن الجزع، لأنفَدنا عليكَ ماء الشؤون ولكان الداء مماطلاً، والكمد محالفاً، وقلّا لك، ولكنه ما لا يُملك رده، لا يُستطاع دفعه. بأبي أنت وأمي! اذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك»[١].

انتخب أبو بكر للخلافة، وتخلىٰ طلاب الدنيا عن علي، و تَفرّقوا من حوله، وبقي علي ﷺ وحيداً مظلوماً، ولأن السيدة الزهراء ﷺ رأت أنّ من واجبها أن تقيم الحجة علىٰ الناس، لذلك توجهت إلىٰ المسجد، المكان الوحيد الذي كانت تُطرح فيه التظلمات، فخطبت بالناس خطبة مفعمة بالبلاغة في التوجيه والإرشاد، وقد أوردتُ نص تلك الخطبة، وترجمتها عن الأسناد والمصادر الأصلية الأولىٰ في كتاب حياة السيدة الزهراء[٢]. وأذكر هنا بعض ما جاء فيها بما يناسب المقام[٣]:

«حتىٰ إذا اختارَ اللّه لنبيّه دارَ أنبيائه، ظهرت خلّة النّفاق، وسَمَل جلباب الدّين. ونَطَق كاظمُ الغاوين. ونَبغ خاملُ الآفلين. وهَدر فَنيقُ المُبطلين، فَخطر في عَرَصاتكم واطّلع الشّيطان رأسه من مَغرزه، صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللعزّة فيه ملاحظين، فاستنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوَسمتم غيرَ إبلكم وأوردتموها غير شربكم، هذا والعهد قريبٌ، والكلم رحيبٌ، والجُرح لمّا يندمل. زَعمتم خوف الفتنة

١- نهج البلاغة، القول المرقم بـ٢٣٥.

٢- الطبعة الفارسية، صص١٢٦ - ١٣٥، والطبعة العربية قيد الترجمة.

٣- زندگاني حضرت زهرا(س)، صص١٢٥-١٢٦.

«ألا في الفتنة سقطوا، وإنّ جَهَنّم لمحيطةٌ بالكافرين»[١] فهيهات منكم، وأنّى بكم، وأنّى تُؤفكون. وهذا كتاب اللّه بين أظهركم، زواجره بينةٌ، وشواهده لائحةٌ وأوامره واضحة، أرغبةً عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظّالمين بدلاً «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»[٢].

في ذلك المجلس الذي كان نصفه مُرَغّباً، والنّصفُ الآخر مُرَهّباً، ماذا تركت تلك الخطبة التي كانت تصدر عن قلب حرّى وفؤاد مصاب، محب للحق وإقامة السنّة، من أثر؟ العلم عند الله!.

ولم تُؤخذ هذه الخطبة بعين الإعتبار في كتب التاريخ والأسناد المعتبرة، سوى إشارات غامضة وباهته، ومن ذكرها منهم رَبَطها بمسألة «الإرث» و«فدك»، ولكن من كان عاقلاً متدبراً، فإنه ومن الوهلة الأولى سوف يكتشف أنّه هيهات أن يكون ما ذكروه صحيحاً، فَمَن كان يجوع لإشباع الفقراء، ويتحمل البرد لكسوة العراة، من البعيد أن يطالب ويبكي لأجل بضع شجيرات من النخل، وقُللٍ من حب القمح، لكي يؤمن بها غذاء أولاده، فَعَظَمَة السيدة الزهراء عليها السلام كانت تتطلب منها أن تتكلم فقط لأجل الحفاظ على السّنة النبوية من الإنحراف، ولإقامة العدل بين الناس، كانت تخاف أن ترجع الجاهلية بين الناس، وتبدأ من جديد المفاخرات القبلية، وبهذا لن تقوم العدالة بين الناس، وسوف تُهدر الدماء والأموال، وتقوم النزاعات بين القبائل، فإذا ارتقت اليوم قبيلة بني تيم، فغداً ليس لها، وربما يقع الاختيار على بني عدي، وبعد غدٍ تتسلط الأسرة الأموية وأبو سفيان الذي

١- التوبة/٩:٤٩.

٢- آل عمران/٣:٨٥.

حارب الإسلام بكل ما أوتي من قوة، وكان معروفاً أن باطنه لم يَقبل، ولن يقبل الإسلام، كانت سلام الله عليها تعلم بأنه سيصل الحكم يوماً إلىٰ هؤلاء، وعندها ستقع المصيبة الكبرىٰ!!

كما أن للسيدة الزهراء سلام الله عليها خطبة أخرىٰ فائقة في الروعة، وذلك عندما كانت علىٰ فراش المرض، وأتت النسوة لزيارتها، فتحدثت إليهن قائلة:

«ويحهم أنّىٰ زحزحوها عن رواسي الرّسالة، وقواعد النّبوة ومهبط الرّوح الأمين، الطّبين بأمور الدّنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الّذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا واللّه نكير سيفه وشدّة وطأته ونكال وقعته وتنمّره في ذات اللّه. وتاللّه لو تكافؤوا عن زمامٍ نبذه إليه رسول اللّه(ص) لسار بهم سيراً سَجَحَاً لا يَكلم خشاشه. ولا يتعتع راكبه ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً تطفح ضفّتاه، ولأصدرهم بطاناً قد تحيّر بهم الرّي، غير متحلّ بطائل. إلاّ بغَمر النّاهل، وردعة سورة السّاغب، ولفتحت عليهم بركات من السّماء والأرض، وسيأخذهم اللّه بما كانوا يكسبون.»[1]

لم يمض وقت طويل علىٰ رحيل الرسولﷺ حتىٰ لحقت به السيدة الزهراء، لتلتقي به بجوار الباري عزّوجل، وقد اختُلف في المدة التي عاشت فيها السيدة الزهراء بعد الرسولﷺ، فأقلّ مدة ذكرت هي أربعون يوماً، وأقصىٰ مدة هي ثمانية أشهر.

وبوفاة السيدة الزهراء تجددت أحزان الإمامؑ، ولا داعي هنا لإطالة الشرح عمّا عاناه الإمام من حزن علىٰ وفاتها، اكتفاءاً باليسير الذي ذكرناه في كتاب حياة السيدة

١- المصدر السابق، ص١٥١.

الزهراء﴿عليها السلام﴾. ولنأخذ الحقيقة عن لسانه، فقد قال﴿عليه السلام﴾ عند دفن السيدة الزهراء:

«السلام عليك يا رسول الله! عنّي وعن ابنتك النازلة إلىٰ جوارك، والسريعة اللحاق بك، قلّ يا رسولَ الله عن صفيتك صبري، ورقّ عنها تجلّدي، إلا أنّ في التأسي لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك، موضع تعزٍّ، فلقد وَسّدتك في ملحودة قبرك، وفاضَت بين نَحري وصَدري نفسُك فـ«إنا لله وإنا إليه راجعون» فلقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمُسَهّد، إلىٰ أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك علىٰ هضمها، فأحْفِها السؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخلُ منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودعٍ لا قالٍ ولا سَئِم، فإن أنصرف فلا عن مَلالة، وإن أُقم فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين»[1].

١- نهج البلاغة، القول ٢٠٢.

الفصل التاسع

بعد انتشار خبر وفاة الرسول ﷺ في شبه الجزيرة العربية ارتدت معظم القبائل عن الدين الإسلامي، لأنه كان من الصعب عليهم نسيان دين آبائهم، والأصعب من ذلك هو تطبيق أحكام الإسلام، وخصوصاً الزكاة التي كانت تشعرهم بالرضوخ والإنكسار.

وترك خبر ارتداد تلك القبائل أثراً كبيراً في نفوس أهل المدينة وضواحيها، إلا أنّ البعض ممن كان قلقاً على مستقبله بقي مستتراً بغطاء الإسلام، وقد علم بأنه لم يعد هناك مجال للحكومات القبلية، وأن ما جاء به الإسلام لن يُمحى بهذه السهولة من قلوب الناس، فها هو سهيل بن عمرو الذي كان من المعارضين لكتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، و«محمد رسول الله» في "صلح الحديبية" يقف الآن ليقول لأهل مكة: «يا أهل مكة! لا ألفينكم آخر الناس إسلاماً، وأول الناس ردة، والله، إن أمر الإسلام سيستقيم».

أما أبو سفيان الذي حارب الرسول ﷺ ما أمكنه ذلك والذي أسلم بعد فتح مكة خوفاً على حياته، وبناءاً على نصيحة من العباس عمّ النبي، فيَجد الفرصة سانحة لهدر الدماء وهتك حرمة الإسلام، فيذهب إلى علي عليه السلام ويقول له: "ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً"، فقال له علي:

«طالما عاديت الإسلام وأهله».[1]

لقد أراد أبو سفيان خلق المشاكل والإختلافات في المدينة للقضاء على الإسلام ولاسترجاع ما فقده من السلطة والزعامة. كان علي عليه السلام يعلم ما يُكِنّه قلب أبي سفيان من

---

١ – الطبري، ج ٤، ص١٨٢٧.

حقد علىٰ الإسلام، وما يجري خارج المدينة ففضّل عليه السلام السكوت حفاظاً على اسم الإسلام من الإندثار، فرأىٰ أن يكون مدارياً للخلفاء، يقول عليه السلام حول ذلك:

«أما والله لقد تقمّصها فلان [ابن أبي قحافة] وإنه ليعلم أنّ محلي منها محل القطب من الرّحىٰ. ينحدر عني السّيل، ولا يرقىٰ إليّ الطير، فَسَدَلتُ دونها ثوباً، وطَوَيتُ عنها كَشحاً، وطَفِقتُ أَرتَئي بين أن أصول بِيَدٍ جَذّاء، أو أصبر علىٰ طِخيَة عَمياء، يَهرَمُ فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح مُؤمِن حتىٰ يَلقَىٰ ربّه! فَرَأيتُ أنّ الصبر علىٰ هاتا أحجىٰ».(١)

ولأنه رأىٰ أن الناس قد تخلوا عنه وانشغلوا بأمور دنياهم، ومع أنه كان بإمكانه أن ينازلهم ويستعيد حقه المسلوب منه إلا أنه فضّل أن يسكت، حيث يقول عليه السلام:

«فصبرت وفي العين قذىٰ، وفي الحلق شَجاً، أرىٰ تُراثي نَهباً، حتىٰ مَضىٰ الأوّلُ لسبيله، فَأدلىٰ بها إلىٰ فلان بعده».(٢)

وقد روي أنه سأل الإمامَ رجلٌ من بني أسد، بعد أشهر، وربما سنوات، قائلاً:

«كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام، وأنتم أحقّ به؟ فقال علي عليه السلام:

«يا أخا بني أسد! إنك لَقَلِق الوضين ترسل في غير سَدَدٍ، ولك بعد ذمامة الصهر(٣) وحق المسألة، وقد استعلمت فاعلم:

أمّا الإستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً، والأشدّون برسول الله صلى الله عليه وآله نوطاً، فإنها كانت أَثَرَةٌ شَحَت عليها نفوس قوم، وسَخَت عنها نفوس آخرين، والحكَم الله، والمعود إليه القيامة».(٤)

١- نهج البلاغة، الخطبة ٣.
٢- الخطبة السابقة.
٣- كانت زوجة الرسول صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش من بني أسد.
٤- الخطبة ١٦٢.

إن كان الإمام قد أراد الخلافة. فلإقامة السّنّة النبوية. ونشْر العدل بين الناس. وليس طلباً للسلطة، وحبّاً بالحكم، وتعلقاً بالدنيا؛ وتركاً للناس وشأنهم. وقد برهن على ذلك عندما أصبح خليفة على المسلمين. حينما بعث لـ«عثمان بن حنيف» كتاباً يُقرّعه فيه بسبب قبوله وليمة ضيوفها الأغنياء، قال فيه:

«أأقنعُ من نفسي بأن يُقال: «هذا أمير المؤمنين»، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش»[١].

وقال في خطبة له أيضاً:

«والله لئن أبيت على حَسك السّعدان مُسهداً، أو أُجَرّ في الأغلال مُصَفّداً، أَحَبّ إليّ من أن ألقىَ الله ورسوله يومَ القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتىَ استماحني من بُرّكم صاعاً، ورأيت صبيانه شُعث الشعور، غُبر الألوان، من فقرهم، كأنما اسودّت وجوههم بالعَظلم، وعاودني مؤكداً، وكرّر عليّ القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي، فظنّ أني أبيعه ديني، وأتبع قياده مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دَنَف من ألمها، وكاد أن يحترق من مَيسمها، فقلت له:
ثكلتك الثواكل. يا عقيل! أتئنّ من حديدةٍ أحماها إنسانها لِلَعِبه، وتجرّني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه»[٢].

١- الكتاب ٤٥.

٢- الخطبة ٢٢٤.

وقد ذكر الإمام في مواضع عديدة أنّه صاحب الحق بالخلافة بعد الرسول ﷺ، ولكنه كان يرى أن قداسة الدين وحرمته، ووحدة المسلمين فوق ذلك، فكان يقول:

«لقد علمتم أني أحقّ النّاس بها من غيري، ووالله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جَور إلا عليّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه». (١)

«أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود النّاصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كظّة ظالم، ولا سَغَب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولَسَقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز». (٢)

بعد أن غُصب حقّ الإمام، وبعد أن لَقِي ما لقي من ظلم، لم يجلس في بيته بعيداً عن القوم! لا، بل على العكس، كان دائماً ينبههم على أخطائهم، ويَحُلّ لهم ما صعُب عليهم من مشاكل، ويرشدهم إذا ما استرشدوه. كان واضحاً أمام الملأ تفّوقه عليهم بالعلم، ولو أردت أن أكتب في هذا المجال خلاصة لصارت كتباً ضخمة، وكيف لا؟ وقد قال عنه رسول الله ﷺ:

«أنا مدينة العلم وعليٌ بابها».

وقال أيضاً:

«أقضاكم علي».

وقد تحدثت كتب كثيرة باللغة العربية والفارسية عن العلم الذي كان يتمتع به الإمام ﷺ، وذكر فيها الكثير من المسائل الصعبة التي حلّها الإمام ﷺ بعد أن حار بها غيره

١- الخطبة ٧٤.

٢- الخطبة ٣.

وعجزوا عنها، أو من القضايا التي جهلوا أحكامها الشرعية؛ والأحكام العادلة التي أجراها بين الناس، فتميز بذلك عن غيره، ولا بدّ أن القرّاء الكرام قد قرؤوها كلها أو بعضها، أو على الأقل سمعوا شيئاً منها، ومن تلك الكتب مجموعة القضايا التي حكم بها أميرالمؤمنين﴿ع﴾ وقام بجمعها قبل نيف وخمسين عاماً[1] المرحوم الشوشتري (رحمه الله) وجعل عنوانها قضاء أمير المؤمنين ثم ترجمت إلى الفارسية. ولم يكن الإمام﴿ع﴾ يتوان عن إرشاد الخلفاء قبله، وعندما كانت تقتضي المصلحة الإسلامية ذلك، وجاء في كتب معتبرة تصريحات لبعض الخلفاء بأن علياً﴿ع﴾ قد أنقذهم من العديد من المواقف الصعبة بقولهم:

«لولا علي لهلك (فلان)، ولولا علي لهلك (فلان)».

وقد جاء في كتاب نهج البلاغة بعضاً من المسائل التي استشار عمر فيها علياً﴿ع﴾. فعندما أراد عمر بن الخطاب الشخوص لقتال الفرس استشار علياً﴿ع﴾، فأشار عليه:

«فكن قُطباً، واسْتَدِر الرَّحىٰ بالعرب من أطرافها وأقطارها، حتّىٰ يكون ما تدع وراءك من العورات أهمّ إليك ممّا بين يديك».[2]

وقد استشاره أيضاً عندما أراد غزو الروم، فقال له علي﴿ع﴾:

«قد توكّل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة، وستر العورة، والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون، ومنعهم وهم قليلٌ لا يمتنعون، حيٌّ لا يموت. إنّك متىٰ تَسِر إلىٰ هذا العدو بنفسك، فَتَلقَهُم فَتُنكَب، لا تَكُن للمسلمين كانفة دون أقصىٰ بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً،

١- من تاريخ تأليف أصل الكتاب.

٢- القول ١٤٦.

واحفز معه أهل البلاء، والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرىٰ، كنت ردناً للناس، ومثابة للمسلمين».(١)

وقد فرّغ الإمام نفسه في الفترة التي زوي فيها عن الخلافة لجمع القرآن وترتيبه، كما نزل علىٰ الرسولﷺ، حيث أنّه كان أعلم الصحابة بالقرآن وأفقههم فيه. وكان دائماً يدعو الناس لتعلم القرآن، والتفقّه بعلومه. يقولعليه السلام:

«وتعلموا القرآن، فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص».(٢)

ويقول أيضاً:

«عليكم بكتاب الله، فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والرأي الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، لا يَعْوَجّ فيقام، ولا يزيغ فيستعتب»(٣).

وأيضاً:

«ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أُخبركم عنه: ألا إن فيه عِلم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم».(٤)

١- الخطبة ١٣٤.

٢- الخطبة ١١٠.

٣- الخطبة ١٥٦.

٤- الخطبة ١٥٨.

وعلىٰ الرّغم من كل ذلك العلم الذي كان يملكه الإمام، وكل تلك الحكمة التي كانت متأصلة فيه إلا أنّ القوم جهلوا ما يجب عليهم أن يفعلوه، ولم يستطيعوا أن يميّزوا موضع الحق فيلزموه. وكم من مشكلات واجهت الخلفاء قبله وغيرهم من الصحابة ولم يعرفوا وجه الصواب فيها، فسارعوا للإستنجاد بعلي(عليه السلام) الذي كان يسارع إلىٰ إنقاذهم وإخراجهم من تلك الورطات، ومع كل ذلك، تَحَمّل ما لحقه من ظلم، وكان بين الحين والآخر يحذرالناس، قائلاً:

«ولكنكم نسيتم ما ذُكّرتم وأمنتم ما حُذّرتم، فتاهَ عنكم رأيُكم، وتَشَتَّت عليكم أمركم»[1].

١- الخطبة ١١٦.

الفصل العاشر

لم تطل مدة أيام أبي بكر، فمات في جمادىٰ الثانية من السنة الثالثة عشرة للهجرة، وبحسب ما ذُكر، فإنه في اليوم الأخير من حياته عَيّن عمراً خليفة علىٰ المسلمين من بعده، فيقول علي عليه السلام حول ذلك:

«فيا عجباً!! بينا هو يستقيلها في حياته إذ عَقَدها لآخر بعد وفاته».(١)

مات أبوبكر في زمن كانت قد اتسعت فيه سيطرة المسلمين علىٰ معظم الأراضي المجاورة، كانوا قد وصلوا من الشرق إلىٰ إيران، ومن الشمال إلىٰ بلاد الروم، وبالطبع لم يقل شأن التوسع أهمية في زمن عمر بن الخطاب، وتبعاً لذلك ازدادت في زمنه المشاكل، وتغيّرت بعض السنن.

ومما لا يخفىٰ أنه في بداية الدعوة الإسلامية كان القسم الأعظم من المسلمين يعاني من الفقر، وقلّة المال، وقلةٌ منهم كان وضعهم أحسن نوعاً ما، فقاموا بصرف ما لديهم أو نصفه في سبيل نشر الإسلام، ولكنهم علىٰ الرغم من كل ما كانوا يعانون منه صبروا، وقاتلوا، وبعبارة أفضل: جاهدوا في سبيل هذا الدين. وبما أن هدف الجميع بشكل عام كان هو إرضاء الله عزّوجل لذلك من الطبيعي أن تكون المشاكل على المال أو الجاه شبه معدومة فيما بينهم.

١- الخطبة ٣.

بعد فتح مكة، انتشر الدين الإسلامي في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، والذي كان سبباً لقبول البعض للدين الإسلامي خوفاً علىٰ أرواحهم وأموالهم ومصالحهم الدنيوية فقط. يخبرنا القرآن عن هؤلاء الناس:

«وقالت الأعراب آمنّا، قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا»[1].

وكما ذكر لو أن حياة الرسول﴿ﷺ﴾ دامت بين هؤلاء الناس مدة ٢٠ سنة أخرىٰ أو علىٰ الأقل ١٠ سنوات، وتمتعوا بشرف تربيته المباشرة لهم لصار جمع غفير منهم مسلمين حقيقيين، ولما ظهر كثير من المشاكل التي ظهرت بعد وفاة الرسول﴿ﷺ﴾؛ ولكن لم تتحقق هذه الأمنية.

لم يمض أكثر من عامين علىٰ فتح مكة حتىٰ توفي الرسول﴿ﷺ﴾، ولم تمض أشهر علىٰ وفاته حتىٰ شرع المسلمون بفتح الأراضي خارج شبه الجزيرة، وفي تلك المدة القصيرة التي تولّىٰ فيها أبو بكر الخلافة انشغل جيش المسلمين وقادته بالجبهات والفتوحات. ولذلك لم يطرأ تغيير علىٰ الحياة الإجتماعية بين الناس بشكل واضح. ولكن في فترة خلافة عمر بن الخطاب انصبّت الأموال علىٰ بيت المال من جهة، وازداد عدد المتنافسين للحصول علىٰ المناصب الحكومية في المدن والولايات الإسلامية من جهة أخرىٰ. ممّا أدّىٰ إلىٰ تفكير الكثيرين منهم باغتنام الفرصة لجمع المال والحصول علىٰ الجاه، وتثبيت أنفسهم في مناصبهم. كما أن "ديوان العطاء" الذي بدا في بداية تأسيسه وكأنه عمل مدروس، وبسيط، قد خلق معضلة يصعب حلّها، حيث أن العطاء جُعل علىٰ أساس السابقة في الإسلام، وكانت النتيجة أن قسماً من الناس كانوا يحصلون علىٰ عطاء أكثر من غيرهم فقط

١- الحجرات/٤٩: ١٤.

لأنهم سبقوا الآخرين في الإسلام.[١]

يمكن القول أنه طيلة اثني عشر عاماً بعد وفاة الرسول، تحول جمع من مسلمي المدينة ومكة الذين يُعدون اللبنات الأساسية للدين الإسلامي، تدريجياً باتجاه الدنيا والتركيز عليها أكثر من الآخرة. كما أن العدالة والتقوىٰ (وهما ركنان أساسيان في الإسلام) قد فَقَدتا مكانتهما لصالح كنز الأموال والوصول للجاه والمقام. ومن جهة أخرىٰ قام من أسلموا من غير العرب بتسليم أنفسهم للقادة الفاتحين المسلمين؛ ولمّا وصلت جيوش المسلمين إلىٰ أراضي هؤلاء، وجدوا أنفسهم أمام دنيا وعالم جديد. عندما شاهد العرب الذين كانوا يتمتعون في ذلك الزمن ببساطة العيش، مظاهر الترف وحياة البذخ والنعيم تعلقوا بها واعتادوا عليها.

في السنة الثالثة والعشرين للهجرة ضُرِب عمر بن الخطاب بخنجر في خاصرته، فأدىٰ به إلىٰ ملازمة الفراش أياماً قبل موته. فعين كلاً من علي وعثمان، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف وطلحة (ولم يكن حينها في المدينة) وجميعهم من أصحاب الرسول ﷺ، أعضاء في شورىٰ، وطلب منهم التشاور مدة ثلاثة أيام لتعيين الخليفة بعده.

وقد ذكر ابن الأثير:

«وقد طلب من «صهيب» أن يصلي بالنّاس ثلاثة أيّام، وأن يدخل أولئك الستة في بيت ليتشاوروا فيما بينهم حتىٰ يقع الإختيار علىٰ واحدٍ منهم، وقال لصهيب:

"إن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبىٰ واحد، فاضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة

١- للمزيد من الإطلاع، راجع:

"تاريخ تحليلي اسلام" (بالفارسية)، صص١٢٦ - ١٣٠. (النسخة العربية منه قيد الطباعة).

"پس از پيغمبر سال" (بالفارسية)، ص٤٩. (الطبعة العربية تحت عنوان: شهيدي، جعفر: «ثورة الحسين نظرة جديدة»، بيروت: دار الهادي، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

فرَضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة منهم رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فَحَكِّموا عبدالله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكمه، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه النّاس»[١].

وجاء في بعض الروايات أن عمر طلب من "صهيب" بأن يُصلي بالناس، وجعل أبا طلحة الأنصاري ناظراً على جلسة الشورى[٢]. بهذا التركيب لأعضاء الشورى والوصايا التي أوصاها بشأن الشورى، واختياره لعبد الرحمن بن عوف فاصلاً لأمر الشورى، والذي كان من أقرباء عثمان بن عفان، كلّ ذلك كان يؤكد من البداية بأن علياً ﷺ لن يصل للخلافة.

اجتمع هؤلاء الستة من الصحابة لثلاثة أيام، ثم ذهب عبدالرحمن بن عوف إلى علي ﷺ، وقال له:

«عليك عهدُ الله وميثاقه لتَعْمَلَنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده».

فقال علي ﷺ:

«أرجو أن أفعل، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي».

فدعا ابن عوف عثمان، وقال له مثلَ ما قال لعلي ﷺ، فقال عثمان:

«نعم»[٣].

فبايع عبدالرحمن بن عوف عثمان على الخلافة.

من الإشكاليات التي طُرحت حول الشورى ومجرياتها:

أولاً: إذا لم تكن الخلافة بعد الرسول ﷺ مختصة بعلي ﷺ، وإذا لم يكن الرسول ﷺ قد عَيّن علياً عليه السلام من بعده خليفة على الناس في «غدير خم»، وإذا كان إنتخاب الإمام موكولاً للشورى، فلماذا كان كل أعضاء الشورى من المهاجرين؟ ولماذا لم يُفسح المجال

١- الكامل، ج٣، ص٦٧؛ الطبري، صص٢٧٧٩ - ٢٨٨٠.
٢- الطبري، ج٥، ص٢٧٢٤.
٣- الطبري، ج٥، ص٢٧٨٦.

أمام الأنصار للمشاركة في الشورىٰ؟

صحيح أن الرسول قال:

«الائمة من قريش»

ولكن معنىٰ ذلك أن الإمام يجب أن يكون قريشياً، وليس معنىٰ ذلك أن من ينتخب الإمام يجب أن يكون قرَشياً، علىٰ فرض صحة الشورىٰ في هذه المسألة.

ثانياً: لماذا كان أعضاء الشورىٰ ستة أشخاص فقط؟ ألم يكن هناك أحدٌ من الصحابة غير هؤلاء الستة أهلاً لأن يُدلي برأيه في هذا الأمر؟

ثالثاً: لماذا يجب أن يُقتل من كان مخالفاً من أعضاء الشورىٰ؟ ولماذا يجب أن يُقتل جميع أعضاء الشورىٰ إن لم يتوصلوا لنتيجة في غاية المدة المعينة؟ والأهم من ذلك أنه لماذا كان الطرف الذي يقف بجانبه عبدالرحمن بن عوف أقوىٰ من الطرف الآخر؟.

وأسئلة كثيرة أخرىٰ تمّ طرحها خلال أربعة عشر قرناً، ولم يُقَدَّم الجواب المقنع لها من قِبَل مَن يَقبل بتلك الشورىٰ. ولذلك من الأفضل أن نأخذ الجواب من علي عليه السلام إذ يقول:

«حتىٰ إذا مضىٰ لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيالله وللشورىٰ! متىٰ اعترض الرّيب في مع الأول منهم، حتىٰ صِرت أُقرَن إلىٰ هذه النظائر! ولكني أسففت إذ أسفوا، وطِرت إذ طاروا، فصغا رجلٌ منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هنٍ وهنٍ إلىٰ أن قام ثالث القوم»[1].

لا أريد أن أحكم أو أقضي، ولا أنوي بحث أمور في هذا الكتاب ربما تزعج بعض الأخوة، ولكن من المُسلّم أنّ كل من يقرأ التاريخ سيتطرق لتحليل بعض الأمور، والنظر فيها، وفي صحتها، ويجب الإجابة علىٰ تلك الأسئلة المطروحة بالحجّة البيّنة، والدليل القاطع.

١- نهج البلاغة، الخطبة ٣.

الفصل الحادي عشر

كما مرّ معنا فقد تمّ اختيار عثمان للخلافة وذلك عن طريق الشورىٰ وقد نقل أن عثمان قد مات عن عُمْر قُدِّر بما بين ٧٩ و ٩٠ عاماً، فإذا أخذنا الحد الأدنىٰ للعمر الذي ذكر بأن عثمان قد مات فيه، فإننا سنجد أنه كان في حالة تدهور صحي وضعف جسمي، في الوقت الذي كان أمر الخلافة يتطلب القدرة والقوة لتحمل أعباء ومشاكل الحكم، وخصوصاً في ذلك الوقت. ولو أن عثمان اختار مستشاريه من ذوي الخبرة والدراية والإنصاف فإن كهولته لم تكن لتشكل مشكلة حقيقية، ولكنّه وكما سوف نرىٰ لم يُوفق في اختيارهم.

لم يمض اليوم الأول علىٰ خلافة عثمان حتىٰ وصل إليه خبر وقوع حادثة كبيرة، ومؤلمة، وهي أن عبيدالله بن عمر قَتَل كلاً من «هرمزان» و«بنت أبي لؤلؤة» و«جفينة» وهو رجل من الحيرة. وكان ذنب هؤلاء أنّ عبدالرحمن بن أبي بكر قال أنه قد رأىٰ الخنجر الذي قُتِل به عُمر في يد أحدهم، وأنهم كانوا في مكان بعيد عن أنظار الناس يتهامسون فيما بينهم. وقد عُرف أن «هرمزان» كان مسلماً، وأما الآخران فإنهما قد لجأا إلى الإسلام. فأُلقي القبض علىٰ عبيدالله بن عمر وأريد محاكمته إلا أنه اختلف في الحكم عليه. فمنهم من قال:

«يجب أن يُقتص من عبيدالله وذلك لأنه قتل مسلماً». وكان رأي علي ﷺ من رأي هذه المجموعة، التي كانت في معظمها من أصحاب رسول الله العارفين بالفقه الإسلامي، ومنهم من قال:

«لقد قُتل بالأمس عمر، فكيف نقتل اليوم ابنه!»، فقال عثمان:

«إن لي عليه ولاية وسأدفع الدية بدلاً عنه».

من المسلم أن عبيد الله بن عمر كان قاتلاً، وأنّه مستحق للقصاص، ولو لم يكن ذلك لما دعاه علي ﷺ في فترة خلافته لإجراء الحدّ عليه، فهرب عبيدالله إلىٰ الشام، ونزل عند معاوية[١].

والمشكله الأخرىٰ التي ظهرت في عهد عثمان وبقيت آثارها عشرات السنين، وحتىٰ للقرن الثالث الهجري، هي إعادة إحياء وبعث العصبيات والمنافسة القبلية من جديد. فقد حمل الشماليون والجنوبيون الحقد والعداء لبعضهم البعض منذ القدم، ولكن بعد أن جاء الإسلام قضىٰ علىٰ هذه الخلافات فيما بينهم بشكل ظاهري، ولكن ما لبث أن عاد تبادل الكره والعداء فيما بينهم شيئاً فشيئاً بالتدريج منذ "السقيفة"، حينما قال الجنوبيون (القحطانيون) للمهاجرين: "منّا أمير ومنكم أمير" وكانت النتيجة أن غلبت قريش من العرب الشماليين.

سعىٰ عمر في فترة خلافته للمحافظة علىٰ الأوضاع متوازنة بين القبائل، فعندما كان يُولّي أحداً من المُضريين منصباً ما، كان يُعطي واحداً من اليمانيين منصباً في مكان آخر. ولكنّ عثمان، وقبل أن يمضي عام واحد علىٰ خلافته قام بعزل بعض الولاة من مناصبهم، كعزله لسعد بن أبي وقّاص عن ولاية الكوفة، وتولية الوليد بن عقبة مكانه. ومن ثمّ ولّىٰ مكانه سعيد بن العاص، وَولّىٰ سعد بن عبد الله بن سراج علىٰ مصر، والذي كان قد أسلم وارتدّ ثمّ أسلم مرة أخرىٰ بعد فتح مكة.

وقد حاول الدكتور طه حسين في كتابه الفتنة الكبرىٰ الذي قام مؤلف هذا الكتاب قبل أربعين سنة بنقله إلىٰ الفارسية، وطُبع بعنوان «انقلاب بزرگ» أن يغطي ويبرر الأعمال التي نُسبت إلى الوليد، وأنها ليست أكثر من أسطورة، فقال:

١- الكامل، ج٣، ص٧٦.

«لو كان الوليد زاد في عدد ركعات الصلاة، لما تابع الصلاة خلفه من هم أصحاب للرسول، فإن مسلمي الكوفة كان فيهم أصحاب كُثُر للرسول ﷺ، ولما كانوا رضوا ذلك ولكانوا اعترضوا على ذلك».

ولكن عندما ذكر طه حسين هذا الكلام لم ينتبه إلى أمور عدّة:

فأولاً: إن هؤلاء الصحابة والصالحين الذين تكلم عنهم طه حسين قد ابتعدوا كثيراً عمّا كانوا عليه في زمان الرسول ﷺ، وصار أكثر همّهم راحة أنفسهم بدلاً عن تطبيق أحكام الدين.

ثانياً: إن الكثيرين كانوا يتطلعون إلى تطبيق المسائل والأحكام الدينية، ولكنهم كانوا يختارون الصمت والعزلة أمام السيف والسلطة عندما كانت تلجأ الأخيرة للتوسل بالقوة. لم يكن الوليد هو الشخص الوحيد الذي قام بمثل هذه الأفعال، بل كثير ممن تلاه قد ساروا على نهجه. فكانوا يبذلون وسعهم لإرضاء الحاكم بأقوالهم وأفعالهم حتى ولو كان في ذلك سخط الله، للحصول على حطام الدنيا.

فجمع من هؤلاء الصالحين والقراء رأوا بأم أعينهم كيف ألحق معاوية وخلافاً لصريح حديث رسول الله «الولد للفراش وللعاهر الحجر» زياداً بأبي سفيان ومع ذلك لم ينبس هؤلاء ببنت شفة! وإذا اعترض واحد أو اثنان منهم، فإن ذلك لم يتجاوز لقلقة اللسان، كما أن بدعاً من هذا القبيل وأشدّ ظهرت في عهد عثمان ومعاوية.

« والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديانون»[1]

لقد أبقى عثمان أبا موسى الأشعري والياً على البصرة، إلا أنّ قريشاً ومُضر لم يرضيها بقاء أبي موسى والياً على البصرة ولا سيما أنهم قد استولوا على أكثر الولايات الإسلامية.

١- الحسين بن علي(ع).

فها هو الوليد والياً علىٰ الكوفة، ومعاوية والياً علىٰ الشام، وعمرو بن العاص والياً علىٰ مصر. وجميعهم من أصل قرشي أو مضري إلا أن أبا موسىٰ كان من أصل يماني، وهذا ما كان يضايقهم لذلك ذهب رجل من بني أمية إلىٰ عثمان، وقال له:

«ألا يوجد عندكم ولد تولّونه مكانه، فإلىٰ متىٰ سيبقىٰ هذا العجوز حاكماً علىٰ هذه المدينة؟».

وأيضاً من المشاكل الأخرىٰ التي ظهرت في عهد عثمان أنّه كان قد وصل في عطائه إلىٰ حدّ الإسراف، وقد جاء في كتب التاريخ أنه وَهَب أحدَ أقربائه مقداراً كبيراً من المال، وبسبب ضخامة المبلغ لم يُعطه مسؤول بيت المال المبلغ. فَتوعّدَه عثمان، بعد أن قال له:

«نحن من وضعك عاملاً علىٰ أموالنا»، فقال له مسؤول بيت المال:

«خادمك عاملٌ علىٰ خزانتك وأموالك، إنما أنا عامل علىٰ خزانة بيت مال المسلمين». ثم ذهب وعلّق مفاتيح بيت المال علىٰ منبر الرسول ﷺ واعتزل عمله[1].

ويوماً بعد يوم كانت الأمور تزداد سوءاً، فلا الذين كانوا حول عثمان عرفوا خطأهم وابتعدوا عنه، ولا عثمان عزل من هم ليسوا أهلاً لتلك المناصب. وفي النهاية تكاتب بعض أصحاب الرسول ﷺ للحضور إلىٰ الجهاد في المدينة. ثم شرعوا بالعيب علىٰ عثمان أن الأمور قد خرجت من أيدي أصحاب رسول الله، وصارت حِكراً علىٰ أمثال: زيد بن ثابت، وأبي أسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسّان بن ثابت: فاجتمع الناس، وذهبوا إلىٰ علي ﷺ وشكوا إليه ما تقموا علىٰ عثمان، وسألوه تكليمه واستعتابه لهم، فدخل عليه وقال:

«إنّ النّاس وراءي وقد استسفروني بينك وبينهم، والله ما أدري ما أقول لك!! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك علىٰ أمر لا تعرفه، إنّك لتعلم ما نعلم، ما

١- انقلاب بزرگ، ص٩٨.

سبقناك إلىٰ شيءٍ فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيءٍ فنبلغكه. وقد رأيت كما رأينا، وسمعت كما سمعنا، وصحبت رسول الله ﷺ كما صحبنا. وما ابن أبي قُحافة ولا ابن الخطاب بأولىٰ بعمل الحق منك، وأنت أقرب إلىٰ أبي رسول الله ﷺ وشيجة رحم منهما، وقد نلت من صهره ما لم ينالا. فالله الله في نفسك! فإنك - والله - ماتبصر من عمىٰ، ولا تُعلَّم من جهل، وإنّ الطرق لواضحة، وإنّ أعلام الدين لقائمة، فاعلم أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هدي وهدىٰ، فأقام سنّة معلومة، وأمات بدعة مجهولة، وإنّ السنن لنيرة، لها أعلام، وإنّ البدع لظاهرة، لها أعلام. وإنّ شرّ الناس عندالله إمام جائرٌ ضَلّ وضُلَّ به، فأمات سنّة مأخوذة وأحيا بدعة متروكة. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يُؤتىٰ يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيُلقىٰ في نار جهنم، فيدور فيها كما تدور الرّحىٰ ثم يربط في قعرها». وإني أنشدُك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنّه كان يقال: يُقتل في هذه الأمة إمام يَفتح عليها القتل والقتال إلىٰ يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً. فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السِّن وتقضّي العمر».

فقال له عثمان:

«كلِّم الناس في أن يؤجلوني، حتىٰ أخرج إليهم من مظالمهم. فقال ﷺ:

«ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجلهُ وصول أمرك إليه»[1]

١- الخطبة ١٦٤؛ الكامل، ج٣، ص١٥١؛ الطبري، ج٦، ص٢٩٣٧.

فقال عثمان:

«قد والله علمت ليقولن الذي قلت! أما والله لو كنت مكاني ما عنّفتك، ولا عتبت عليك، ولم آت منكراً، إنّما وصلت رحماً، وسددت خلّة، وآويت ضائعاً، وولّيت بمن كان عمر يوليه، أنشدك الله يا علي، ألا تعلم أن عمر ولّى المغيرة بن شعبة، قال علي ﷺ: «بلى»، فقال عثمان:

«فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؛ قال علي ﷺ إن عمراً كان يطأ على صماخ من يولّيه، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة، وأنت لا تفعل. ضعفت ورققت على أقربائك».

قال عثمان:

«هم أقرباؤك أيضاً»، فقال علي ﷺ:

«لعمري إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم». قال عثمان:

«أما تعلم أن عمر ولّى معاوية، فقد وليته».

قال علي ﷺ:

«أنشدك الله ألا تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلامه له؟ قال: «بلى»، قال علي ﷺ:

«فإن معاوية يقطع الأمور دونك، ويقول للناس هذا أمر عثمان، وأنت لا تعلم ذلك فلا تُغيّر عليه!».

ثم قام علي، فخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر، فخطب بالناس، وقال:

«فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النعمة، عيّابون طعّانون يُرونكم ما تُحبون، ويسرُّون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، أما والله لقد عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطأكم

برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم. ولنت لكم، وأوطأتكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ، أما والله لأنا أقرب ناصراً، وأعز نفراً، وأكثر عدداً. وأحرى إن قلت: هلمّ أن يُجاب صوتي. فكفّوا عني ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم. في الذي تفقدون من حقكم؛ والله ما قصرت عن بلوغ من كان قبلي».

فقام مروان بن الحكم، فقال:

«وإن شئتم حكمنا بيننا وبينكم بالسيف».

فقال عثمان: اسكت، دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا، ألم أتقدم إليك ألا تنطق! فسكت مروان، ومضىٰ عثمان إلىٰ بيته[1]، إلا أنّ ما قاله كان قد حرّك الناس وحرّضهم أكثر.

١- الطبري، ج٦، صص ٢٩٣٩ - ٢٩٤٠؛ الكامل، ج٣، صص ١٥٢ - ١٥٣.

الفصل الثاني عشر

أحد أولئك الذين كانوا يعترضون علىٰ عثمان في أعماله أبو ذرّ الغفاري، وأبو ذر هو جندب بن جنادة من قبيلة بني غفار.

كان أبوذرّ يعيش في الصحراء عندما سمع ببعثة الرسولﷺ ودعوته، وليستفسر عن تلك الدعوة، وعن ذلك الرجل الذي كان يَدَّعي النّبوة بعث أخاه إلىٰ مكة، وقال له:

«إركب إلىٰ هذا الوادي، واعلم لي علمَ هذا الرّجل الذي يَزعم أنّه يأتيه الخبر من السّماء، واسمعْ من قوله، ثمّ ائتني»، فانطلق أخاه إلىٰ مكة، وسمع من قول الرسول﴿ﷺ﴾، ثمّ عاد إلىٰ أبي ذرٍّ، وقال له:

«رأيته يأمُر بمكارم الأخلاق، وسَمعت منه كلاماً ما هُو بالشّعر». فقال أبو ذرّ: ما أشفَيتني فيما أردْت». فتزوّد بطعام وماء، ثمّ توَجّه نحو مكّة، فأتىٰ المسجد هادئاً، فالتمس النّبيَّ﴿ﷺ﴾، وهو لا يعرفه، وكَرِهَ أن يَسأل عنه؛ حتّىٰ أدرَكه الليل، فاضطجع قريباً من الكعبة؛ فرآه علي بن أبي طالب وهو ذاهب إلىٰ بيته، فقال لأبي ذرّ:

- كأنّ الرجل غريب؟

- قال: نعم!

- فقال علي﴿ﷺ﴾: «انطلق إلىٰ المنزل»، فانطلق أبو ذرّ معه دون أن يسأله، فلمّا أصبح من الغد رَجَع أبو ذرّ إلىٰ المسجد، فبَقِي يومَه حتىٰ المَساء، ثمّ سار إلىٰ مَضجعه، فمرَّ به علي، فقال:

- «أما آنَ للرّجل أن يَعرف مَنزلَه»، فأقامه وذهب به إلىٰ منزله، وما يسألُ أحدُهما صاحبَه عن شيْ، حتىٰ إذا كان اليوم الثّالثُ سَأله علي﴿ﷺ﴾:

- ألا تُحَدّثُني ما الذي أَقْدَمَك هذا البلد؟ قال أبو ذرّ:

- «إنْ أعطيتني عهداً وميثاقاً لَتُرشدني فعلتُ، فَفَعل.

- بَلَغَنا خروجُ رجل يَزعم أنّه نبي، وأنّه يأمُر بالمعروف ويَنهى عن المُنكر ويأمر بمكارم الأخلاق، فأرسلت أخي ليأتيني بخبره، فَلم يأتِني بما يَشفني، فَجِئت بنَفسي لألقاه»، ثمّ عرّف علياً عن نفسه، فأخبره علي ﴿ﷺ﴾ أنه نبي، وأن ما جاء به حق؛ ثم أخذه ليلاً إلىٰ النبي ﴿ﷺ﴾ فوجد أبو ذر ضالّته.

وبعد مُدّة تهيأ أبو ذرّ للرجوع إلىٰ قبيلته، فجاء إلىٰ النبي ﴿ﷺ﴾ لوداعه، فقال له النبي ﴿ﷺ﴾:

«ترجعُ إلىٰ قومك حتىٰ يَبلغك أمري...»

- فقال أبو ذرّ: «والذي نفسي بيده لا أرجع حتىٰ أصرخَ بالإسلام في المسجد» فلمّا خرج من عند النبي واجه جَمعاً من قريش، فدَعَاهم إلىٰ الإسلام، فحملوا عليه، وأوجعوه ضرباً حتىٰ صُرِعَ، فأتاه العبّاس، فأكبّ عليه، وقال:

- قَتَلتم الرّجل يا معشر قريش، أنتم تجار وطريقكم علىٰ "غفار"، فرجع أبو ذرّ إلىٰ قبيلته، وَبَشّر النّاس بالدين الجديد، ثم التحق بالنبي ﴿ﷺ﴾ وهو في المدينة، بعد غزوتي "بدر" و"أحد"، ولمّا كان وحيداً كان ينام في المسجد مع "أصحاب الصفة"، وبعد أن تزوّج نَصب خيمةً له علىٰ تلٍّ قرب المدينة وأقام فيها.

وجاء في الكتب التاريخية أنّ أبا ذر كان لا يُفارق الرسول ﷺ، وقد جاء أيضاً أنّ المسلمين في غزوة "تبوك" كانوا لا يملكون إلا القليل من العَتاد، ثمّ مضىٰ رسول الله ﴿ﷺ﴾ سائراً، فَجعل يَتَخلّف عنه الرّجل، فيقولون: يا رسول الله تخلّف فلان، فيقول: دَعُوه فإنْ يَكُ فيه خير فسيُلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه، حتىٰ قيل: يا رسول الله تخلّف أبو ذرّ وأبطأ به بعيره، فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه. قال: وتَلَوّم أبو ذرّ علىٰ بعيره، فَلَمّا أبطأ عليه أخذ متاعه، فحمله علىٰ ظهره، ثمّ خرجَ يَتبع أثرَ رسول الله ماشياً، ونزل رسول الله في بعض

منازله. فنظره ناظرٌ من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إنّ هذا الرّجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله﴿ﷺ﴾: كُن أبا ذرّ فلمّا تأمّله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو أبو ذرّ، فقال رسول الله﴿ﷺ﴾: يَرحَم الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده.

وقال عنه أيضاً:

«ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر»[1].

وكما ذكرنا فإنّ أبا ذرّ كان كثيراً ما يعترض على عثمان، وعلى الأوضاع التي كانت في عهده، والبذل والعطاء الذي وصل إلى حدّ التبذير من قِبَل عثمان من جهة، وكثرة التوجّه والإقبال على الدنيا من قبل المسلمين، وخصوصاً بعض الصحابة من جهة أخرى. ممّا كان يُقلق أبا ذرّ ويزيد من اعتراضه على هؤلاء. وهذا كان شيئاً مزعجاً بالنسبة لأولئك الذين التفّوا حول عثمان.

وفي النهاية يسافر أبو ذرّ أو يَتم تبعيده إلى الشام، فَيَجِد أنّ الأمر لا يختلف عمّا هو في المدينة، بل يُشاهد بِدَعاً جديدة، فقد اتبع حاكم الشام طريقة القياصرة الرومان. وجمع حوله مجموعة من النّاس وقرّبهم منه، وأكثر البذل عليهم، وغَفِل عمّا يُعانيه بقية النّاس من فقر. ولذلك جمع أبوذر النّاس حوله في المسجد، وحاول أن يَعِظَهم ويتحدث لهم عن السيرة النبوية، وسيرة الشيخين من بعده، ولذلك قال البعض لمعاوية:

«بقاء أبو ذرّ في الشام ليس من مصلحتنا، فربما يحرك ويثير الناس علينا»

كتب معاوية كتاباً إلى عثمان في المدينة فأمر عثمان بتسيير أبا ذرّ إلى المدينة. ولمّا وصل إلى المدينة وبّخه بعنف، ومن ثمّ أبعده إلى "الرَّبذة".

١- الإصابة في تمييز الصحابة؛ وأيضاً: أبو ذرّ الغفاري ترجمة المؤلف.

وعندما كان أبو ذرّ في طريقه إلىٰ الرَّبذة رأىٰ علياًﷺ. فقال له عليﷺ:

«يا أبا ذرّ! إنك غضبت لله. فأرج من غضبت له. إن القوم خافوك علىٰ دنياهم، وخفتهم علىٰ دينك. فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه. فما أحوجك إلىٰ ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غداً. والأكثر حُسَّدا»[1].

كما أنّ عثمان أمر بضرب عمار، فَضُرب بشدّة حتىٰ غاب عن وعيه، فحملوه إلىٰ بيت أم المؤمنين أم سلمة (زوج النبي﴿ﷺ﴾)، وبقي فاقداً لوعيه بقية يومه. ففاتته صلاتا الظهر والعصر.[2]

وقد أسرف عثمان في عطاء أقربائه ومنع المستحقين من مال بيت مال المسلمين بشكل كبير بحيث كان وكأنه يعطي من مال أبيه. وقد قال عليﷺ حول هذا الأمر:

«وقام معه بنو أبيه يَخْضمون مال الله خَضمة الإبل نَبتَة الرّبيع. إلىٰ أن انتكث عليه فَتلُه، وأَجهز عليه عمله، وكَبَتْ به بِطنَته»[3].

وقد سعىٰ عليﷺ في تلك الأيام العصيبة كثيراً لإصلاح ما بين عثمان والمعترضين عليه. وفي إحدىٰ المرّات بعد أن تكلم معه أهل مصر ذهب علي﴿ﷺ﴾ إلىٰ عثمان. وقال له:

١- نهج البلاغة. الخطبة ١٣٠.

٢- راجع كتاب: "انقلاب بزرگ" ترجمة المؤلف، ص١٧٧ وما بعدها.

٣- نهج البلاغة. الخطبة ٣.

«تكلّم كلاماً يسمعه الناس منك، ويَشهدون عليه، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإنّ البلاد قد تَمَخَّضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يَقدمون من الكوفة، فتقول يا علي اركب إليهم، ولا أقدر أن أركب إليهم، ولا أسمع عذراً؛ ويقدم ركبٌ آخرون من البصرة، فتقول يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقّك».

فذهب عثمان إلى المسجد، وخطب بالناس خطبة طلب فيها التوبة من الله، وقد قال:

«فأنا أول من اتعظ. أستغفر الله ممّا فَعَلتُ وأتوب إليه. فَمِثلي نزَعَ وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم، فَلْيُروني رأيهم، فوالله لَئِن رَدَّني الحقُّ عبداً لأَسْتَنَنّ بسُنَّة العبد، ولأَذِلَّنَّ ذُلَّ العبد».

وعندما عاد إلى بيته وجد هناك مروان وسعيد بن العاص، فتحدثا معه واعترضا على ما قاله في المسجد[1].

وقد أراد الطبري وتبعاً له ابن الأثير، ونقلاً عنهم بقية المؤرخين أن يبرروا ويوجهوا ما وصَل إليه عثمان من حالة سيئة في الحكم، وكثرة المعترضين عليه. فَنَسَبوا ذلك إلى رجل يُدعى «ابن سبأ» أو «ابن السوداء»، قالوا:

«كان ابن سوداء يهودياً يعيش في أهمّ المُدن الإسلامية، وكان يريد أن يدسّ بعض العقائد اليهودية ضمن الشريعة الإسلامية».

بغضّ النّظر عن كون ابن سبأ أسطورة مُخترعة من قِبَل البعض أم كان حقيقة، فهذا أمر

١- الكامل، ج٣، ص ١٦٤.

محل بحث. ولكن من المؤكد أنّه لم يكن هنالك أية علاقة فيما حصل من اضطراب ضدّ عثمان لابن سبأ بهذا الموضوع. فإذا دَقّقنا بالحوادث التي وقعت في ذلك الزمان، وقُمنا بتحليلها تحليلاً صحيحاً، فإنّنا سَنَجِد بأنّ أولئك الذين التفوا حول عثمان وتسلّموا المناصب كانوا أخطر مما يُزعم "ابن سبأ". فهم من كانت صفحات أعمال حياتهم مَطلية بالسّواد والتقصير. وهم من تَسَلّط على بيت المال الذي هو لجميع المسلمين، وتصرف به كما يشاء. وهم من كان السبب في وقوف الناس ضد عثمان، من أمثال سعيد بن العاص، وعبد الله بن سعد ومروان وغيرهم. ووقفوا مكتوفي الأيدي دون تقديم أي مساعدة له. وها هو ابن الأثير ينقل في تاريخه أن عمروبن العاص قال:

«والله لو استطعت أن أُحَرّض الليل على عثمان لَفَعَلت». ونقل أيضاً أنه كان يوماً في قصره في فلسطين مع ابنيه محمد وعبدالله، فرأى رجلاً قادماً من المدينة، فسأله عن عثمان، فأخبره الرجل بأن عثمان يعيش أوضاعاً سيئة، فقال عمرو مثلاً معناه:

«لقد حل به ما يجب أن يكون». ومرّة أخرى رأى رجلاً قادماً من المدينة، فسأله عن عثمان، فأجابه الرجل بأن عثمان قد قُتِل، فقال عمرو:

«أنا أبو عبد الله إذا حَكَكْت قرحة نكأتها» أي إذا تكفلت عملاً أتْمَمْتُه[1].

لنفترض بأن ما ذكره الطبري ومن شاركه الرأي حول "ابن سوداء" حقيقة، وأنه كان يُحَرّض النّاس في مصر ضد عثمان، فما هو شأن العراق؟ فهل كان "ابن سوداء" ينتقل من مكان لآخر بهذه السهولة، ويقول ما يقوله عن الخليفة دون أن يوقفه عمّال عثمان عند حدّه؟ وإن كان أصحاب عثمان يعلمون بالأمر، فلماذا تركوا المجال لابن سوداء بأن يتحرك بهذه الحرية، ويتكلم بهذه السهولة حول عثمان؟. في هذه الحالة فإن قَتَلَة عثمان هم عمّاله وليس "ابن سوداء"، هؤلاء الذين استولوا على بيت المال واحتكروه لأنفسهم وأقاربهم، وضيعوا بذلك نصيب المقاتلين المجاهدين في الخطوط الأمامية، ولم يحفظوه لهم. وقاموا

١ - الكامل، ج ٣، ص ١٦٣.

بإبعاد أصحاب الرسول الخُلَّص عنهم. وقد تَحَمَّل النّاس ما تحملوا من هؤلاء، وفي نهاية المطاف نفذ صبرهم فثاروا على عثمان ومن حوله، ومن سوء حظّ عثمان أن الأمويين قد تكتلوا حوله، ولم يتركوا له المجال للإطلاع على ما يجري بين النّاس من جهة، ومن جهة أخرى لم يتوقف هؤلاء عن التلاعب ببيت المال. وقيل أنّه في تلك الفترة بعث عثمان ابن عباس إلى علي عليه السلام يطلب منه الخروج إلى «يَنْبُع»، فقال له علي عليه السلام:

«يا ابن عباس! ما يُريد عثمان إلا أن يَجعَلني جملاً ناضحاً بالغرب، أقبل وأدبر، بعث إليّ أن أخرج، ثم بعث إلى أن أقدم، ثمّ ها هو الآن يبعث إلى أن أخرج!»[1].

وفي النهاية يئس النّاس من الوضع، ومن جواب عثمان على الشكاوى التي كانوا يُقدمونها. فحضروا إلى المدينة، فصعد عثمان المنبر يوماً، وخَطب بالنّاس قائلاً:

«يا أيّها الناس! إنّ أهل المدينة لَيَعلَمون أنّكم ملعونين على لسان الرسول صلى الله عليه وآله فامحوا الخطايا بالصواب، فإنّ الله عزّوجل لا يمحو السيئ إلا بالحَسَن».

وكَثُر البحث والجدال في ذلك المجلس فقام رجل من قبيلة أبي ذرّ اسمه جهجاه [جحجاح] بن سعيد كان ممّن حضر في بيعة «الرضوان»، فأخذ العصا التي كانت بيد عثمان وضربه على ركبته، وثار الحاضرون جميعاً على عثمان، وشَدّدوا الحصار عليه، ومنعوه من الصلاة بهم، فصلى بالنّاس أمير الثائرين القادمين من مصر "الغافقي"، وقطعوا عن عثمان الماء[2].

ومما ورد في الأسناد المعتبرة أن علياً عليه السلام كان أكثر الناس مساعدة لعثمان في ذلك الوقت.

١ – نهج البلاغة، الخطبة ٢٤٠.

٢ – الفتنة الكبرى، صص ٢١١ – ٢١٢.

وبقي هكذا حتىٰ اللحظات الأخيرة، فقد جاء في الطبري أن عثمان بعث لعلي ﷺ طالباً منه المساعدة في إيصال الماء إليه، كما أنّه أرسل مثل ذلك إلىٰ كل من طلحة والزبير وعائشة ونساء النبي ﷺ، وكان أولهم علي وأم حبيبة، حيث أن علياً ﷺ ذهب للنّاس ليلاً، وقال لهم:

«يا أيها الناس! إن الذي تصنعون لا يُشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل المادة، فإنّ الروم والفرس لَتأسِر فَتُطعم وَتَسق، وما تَعَرّض لكم هذا الرجل، فَبِمَ تَستَحلّون حصره وقتله؟».

قالوا:

«لا والله لا نتركه يأكل ويشرب»، فرمىٰ عمامته في الدّار، بأني قد نهضت فيما أنهضتني[1]. ولم يُجِب عثمانَ أحدٌ ممن بعث إليهم يستنجدهم سوىٰ علي﴿ﷺ﴾ وأم حبيبة التي تعرّضت للإهانة من قبل الثائرين.

كان واضحاً بأن الثائرين لن يتراجعوا عن مطالبهم، ولن يُصغوا للوساطات ولا للحلول السلمية. وفي تلك الأثناء جاء إليهم كل من عبدالله بن عمر، وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومحمد بن طلحة وكلّموهم بأن يتراجعوا عن أمرهم، وأن لا يقفوا في وجه عثمان، ولكن في ذلك الوقت بالذات أشيع بين الناس أن جيوشاً من العراق والشام قادمة لنصرة عثمان، ممّا جعل الثائرين يُسرعون في القضاء علىٰ عثمان.

ألم يكن في المدينة من وجهائها من يُحرك الثائرين من وراء الكواليس؟

ألم تكن هناك أيدٍ خفية تتمنىٰ الموت لعثمان؟

ألم يكن هناك من يطمع بالخلافة، وينتهز فرصة القضاء علىٰ الخليفة للوصول إلىٰ نواياهم؟

---

١ - الطبري، ج٦، ص ٣٠١٠.

إذا دقّقنا في كتب التاريخ فإننا لا نجد أجوبة صريحة عن هذه الأسئلة، ولكن من خلال ثناياها، كما سوف نذكر، لو أراد البعض من كبار أهل المدينة إرجاع النّاس عن أمرهم لأرجعوهم، ولكنّهم لم يتكلموا معهم أبداً، إلا أنّهم بعد قتل عثمان لم يُنكروا قتله وحسب، وإنما اتهموا بني هاشم بقتله، وقد اتّهم الوليد بن عقبة في شعر له في رثاء عثمان بني هاشم بقتلهم له، وأنه مُنكر لهذا الأمر ومخالف له.

هذه الأبيات قالها شخص كان والياً على الكوفة من قبل عثمان ومن الواضح أنه عندما اتّهم بني هاشم بقتل عثمان لم يكن هدفه تحديد وكشف القاتل الحقيقي وإنما قال ذلك لإثارة حقد الأمويين ضدّ بني هاشم. وإلا كان عليه أن يذكر القاتل بالاسم كما فعل مروان بن الحكم:

«إن طلحة هو من دفع عثمان إلى الموت».

الفصل الثالث عشر

بعد أن قتل الثوار عثمان بن عفّان بدؤوا بالتفكير بمن سيتولى أمر الخلافة. ومن الطبيعي البديهي أن يكون للمسلمين قائد يُدير شؤونهم. فمن هو أحق من علي ﷺ بالخلافة؟.

يخبرنا التاريخ بأنّ البعض قد علّقوا آمالهم على الخلافة كطلحة والزبير وغيرهم ممن كان في المدينة، ومن طرف آخر طمع معاوية أيضاً بهذا المنصب، فقد حكم الشام لمدة عشرين عاماً، وقد رأى أهل الشام يساندونه في هذا الأمر.

إلا أن ما استقر عليه المسلمون كان مخالفاً لما أراده أولئك الناس. فقد وقع اختيارهم على علي بن أبي طالب، فجاؤوه يريدون مبايعته. ومع كل أسف جاؤوه بعد أن فات الأوان. ولم يعد الوقت مناسباً لخلافة علي ﷺ، فبعد مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاة الرسول ﷺ كانت قد تغيرت كثير من السنن، وعطلت كثير من الأحكام، واستولى على بيت المال أناسٌ لم يتحملوا في هذه المدة أي عناء أو مشقة من أجل الإسلام والمسلمين ولمّا عمر أسس ديوان العطاء وجعل أساسه على أساس السابقة في الإسلام، لم يخطر في باله ولم يكن يحتمل ما سيصل إليه الوضع. ولم يمض وقت طويل حتى شاهد المجاهدون بأمّ أعينهم، كيف أنهم يكابدون جهاد الأمم في الجبهات، وكيف يُرسلون الغنائم التي يحصلون عليها الى المدينة، وكيف تنهال الصدقات الى بيت المال، وكيف أن البعض وهم قابعون في منازلهم، يستفيدون أكثر بكثير ممن يشقّ في الحصول عليها. وكله لأن هؤلاء سبقوا الآخرين في الإسلام. والأسوأ من هذا هو أفعال زعماء قريش، هذه القبيلة الأنانية، المحبة للجاه والتي

استطاعت في "السقيفة" احتكار السلطة والرئاسة برواية أتى بها أبو بكر[١] وكانت تتفاخر على غيرها من قبائل العرب وعلى المسلمين من غير العرب.

بالإضافة إلى ما كان يُكنّه بنو أمية وهم من قريش لبني هاشم من كره وحقد، وتحديداً لعلي عليه السلام الذي قَتَل الكثير من زعمائهم وكبارهم في معركة بدر.

سعى عمر في فترة خلافته ما أمكنه إلى حصر فعاليات زعماء قريش، وعدم السماح لهم بالخروج من المدينة.

ولكن في عهد عثمان تربعت قريش على السلطة، وجمعت المال والجاه، والآن يواجه علي عليه السلام داخل المدينة مثل هؤلاء الناس، وهم الذين لا يزالون يتعلقون بقبائلهم حتى لو كان إسلامهم عن صدق ورغبة. وهم الذين كانوا ينظرون قبل الإسلام إلى بني هاشم لفقرهم بعين الازدراء. وكان علي عليه السلام واعياً لكل هذه المشاكل وعشرات المشاكل الأخرى غيرها. وكان يقول:

«دعوني والتمسوا غيري. فإنّا مُستقبلون أمراً له وجوه وألوان. لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. وإنّ الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تفكرت. واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أُصغ إلى قول القائل وعَتَب العاتب. وإن تركتموني فأنا كأحدكم. ولَعَلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم. وأنا لكم وزير، خير لكم مني أمير!»[٢].

وذكر بعض المؤرّخين أنّ البيعة تمّت لعلي عليه السلام في نفس اليوم الذي قُتل فيه عثمان. وذكر بعضهم أن ذلك تمّ بعد ثلاثة أيام. ومنهم من قال أن البيعة تمّت بعد ثمانية أيام. والرأي

١- الأئمة من قريش.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٩٢؛ الطبري، ج٦، ص٣٠٧٦.

الأخير هو الأرجح. وقيل أنّ الحاضرين قالوا لعلي ﷺ إننا لا نتركك حتىٰ نبايعك. فقال لهم:

«ففي المسجد. فإن بيعتي لا تكون خفياً».

وجاء في كتب التأريخ أن طلحة هو أوّل من بايع علياً ﷺ. بايعه بيد مشلولة. فنظر حبيب بن ذؤيب إلى طلحة، وقال متشائماً: "أول من بدأ بالبيعة يدٌ شلاّء، لا يتم هذا الأمر".

وبايع معظم الناس لعلي ﷺ، وقد قال ﷺ في ذلك:

«فتداكّوا عليّ تداكّ الإبل الهيم يوم وردها، وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها، حتىٰ ظننت أنهم قاتلي، أو بعضهم قاتل بعض ولدي»(١).

وقال في خطبة أخرىٰ:

«فما راعني إلا والناس كعُرف الضبع إليّ، ينثالون عليّ من كل جانب، حتىٰ وطيء الحسنان، وشُقَّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم»(٢).

ونقل عنه ﷺ في خطبة أخرىٰ أنه قال:

«وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداككتم علي تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتىٰ انقطعت النعل وسقط الرداء، ووطيء الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهرج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب»(٣).

١- نهج البلاغة، الخطبة ٥٤.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٣ (الشقشقية).

٣- نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٩.

ذكر اليعقوبي:

« بايع الناس إلا ثلاثة نفر من قريش: مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة وكان لسان القوم، فقال [الوليد]: يا هذا! إنّك قد وترتنا جميعاً، أما أنا فقتلت أبي صبراً يوم بدر وأمّا سعيد فقتلت أباه، وعبت على عثمان حين ضمّه إليه... فتبايعنا على أن تضع عنّا ما أصبنا، وتعفي عمّا في أيدينا، وتقتل قَتَلَةَ صاحبنا».[1]

فغضب علي، وقال:

«أمّا ما ذكرت من وتري إياكم، فالحقّ وتركم؛ وأمّا وضعي عنكم ما أصبتم، فليس لي أن أضع حق الله تعالى؛ وأمّا إعفائي عمّا في أيديكم: فما كان لله وللمسلمين، فالعدل يسعكم، وأما قتلي قَتَلَة عثمان؛ فلو لزمني قتلهم اليوم لزمني قتالهم غداً».

وجاء في تاريخ الطبري نقلاً عن علي بن الحسين أن علياً عليه السلام خطب بالناس بعد بيعتهم له، فقال:

«إنّ الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر، فخذوا نهج الخير تهتدوا، واصدفوا عن سمت الشر تقصدوا.

الفرائض الفرائض! أدّوها إلى الله تؤدِّكم إلى الجنّة. إنّ الله حرّم حراماً غير مجهول، وأحل حلالاً غير مدخول، وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلّها، وشدّ

١- تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٤.

بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها، فـ«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» إلا بالحق، ولا يَحِل أذىٰ المسلم إلا بما يجب.

بادروا أمر العامّة، وخاصة أحدكم وهوالموت، فإنّ الناس أمامكم، وإن الساعة تحدوكم من خلفكم، تخفّفوا، فإنّما يُنتظر بأولكم آخركم.

اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتىٰ عن البقاع والبهائم.

أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه»[1].

وذكر الطبري في تاريخه أن المغيرة بن شعبة ذهب إلىٰ عليؑ وقال له:

«إن لك عليّ حق الطاعة والنصيحة. أقرر معاوية علىٰ عمله، وأقرر ابن عامر علىٰ عمله، وأقرر عمال عثمان علىٰ أعمالهم حتىٰ إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت». فقالؑ: «حتىٰ أنظر»، فخرج من عنده، وعاد إليه من الغد، فقال:

«إني أشرت عليك بالأمس برأي، وإنّ الرأي أن تعاجلهم بالنزوع، فيعرف السامع من غيره ويستقبل أمرك، ثم خرج، فتلقّاه ابن عباس خارجاً، وهو داخل، فلما انتهىٰ إلىٰ علي، قال: «رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك»، قال عليؑ:

«جاء في الأمس بذية وذيّة، وجاءني اليوم بذية وذية»، فقال ابن عباس:

«أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك».

ماكان ينظر إليه المغيرة وابن عباس هو الحكومة والرئاسة، وأما ماكان علي يريده فهو إجراء العدالة وتطبيقها، واتباع السنّة؛ كان عليؑ يريد الحكومة رضىً للـه، وكان هؤلاء ينظرون إليها من باب الرئاسة، وبين هاتين النظرتين مسافة بعيدة جداً وقلّما يستطيع شخص أن يرىٰ من هذه الجهة ما في الجهة الأخرىٰ، وما هي عاقبة الأمر، وربما

١- الطبري، ج٦، صص٣٠٧٨ - ٣٠٧٩؛ نهج البلاغة، الخطبة ١٦٧.

لأجل هذا قال علي﵇ لابن عباس:

«لك أن تشير علي وأرى، فإن عصيتك فأطعني»[١].

وحرص﵇ حرصاً شديداً على بيت المال، والمحافظة على أمواله، وصرفها في مواضعها. وقد خطب خطباً كثيرة تدل على ذلك كما تدل على عدله وتقواه، فقد قال:

«والله لو وجدته قد تُزوج به النساء، ومُلك به الإماء لرَدَدته، فإن في العدل سَعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجَور عليه أضيق!»[٢].

وقد أكّد الإمام﵇ للناس بكلامه وعمله، وخصوصاً لأولئك الذين طمعوا بالمال والسلطة بأنهم في عهده لن يستطيعوا الحصول على أي شيء من أغراضهم ومطالبهم الدنيوية.

ومن الواضح جداً ماذا سيكون ردّ فعل هذا الكلام في أوساط أقارب عثمان والأسرة الأموية وغيرهم من الأشخاص الذين كانوا حتى ذلك اليوم يستفيدون من بيت مال المسلمين بغير حق، وماذا سيترك فيهم من أثر، وكيف أعدّوا أنفسهم للوقوف ضده ومواجهته.

جاء في تاريخ ابن الأثير أنّه عندما بايع الناس علياً﵇ فرّ معظم الأمويين إلى مكّة ليجعلوا منها مقراً لأعداء، ومخالفي الإمام﵇[٣].

على أية حال، بويع علي﴿﵇﴾ بالخلافة في وقت كانت قد ظهرت فيه كثير من المشاكل السياسية والإدارية في المجتمع الإسلامي. أي أنّه وصل إلى الخلافة في أسوأ ظرف

١- قصار الحكم، ٣٢١.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٥.

٣- الكامل، ج٣، ص١٩٢.

تاريخي. كان الوقت غير مناسب على الإطلاق، لأنّ الناس الذين كانوا في عصره لم يكونوا هم أولئك الذين بايعوه فقط.

الله وحده هو الذي يعلم ما الذي تُضمره قلوب بعض الناس من الذين بايعوه.

أهالي مكّة والكوفة والبصرة وغيرها من الولايات والأمصار الإسلامية تربّوا على سنن مغايرة لسنّة الرسول التي كانت قبل ربع قرن من الزمن تقريباً. وكان علي﵇ يريد أن يُرشد هؤلاء إلى السنة الصحيحة والطريق السوي الذي سار فيه هو ولا يزال يسير عليه مع قلّة من أصحاب رسول الله الحقيقيين.

أليس إرجاع هؤلاء الناس إلى سنة النبي﴿ﷺ﴾ مستحيلاً أو في غاية الصعوبة؟

كان هناك حكام وولاة ظَلَمة يتقلدون المناصب في الولايات الإسلامية، وكان يجب عليه أن يعزلهم عن أعمالهم، ويخلص النّاس منهم. وكل واحد من هؤلاء الحكام ينتمي إلى أسرة معينة وكل أسرة ترتبط بقبيلة محددة؛ فهل يقعد هؤلاء هادئين؟.

الفصل الرابع عشر

أول ما قام به علي﵇ بعد استقرار الوضع في المدينة هو أن بعث عُمّاله إلىٰ الأمصار، فبعث عثمان بن حنيف علىٰ البصرة، وعمارة بن شهاب علىٰ الكوفة، وعبيد الله بن عبّاس علىٰ اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة علىٰ مصر، وسهل بن حنيف علىٰ الشام.

وبسبب عدم توافر الظروف الملائمة للعُمّال الجُدَد لم يوفقوا للإمساك بزمام الأمور. فكان الناس لا يزالون يتلقون الأوامر من الولاة المعزولين الذين لم ينصاعوا لأوامر الخليفة بالتخلي عن الحكم. بالإضافة إلىٰ عدم قدرة الولاة الجدد علىٰ إجبار هؤلاء ترك مناصبهم، ولم تكن عند الناس تلك البصيرة الكافية ليميزوا بين الحق والباطل.

كما لم يكن عندهم ذلك الخوف من الخلافة المركزية والخليفة الجديد للإنصياع لأوامره.

فلا الحكام الذين توجهوا من قبل علي﴿﵇﴾ إلىٰ الأمصار كان لديهم القوة والقدرة اللازمة لتسلم مقاليد الأمور ولا الحكام المعزولين كان لديهم التقوىٰ بحيث يتخلون عن الحكومة لأصحابها الشرعيين من قبل الإمام؛ ولا الناس كان لديهم مثل تلك البصيرة بحيث يميزون الحق من الباطل أو يستشعرون الخوف في قلوبهم من الخليفة الجديد. فأما سهل بن حنيف فإنه خرج حتىٰ إذا كان بتبوك[1] لقيته خيل.

- فقالوا: من أنت.

- قال: أمير.

١- منطقة في شمال الحجاز علىٰ طريق المدينة المؤدية الىٰ دمشق. وهي حالياً مدينة في بلد الحرمين.

- قالوا: علىٰ أي شيءٍ،

قال: علىٰ الشام،

فقالوا: إن كان عثمان بعثك فأهلاً بك، وإن كان بعثك غيره، فارجع من حيث أتيت.

- قال: أَوَمَا سمعتم بالذي كان في المدينة.

- قالوا: بلىٰ.

فرجع سهل إلىٰ علي خائباً.

وأمّا قيس بن سعد فإنه لمّا انتهىٰ إلىٰ "أيلة"[1] لَقِيَتْه خيل،

- فقالوا: مَن أنتَ؟،

- قال: قيس بن سعد،

- قالوا: امضِ،

فمضىٰ حتىٰ دخل مصر، فافترق أهل مصر ثلاث فرق، ففرقة كانت معه، وفرقة قالت: إن قُتل قَتَلَة عثمان فنحن معكم، وإلا فنحن ضدكم، وفرقة لم تكن لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فكتب قيس إلىٰ علي ﴿عليه السلام﴾ بما حدث معه في مصر.

وهكذا نرىٰ أن قيساً كان رجلاً مفكراً ومدبراً للأمور، فقد أرضىٰ العثمانيين، وأخذ منهم الأمان لنفسه وإمارته، كما أنّه كان مُحسناً مع الآخرين. ولكن ما لبث العثمانيون أن بعثوا إلىٰ معاوية بما حدث في مصر، والذي بعث بدوره إلىٰ العثمانيين القريبين من مركز الخلافة ليعملوا علىٰ تشويه سمعته، وقد كتب يوسف الكندي في كتابه «كتاب الولاة وكتاب القضاة[2]» الذي يصف فيه ولاة وقضاة مصر، حول قيس ما يلي:

«كان قيس من أهل الرأي والبأس وكان معاوية وعمرو جاهدين أن يخرجاه

١- بلدة علىٰ ساحل بحر القلزم [الأحمر]؛ علىٰ جانب الصحراء الفاصلة بين الشام ومصر.

٢- صص ٢٠ - ٢١.

من مصر فَتَغَلَّب علىٰ أمرها، وكان قد امتنع منهما بالدهاء والمكايدة. فلم يقدرا أن يلجا مصر حتىٰ كاد معاوية قيساً من قبل علي، فقال معاوية لأهل الشام: "لا تسبّوا قيساً، ولا تدْعوا إلىٰ غزوه، فإنّ قيساً تأتينا كُتُبُه ونصيحته. وطَفِقَ معاوية يكتب بذلك إلىٰ شيعته من أهل العراق. فسمع بذلك العراقيون. فأنهاه [أي الخبر] محمد بن أبي بكر إلىٰ علي، وكان سبب عزله له».

طبعاً إذا كانت قصة دخول قيس إلىٰ مصر كما ذكره التاريخ، فإنه من الواضح أنّ قيساً لم يكن غافلاً عن العثمانيين وثقلهم، ولم يكن كما أشاع عنه معاوية. إلا أنّ المُحَلِّلين الذين كانوا حول علي ﷺ هم من انخدع بمعاوية وغيره، وأصروا علىٰ الإمام بعزل قيس، وكما سنرىٰ في ما بعد، كيف انخدع هؤلاء عندما أشاع معاوية بأنه سيهدم السدّ الموجود علىٰ الفرات ليغرقهم، فأصرّوا علىٰ علي أن يترك المكان. فجاء معاوية وعَسْكَر فيه، وكم أريق من الدّماء حتىٰ تمكنوا ثانية من السيطرة عليه واسترداده.

وأمّا عبيد الله بن عباس فقد انطلق إلىٰ اليمن، وعندما سمع يَعلىٰ بن منية بقدومه جمع ما كان في بيت المال واتجه فارّاً إلىٰ مكّة.

وأما عثمان بن حنيف فقد سار إلىٰ البصرة، ولم يعترضه أحد من أهل البصرة، فانهمك في عمله إلىٰ أن حضر طلحة والزبير وعائشة إلىٰ هناك. فاختلفوا معه فأخرجوه من البصرة.

وأما عمارة، فأقبل حتىٰ إذا صار بزبالة[1] لَقِيَه طليحة بن خويلد وكان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلىٰ الطلب بدمه، وعندما عرف أنّه قادم للإمارة علىٰ الكوفة، قال له:

«ارجع، فإنّ القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً، وإنْ أَبَيت ضَربت عنقك، فرجع عمارة إلىٰ علي بالخبر.

وباقتراح من الأشتر النخعي أبقىٰ علي ﷺ أبا موسىٰ والياً علىٰ الكوفة. وقد ورد ما

١- منزل بين الكوفة والمدينة.

ذكرناه في أمر توزيع علي عمّاله علىٰ الأمصار في كتب التاريخ المختلفة تاريخ الطبري وابن الأثير وغيرها... كما تشاهد حالات من المواجهة بين سكّان الولايات والحكام الجدد. فلماذا؟ للحصول علىٰ الجواب الصحيح لا بدّ من التعرف جيداً علىٰ سكان تلك الولايات.

***

انفرد معاوية بدهائه بحكم الشام ما يقرب من عشرين سنة، فالتفَّ حوله زعماء وكبار أهل الشام وكان لهؤلاء كلمة مسموعة لدىٰ أهل الشام. وقد قال علي عليه السلام حول ذلك:

« إنّ معاوية يدعو الجفاة الطَّغام، فيتبعونه علىٰ غير معونة ولا عطاء»[1].

وأمّا بالنسبة للكوفة فقد حاز أبو موسىٰ - الذي هو من أصل يماني - علىٰ حبّ أهل الكوفة. وفي مصر، رغم انقسام الناس إلىٰ فرق عديدة، استطاع قيس بدرايته وحكمته أن يُوفّق بين أهمّ فريقين.

وأمّا أهل اليمن فلم تكن علاقتهم مع العثمانيين حسنة، وفضلاً عن ذلك، فإن حاكمها بعد مقتل عثمان خاف وذُعر ولاذ بالفرار. وكما سوف نشاهد، فإن قيساً كان أكثر توفيقاً في عمله نسبياً، لأن العثمانيين كانوا هناك قلّة، وتمكّن من جذبهم إليه.

وأما المدينة فلم تكن الأمور تسير فيها كما يريد الإمام فبالإضافة إلىٰ أولئك الذين لم يوافقوا علىٰ خلافة الإمام من الأمويين وكثير من المُضريين والموالين لعثمان منذ البداية، بدأ البعض ممّن بايع الإمام علي عليه السلام بالرجوع عن بيعته، وإحداث الفتن والمشاكل.

كان كلّ من طلحة والزبير ممّن علّق آماله علىٰ الخلافة التي ذهبت من أيديهما. فبدءا بالسعي للحصول علىٰ مناصب في الحكومة، إلا أنّ الإمام لم يفسح لهما المجال لأنّه لم يكن يرىٰ أنهما أهل لذلك. ولهذا ذهبا إليه مُعاتبين له أنه قد استغنىٰ عن مشورتهما. فقال لهما:

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٨٠.

«والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنّكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها»[١].

ثم قال لهما:

« لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم»[٢]. كما قال لهم:

« لقد نقمتما يسيراً، وأرجأتما كثيراً، ألا تُخبراني أي شيء كان لكما فيه حق دفعتكما عنه؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه إليّ أحد من المسلمين ضَعُفت عنه، أم جهلته أم أخطأت بابه؟»[٣].

في خاتمة المطاف جاءا إلى الإمام طالبَين منه السماح لهما بالذهاب لأداء مناسك العمرة، فسمع لهما علي ﷺ بالذهاب، وهو عارف بأنّ ذهابهما ليس إلا خدعة، وحسب.

هنا يجب أن نتساءل، لماذا قام هذان الصحابيان، وهما من السابقين إلى الإسلام، بهذا العمل؟ هل صدر من الإمام كلام أو فعل لا ينبغي أن يصدر من الخليفة؟ ألم يعلموا بأنه من بايع إماماً وَجَبَت عليه طاعته؟ بلى! ولكن «إذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الدَّيّانون»

وقد تحدّث الإمام كثيراً عن بيعة الناس له، وما جرى فيها من أحداث بينه وبين من بايعه، ومن لم يبايعه، وقد كتب كتاباً لمعاوية ذكر فيه:

« لأنّها بيعة واحدة لا يُثنى فيها النظر، ولا يُستأنف فيها الخيار، الخارج منها

١- نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٥.
٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٣٦.
٣- نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٥؛ المعيار والموازنة، ص١١٣.

طاعن، والمروي فيها مداهن»[١].

ولكن وكما ذكرنا كانا يريدان شيئاً آخر، وكان كلامهما غطاءاً، وكان الإمام يعرف ذلك أيضاً، قال حول ما جرىٰ بينه وبين طلحة والزبير:

«كل واحدٍ منهما يرجو الأمر له، ويعطفه عليه دون صاحبه، لا يَمُتّان إلىٰ الله بحبل، ولا يَمُدّان إليه بسبب، كل واحدٍ منهما حامل ضبٍّ[٢] لصاحبه، وعمّا قليل يكشف قناعه به»[٣].

وشيئاً فشيئاً، قام هذان مع جمع من الأمويين بإلصاق تهمة قتل عثمان به، فقال حول ذلك:

«والله ما أنكروا عليّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً، وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه، ودماً هم سفكوه، فإن كنت شريكهم فيه، فإنّ لهم نصيبهم منه، وإن كانوا ولُوه دوني فما الطلبة إلا قبلهم»[٤].

٢- حقد.

١- نهج البلاغة، الخطبة ٧.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ١٤٨.

٤- نهج البلاغة، الخطبة ١٣٧؛ وانظر أيضاً الخطبة ٢٢.

الفصل الخامس عشر

ومن المناسب هنا أن نتعرف علىٰ شخصية كل من طلحة والزبير، فأما الثاني فهو الزبير بن العوام بن خويلد (والد السيدة خديجة زوجة الرسولﷺ)، أمّه صفية بنت عبدالمطلب عمّة الرسولﷺ. وقد شارك الزبير في غزوة بدر مع الرسولﷺ، وكان ممّن أجزل عليهم عثمان العطاء، ويُقال أنّه أعطاه ما يقارب ستمائة ألف دينار[١].

وأمّا طلحة فهو ابن عبيد الله من قبيلة تيم، ويعود بالنّسب إلىٰ نفس نسب أبي بكر. وكان تاجراً قبل الإسلام، ويُعتبر من أصحاب عثمان القدماء. شارك طلحة مع الرسولﷺ في غزوة أحد، وهو الذي رفع الرسول عن الأرض حتىٰ يرىٰ النّاس بأنه مازال حيّاً. وقد وُجّه في تلك المعركة سهم إلىٰ الرسولﷺ فتلقّاه طلحة بيده فقُطع إصبعه، ومن ثمّ عُطبت يده. وكان طلحة من أعضاء الشورىٰ الذين اختارهم عمر قبل موته لتعيين الخليفة، إلا أنّه لم يكن آنذاك في المدينة، وعندما عاد كان قد تمّ تعيين الخليفة. فجلس طلحة في بيته، فذهب إليه عبدالرحمن بن عوف وخوّفه من المعارضة.

ويُقال أنّ عثمان ذهب إليه، وأرضاه، فبايعه. وكما فعل عثمان مع الزبير فعل مع طلحة فقد وهب له المال الكثير، وقد ذُكر أنه استقرض طلحة مرة خمسين ألفاً من عثمان، وبعد مدة أتىٰ إليه، وقال له:

«إنّ مالك حاضرٌ فابعث من يُحضره لك». فقال له عثمان:

«وهبتك هذا المال علىٰ شجاعتك».

---

١ – الطبقات الكبرىٰ، ج٣، القسم ١، ص ٧٥.

وقد وهبه مبالغ كثيرة مثل هذا المبلغ. ولكن بعد كل ذلك العطاء نجد أن مروان يقول: بأنّ طلحة هو من شارك في قتل عثمان، وفي معركة الجمل صوّب مروان بن الحكم بسهمه إلى طلحة فقتله، فقال لأبّان بن عثمان:

« اليوم قتلت واحداً من قَتَلة أبيك». ويقول عليؑ في خروج طلحة من المدينة وتَذَرُّعه بالطلب بدم عثمان:

« والله مااستعجل متجرداً للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يُطالب بدمه، لأنّه مظنّة. ولم يكن في القوم أحرص عليه منه»[١].

وتحدث ؑ حول أمر اتهامه بقتل عثمان، فقال:

« لو أمرتُ به لكنت قاتلاً، أونهيت عنه لكنت ناصراً، غير أنّ ناصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خيرٌ منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير مني»[٢].

وقد طلب بعضٌ ممّن بايع عليّاؑ منه أن يقيم حدّ القصاص على قَتَلَة عثمان، حيث أننا نجد الردود على هؤلاء في نهج البلاغة وفي كتب التأريخ.

جاء في تاريخ الطبري أنّه بعد أن بايع كل من طلحة والزبير عليّاؑ، جاءه جمع من الصحابة، وقالوا له:

« نبايعك على أن تقيم حدود الله، فهؤلاء النّاس هم ممّن شارك في قتل عثمان»[٣].

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٧٤.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٣٠.

٣- تاريخ الطبري، ج٦، ص ٣٠٨.

فأجابهم عليه السلام:

«يا اخوتاه، إنّي لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لي بقوة والقوم المُجلبون علىٰ حدّ شوكتهم، يملكوننا ولا نملكهم، وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانكم، والتفّت إليهم أعرابكم».

فمن هم الذين طلبوا من الإمام ذلك؟

ومتىٰ وأين كان ذلك؟

من المُسَلّم أنه عندما كان الإمام «عليه السلام» في المدينة، وممّا جاء في الطبري نستخلص بأن طلبهم كان في الأسابيع الأولىٰ لخلافة الإمام.

أمّا الذين طلبوا ذلك فهم من الصحابة، أي أنهم من المدينة، وليسوا من أولئك الذين أتوا من مصر والمدن الأخرىٰ.

وممّا لا شكّ فيه بأن البعض كان يريد الوصول إلىٰ مآربه وآماله في الوصول للسلطة، ولكن عندما عرف بأن علياً عليه السلام ليس من الذين يبيعون دينهم بدنياهم بدأ بخلق المشاكل وتذرع بمثل هذه المطالب من الإمام تمهيداً للخروج عليه.

وأيّاً كان فإنّ هذه الأعمال إن دلّت علىٰ شيٍ فإنّها تدلّ علىٰ أن بعض أولئك الذين اجتمعوا حول الإمام وصمّموا علىٰ مبايعته لم يفعلوا ذلك حبّاً بالإمام، ولا حبّاً بالمسلمين وإنّما كان خوفاً علىٰ منافعهم الشخصية، وكما سوف نرىٰ، فإنّ خوفهم كان في محله.

وكان طلحة والزبير ممّن بايع الإمام عليه السلام، ولكن ما لبثا أن تخليا عنه، واحتجّا عليه بأنه لا يشاورهما في أمره، ولا يشركهما في عمله، وبالطبع لم يكن هدفهم هو المشاورة التي هي حق كل مسلم وإنّما كان هدفهم هو الخلافة والحكم، ولم يكن الإمام يحقق لهما مثل هذا الحلم، ومن الطبيعي أن لا يسمح لهم الإمام بذلك، حيث أن حكومته كانت قائمة علىٰ أساس

القرآن والسنّة، ولم يكن هناك أحدٌ أعلم منه فيها. فعلي ربيب رسول الله، وعارف بكتاب الله وسنّة الرسول(ﷺ) والنّاسخ والمنسوخ و...وكما يقول(ع):

«كان لا يمرّ بي من ذلك شيءٌ إلا سألته عنه وحفظته»(١)

في النهاية ترك هؤلاء الذين كانت في عنقيهما بيعة علي(ع) المدينة، وتوجّها إلى مكّة. وقد سأل أحدهم الزبير:

«إن لك هواية بعلي، وقد بايعته، فلماذا قمت مخالفاً له؟». فقال الزبير:

«لقد بايعت مكرهاً، ولم أكن راضياً، إنما بايعت بيدي لا بقلبي».

ويرد علي(ع) عليه قائلاً:

«يزعم أنّه بايع بيده، ولم يُبايع بقلبه، فقد أمر بالبيعة، وادعى الوليجة، فليأت عليها بأمر يُعرف، وإلا فليدخل فيما خرج منه»(٢).

١- نهج البلاغة، الخطبة ٢١٠.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٨.

الفصل السادس عشر

لقد تعرفنا فيما سبق على كل من طلحة والزبير ومكانتهما بين المسلمين ونستقل الآن لنتعرف على شخصية أخرى كان لها أثر كبير في قيام هذين الرجلين، فلو لم تهب تلك الشخصية مطالبة بدم عثمان ولو أنها عملت بما أمرها القرآن بأن تقعد في بيتها[1] لما وقعت بعد الرسول ﷺ كل هذه المعارك ولما هدرت كل تلك الدماء من المسلمين، ونرفع الستار عن تلك الشخصية بتعريفها: فهي أم المؤمنين عائشة زوجة الرسول ﷺ بنت أبي بكر التي ولدت في السنة الثامنة قبل الهجرة بمكّة المكرمة، وقد عقد عليها الرسول ﷺ لنفسه وهي في السابعة من العمر بما يقارب أربعمائة درهم. وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، أي في شهر شوّال من السنة الأولى للهجرة تزوجها الرسول ﷺ، وكان عمرها عند وفاة الرسول ﷺ تسعة عشر عاماً، وقد جاء عن فضائلها وفضلها في الإسلام الكثير في كتب التاريخ. ومن الروايات التي وردت فيها ما جاء في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر أنه ذكر:

« لم يكن لها مثيل في عصرها، في الفقه والشعر والطب». فكيف حصلت على كل تلك العلوم في هذه الفترة الوجيزة وخصوصاً علم الطب؟ لا يعلم ذلك إلا الله...! ولا نريد التطرق لهذا البحث.

لقد عرفت عائشة من اليوم الأول من ذهابها لبيت الرسول ﷺ ما يكنه الرسول لابنته الزهراء ﷺ من حب، ومن الطبيعي أن تشعر بالغيرة من الزهراء إلا أنّه لم تطل المدة بعد زواجها من الرسول حتى تزوجت الزهراء من علي ﷺ ولم تكن علاقتها مع الزهراء

١- الأحزاب/٣٣: ٣٣.

وأولادها أفضل مما كانت عليه مع علي ﷺ وقد زادكرهها لعلي ﷺ عندما اتهمها المنافقون بالسوء فتشاور الرسول ﷺ مع بعض أصحابه ومن جملتهم علي ﷺ الذي قال له: «يا رسول الله! إن النساء لكثير. وإنك قادر على أن تستخلف. وسل الجارية فإنها تصدقك»[١] حيث أن هذه الجملة كانت كافية لتوليد شرارة الكره في قلب عائشة لعلي ﷺ.

وقد ذكرت مرة اختلافها مع علي فقالت:

«إنّه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها»[٢].

بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار الباري عزّوجل بقيت عائشة في بيتها وحيدة، فلم يكن عندها أولاد بالاضافة إلى أنّه لم يكن يحق لأحد التقدم لها للزواج وذلك امتثالاً للنص القرآني[٣]، فكانت تعيش وحيدة دون ذرية.

أما بالنسبة لعلي ﷺ فكان عنده أولاد وكان أولاده يتمتعون باحترام الصحابة الفائق. وهذا ما كان يزيد من غيرة عائشة ونفورها من علي وأولاده. والعلم عند الله تعالى فيما إذا كان هناك أسباب أخرى أم لا؟ وقد ذكر الطبري أنها عندما سمعت بمقتل علي ﷺ قالت:

« فألقت عصاها واستقرّ بها النّوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر»[٤]

وقد نسب ابن منظور هذا البيت إلى معقر بن حمار في ذيل مادة "نوى"[٥]. وفي ذيل مادة "عصى" نسبه إلى عبدربه السلمي، وقيل أنه لسليم بن ثمامة الحنفي. قاله عندما أرسل زوجته من اليمامة إلى الكوفة.

ثم سألت عمّن قتله؟. فقيل لها: رجل من مراد. فقالت:

«فإن يك نسائياً فلقد نعاه غلامٌ ليس في فيه التراب».

فقالت لها زينب بنت أبي سلمة: «ألعلي تقولين هذا؟»

١- الطبري، ج٣، ص١٥٢٣.
٢- المصدر السابق، ج٦، ص٣٢٣١.
٣- الأحزاب /٣٣: ٥٣.
٤- الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢٧.
٥- لسان العرب، ذيل مادة "نوى".

فقالت: «إني أنسى فإذا نسيت فذكروني»[١].

طبعاً ما ذكرناه مأخوذ من تاريخ الطبري ولكن ما جاء عن عمر رضا كحالة في كتابه يختلف عن هذا فقد كتب حول هذا الموضوع:

«عندما انتشر خبر مقتل علي ﷺ، قرر صحابة الرسول ﷺ الذهاب إلىٰ عائشة للنظر في حزن عائشة علىٰ ابن عمّ زوجها، وعندما وصلوا إلىٰ بيتها علموا أن الخبر قد وصلها. وأنها لم تتوقف عن البكاء والنحيب منذ أن سمعت ذلك»[٢].

هنا نجد الاختلاف في الروايات فأي الروايتين نصدق؟. طبعاً لا نريد التجرؤ علىٰ من كانت زوجة لرسول الله ﷺ ولكن ما ذكره عمر رضا لم يكن قريباً من الحقيقة فالاختلاف الذي كان قائماً بين علي وعائشة قد نقل في معظم كتب التاريخ.

وما يشير إليه التاريخ يؤكد بأن عائشة ماكانت علىٰ خلاف مع علي وحسب وإنما كانت علىٰ خلاف مع عثمان أيضاً فعندما قام الناس بمحاصرة عثمان بعث إليها لتكلم الناس بأن يكفوا عن ذلك إلا أنها لم تستجب له وفرّت إلىٰ مكّة. وقد ذكر الطبري في تاريخه أنه عندما كان عثمان محاصراً ذهبت عائشة إلىٰ مكّة[٣]، فقدم عليها في مكّة رجل يدعىٰ أخضر فسألته ماذا صنع الناس؟، فقال: قتل عثمان المصريين، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أيقتل قوماً جاؤوا يطلبون الحق وينكرون الظلم، والله لا نرضىٰ بهذا. ثم قدم آخر، فقالت: ما صنع الناس؟، قال: قَتَل المصريون عثمان، فقالت:

«العجب لأخضر زعم أن المقتول هوالقاتل» فكان يضرب به المثل «أكذب من أخضر»[٤].

بقيت عائشة مدة قصيرة في مكّة ثم قررت العودة إلىٰ المدينة، وفي طريق عودتها لقيت رجلاً من أقربائها فسألته عما حلّ في المدينة؟ فقال لها: لقد قتل عثمان وبويع علي» فقالت:

١- الطبري، ج٦، ص٣٤٦٦.
٢- أعلام النساء، ج٣، ص١٠٣.
٣- الطبري، ج٦، ص٣٠٩٨.
٤- المصدر السابق.

«ردوني إلىٰ مكّة» وعند وصولها سألها عبدالله بن عامر عن سبب عودتها، فقالت:

« لقد قتل عثمان مظلوماً وإن الأمر لا يستقيم فاطلبوا بدم عثمان» فكان أول من أجابها عبدالله بن عامر الحضرمي[١].

وفي رواية أخرىٰ نُقل أنه عندما سارت عائشة إلىٰ المدينة لقيت في طريقها عبد بن أم كلاب، فسألته عن أخبار الناس في المدينة، فقال: قتلوا عثمان فمكثوا ثمانية، قالت: ثم ماذا صنعوا؟، قال: أخذها أهل المدينة بالاجماع فجازت بهم الأمور خير مجاز واجتمعوا علىٰ علي بن أبي طالب، فقالت:

« والله ليت السماء انطبقت علىٰ الأرض، إن هذا الأمر لا يتم لصاحبك، ردّوني إلىٰ مكّة» فانصرفت إلىٰ مكّة، وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه». فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر[٢]! فقالت: انهم استتابوه ثم قتلوه.

وكان أول من أجابها بعد وصولها إلىٰ مكّة بنو أمية في الحجاز ورفعوا رؤوسهم وقام معهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية وقد قدم عليهم عبدالله بن عامر من البصرة ويَعلىٰ بن أمية من اليمن وطلحة والزبير من المدينة واجتمعوا فجاءت عائشة وقالت:

«أيها الناس! إن هذا حدث عظيم، وأمر منكر، فانهضوا فيه إلىٰ إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عزّوجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم».

وقد ذكر الطبري في تاريخه أنه عندما وصلت عائشة إلىٰ مكة ذهبت إلىٰ أحد المساجد، فاجتمع الناس هناك وخطبت بهم قائلة:

١- المصدر السابق.

٢- كان نعثل رجلاً مصرياً له لحية طويلة وكانت عائشة تشبه عثمان به!

«إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل، فاستحلوا الدم الحرام وهتكوا حرمة المدينة، وانتهبوا المال الحرام، والله لإصبع من عثمان خيرٌ من الأرض وما حملت من أشباه هؤلاء»[1].

كما ذكر الطبري كثيراً من الروايات التي تشابه هذه الرواية.

وجاء في معظم كتب التاريخ كما جاء في الطبري.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أنّه: لماذا قامت أم المؤمنين ضد علي؟

ولماذا تركت عثمان عندما كان محاصراً مع العلم بأنها كانت تستطيع أن تتكلم مع الناس وتقنعهم؟

ولماذا طلبت العودة إلى مكه بعد أن سمعت بأن علياً أصبح الخليفة؟

ولماذا أشارت في خطبتها إلى «أهل الشام»؟

أكان ذلك حباً بهم أم إثارة لمعاوية وحثّاً له على القيام ضد علي؟

طبعاً الإجابة عن هذه الأسئلة أمر سهل المؤونة، ويمكن الحصول عليها من كتب التاريخ، ولكن يجب أن نضع التعصب جانباً ثم نبحث في مثل هذه الأمور.

١- الطبري، ج٦، ص٣٠٩٧؛ جمهرة خطب العرب، ج١، ص١٢٦.

الفصل السابع عشر

وضع يعلىٰ بن أمية (أو منية، وكان يُنادىٰ حيناً باسم أبيه وحيناً آخر بأمه) ما يقارب ستمائة جمل، وستمائة ألف (دينار أو درهم؟) تحت تصرف عائشة، وأتباعها، ومن ثم اجتمعوا للتشاور إلىٰ أين يذهبون؟ فاقترح عبد الله بن عامر الذهاب إلىٰ البصرة باعتبار أنّه نشأ هناك، ويعرف أهلها، بالإضافة إلىٰ أن لطلحة مقاماً محموداً بين أهل البصرة، وعملاً بهذا الإقتراح توجهوا نحو البصرة، بعد أن نادىٰ مناديهم:

«ذهبت أم المؤمنين مع طلحة والزبير إلىٰ البصرة، فكل من يريد العزّة للإسلام، ويطلب بدم عثمان، فليأت معنا، ومن كان مُحتاجاً للمال فإنا نعطيه».

وكأن كلام علي(عليه السلام) التالي ناظر إلىٰ هذا الجمع:

«فلمّا نهضْتُ بالأمر نَكَثَت طائفة، ومَرَقت أخرىٰ، وَقَسَطَ آخرون، كأنهم لم يَسمعوا الله سبحانه يقول ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلواً في الأرض، ولا فساداً، والعاقبة للمتقين﴾[1]»[2].

فتحركوا، وتحرك معهم ما يقارب سبعمائة رجل من أهل مكة، كما التحق بهم في أثناء سيرهم جمع، فصار عددهم ما يقارب ثلاثة آلاف رجل.

وعند وصولهم إلىٰ منطقة بين "نجد" و"تهامة" هي محل إحرام العراقيين وتُدعىٰ بـ«ذات عرق» التقىٰ سعيد بن العاص مروان بن الحكم، وأصحابه، فقال:

«أين تذهبون وتأركم علىٰ أعجاز الإبل، اقتلوهم ثم ارجعوا إلىٰ منازلكم. لا

١- القصص/٢٨: ٨٣.
٢- نهج البلاغة، الخطبة ٣.

تقتلوا أنفسكم».

قالوا:

- « بل نسير، فلعلنا نقتل قَتَلة عثمان جميعاً». ومن ثمّ خلا بطلحة والزبير، فقال لهما:

- «إن ظفرنا لمن تجعلان الأمر؟ اصدقاني. قالا:

- « لأحدنا أيّنا اختاره الناس»، قال:

- « بل اجعلوه لوُلد عثمان، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه». قالا:

- « ندع شيوخ المهاجرين، ونجعلها لأبنائهم»، قال:

- «ألا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف»، ومن ثم خرج ورجع، ورجع بعده عبد الله بن خالد بن أسيد.

فقال المغيرة بن شعبة:

«الرأي ما رأى سعيد. من كان ها هُنا من ثَقيف فَلْيَرجع». فرجَع الثقيفيون، ومضى بقية القوم[1].

وفي طريقهم إلى البصرة اشتروا جملاً من أحدهم، فبقيت قصة هذا الجمل على مرّ التاريخ الإسلامي مشهورة، وقد سميت تلك المعركة المشؤومة باسمه: «معركة الجمل»، وقد كان اسم صاحب الجمل « العُرني»، وروي عنه قوله:

«بينا أنا أسير على جمل، إذ عرَض لي راكب، فقال:

- يا صاحب الجمل! أتبيع جملك؟ قلت: نعم، قال: بِكَم؟ قلت: بألف درهم، قال: أمجنون أنت، جمل يُباع بألف درهم؟ قلت:

نعم! جملي هذا، فما طلبت عليه أحد قط إلا أدركته، ولا طلبني وأنا عليه أحد قط إلا فتّه. قال: «لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا»

١- الطبري، ج٦، صص ٣١٠٣ - ٣١٠٤.؛ الكامل، ج٣، ص ٢٠٩.

قلتُ: ولمن تريده؟. قال: «إنما أريده لأم المؤمنين عائشة»

قلت: «فهو لك، فخذه بغير ثمن»

قال: لا. ولكن ارجع معنا إلىٰ الرجل، فلنعطك ناقة، ونزيدك دراهم؛ فرجعت فأعطوني ناقة، وزادوني أربعمائة أو ستمائة درهم، فقال لي:

يا أخا عرينة هل لك دلالة بالطريق، قلت:

نعم أنا من أدرك الناس، قال: فسر معنا، فسرت معهم، فلا أمر علىٰ واد، ولا علىٰ ماء، إلا سألوني عنه، حتىٰ طرقنا ماء الحوأب، فنبحتنا كلابها، قالوا: أي ماء هذا؟، قلت: الحوأب؛ فصرخت عائشة بأعلىٰ صوتها، ثم ضربت عضد بعيرها، فأناخته، ثم قالت:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، أنا والله صاحبة كلاب الحوأب، ردوني»[1] قالت ذلك ثلاثاً، وأناخت، وأناخوا حولها، وهم علىٰ ذلك، وهي تأبىٰ، حتىٰ كانت الساعة التي أناخوا فيها من الغد، قال:

فجاءها ابن الزبير، فقال: النجاء، النجاء، فقد أدرككم والله علي بن أبي طالب، قال: فارتحلوا، وشتموني، فانصرفتُ فما سرت إلا قليلاً، وإذا أنا بعلي عليه السلام، وقد ركب معه عدد يقارب ثلاثمائة رجل[2].

وقد ذُكر أن علياً عليه السلام قال حول من خرجوا:

«فخرجوا يجرون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله كما تُجَر الأمَة عند شرائها، متوجهين بها إلىٰ البصرة، فحَبَسَا نساءهما في بيوتهما، وأبرزا حبيس رسول الله صلى الله عليه وآله لهما ولغيرهما، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة، طائعاً وغير مكره»[3].

١- المعيار والموازنة، ص ٥٥.

٢- الطبري، ج٦، صص ٣١٠٨ - ٣١٠٩؛ الكامل، ج٣، ص ٢١٠.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ١٧٢.

عندما وصل هؤلاء إلى البصرة اعترض شابٌ على طلحة والزبير لأنهما خدّرا نساءهما وأخرجا عائشة معهما، ولم يلتحق بهما. كما اعترض البعض على عائشة لأنها خرجت مع هؤلاء إلا أن أصحاب عائشة قضوا عليهم.

وفي إحدى المرّات اشتبك هؤلاء الجمع، ممّن كان مع عائشة وطلحة والزبير مع أصحاب عثمان بن حنيف ومما أدى إلى إراقة الدماء بين الطرفين وفي النهاية تهادن الطرفان على أن يبعثوا رجلاً بكتاب إلى المدينة، فيرى، فإن كان طلحة والزبير قد أُكرها على البيعة خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة، وإن لم يكن ذلك، يخرج طلحة والزبير من البصرة، فخرج كعب بن سور رسولا من جانبهم، فقدم المدينة، فاجتمع الناس لقدومه، فسألهم عن الأمر، فلم يُجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد، فإنه قال:

«لم يبايعا إلا وهما كارهان»، فحمل عليه القوم، ومضى كعب إلى البصرة، فأخبرهم بما حصل في المدينة. فغار المنشقون ليلاً على بيت عثمان بن حنيف، فأخذوه، فضربوه، ونتفوا شعر لحيته، فاستعظما ذلك وأرسلا إلى عائشة بالذي كان، واستطلعا رأيها، فأرسلت إليهما أن اقتلوه، فقالت لها امرأة: نشدتك بالله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله ﷺ، فقالت عائشة:

«أحيوه ولا تقتلوه»، فقال لهم مجاشع بن مسعود: «اضربوه وانتفوا شعر لحيته، فضربوه أربعين سوطاً، ونتفوا شعر لحيته، ورأسه وحاجبيه، ومن ثم استولوا على بيت المال»[1].

يقول علي عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه:

«فقدِمُوا على عمّالي، وخزّان بيت المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مصر، كلهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتتوا كلمتهم، وأفسدوا عليّ جماعتهم، ووثبوا على شيعتي، فقتلوا طائفة منهم غدراً»[2].

١- الكامل، ج٣، ص٢١٣.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٢١٨.

وذكر أنه عندما حضر طلحة والزبير إلىٰ مسجد البصرة أتاهما رجل، وقال لهما:

« أسألكم بالله، هل أمركم رسول اللهﷺ بهذا السفر»، فقام طلحة دون أن يتكلم، فأعاد الرجل سؤاله علىٰ الزبير، فقال الزبير:

« إنا سمعنا أنّ عندكم مالاً، فأتينا لنشارككم فيه»[1].

فهل مثل هذه القصة حقيقة أم خيال ومن تلفيق أعداء طلحة والزبير؟. الله أعلم!...

ولكن ممّا لا شكّ فيه هو أن الفقه الاسلامي يَنهىٰ عن هذا العمل، فضلاً عن أنه لا يمكن أن يأمر بمثل عمل طلحة والزبير، ولم يُبق مجالاً للإجتهادات الشخصية، وقد كان في عنقيهما بيعة له، والمفترض هو أن يَبقيا في المدينة إلىٰ جانبه لنصرته ومؤازرته.

ولا يمكن اعتبار كل تلك الأعمال التي قاموا بها اجتهادات شخصية.

ولا يمكن القول أيضاً أنهما مجتهدان أخطأا، لأنه لو قبلنا مثل هذه الأشياء فلن يبق مجال لإجراء وتطبيق أحكام الفقه، فمن يبايع الخليفة من واجبه الطاعة له، أو على الأقل إعلامه بأخطائه كي يتركها.

١- الطبري، ج٦، ص٢١٣٦.

الفصل الثامن عشر

وهكذا نجد أنّ هؤلاء لم يقفوا عند حد معين في أعمالهم العدوانية، وراحت أعمالهم تهدد النظام والحكومة المركزية الحكومية، ومن الطبيعي أن يكون من واجب المسلمين الوقوف في وجه هؤلاء، كما يجب عليهم أن يواجهوا أعداء الاسلام في الخارج، فلا فرق بين المخرب الداخلي والعدو الخارجي، وإلا فسينعدم الأمن من المجتمع وستضعف قوة الحكومة، وقد جاء في آيات القرآن الكريم حول هذا الموضوع:

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله»(١).

وكما ذكرنا فإنّ طلحة والزبير كانا مع علي أثناء البيعة، وكان بإمكانهما الإعتراض إن كانا معارضين. وأمّا يعلى بن أمية وعبد الله بن خلف، فقد سمعا ما لقيته بيعة الإمام من استقبال وترحيب لدى المسلمين، وكان من الواجب عليهما الحضور إلى المدينة، وطرح مشاكلهم عند علي، والسعي لحلها دون إحداث فتن واضطرابات، ولكنّهما لم يفعلا ذلك!

وأما بالنسبة لأم المؤمنين عائشة، فكان يجب عليها الجلوس في بيتها، أو أن تذهب إلى علي. ولكنها لم تفعل أيضاً! وبهذا نجد أن علياً كان مضطراً للقيام ضد هؤلاء

١ - الحجرات / ٤٩: ٩.

والدفاع عن الدين قبل أن تهدم أركانه، وإلا فلن يكون له حجة أمام الله تعالىٰ! وقد أشار بعضهم علىٰ الإمام بأن لا يَخرج لقتال هؤلاء، فقال:

«والله لا أكون كالضبع: تنام علىٰ طول اللدم، حتىٰ يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكني أضرب بالمقبل إلىٰ الحق، المدبر عنه، وبالسامع المطيع، العاصي المريب أبداً»[(١)].

وقبل خروجه من المدينة جمع كبار أهلها، وقال:

«إنّ آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، فانصروا الله ينصركم، ويصلح لكم أمركم»[(٢)]

وليس من المُستبعد أن تكون هذه الخطبة في تلك الأيام، قال:

«ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم: إنّ من صرّحت له العِبر عمّا بين يديه من المثلات، حجزته التقوىٰ عن تقحم الشبهات. ألا وإنّ بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه، والذي بعثه بالحق لَتُبَلْبَلُنّ بلبلة، ولَتُغَرْبَلُنّ غَربلة، ولتُساطنّ سوط القدر، حتىٰ يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا وليقصرنّ سبّاقون كانوا سبقوا، والله ما كتمت وشمة، ولا كذبت كذبة، ولقد نُبِّئت بهذا المقام وهذا اليوم»[(٣)].

وقد أظهر البعض حماسه وتأييده للإمام، فها هو زياد بن حنظلة يقول:

١- نهج البلاغة، الخطبة القول ٦؛ وراجع أيضاً: الطبري، ج٦، ص٣١٠٨.

٢- الكامل، ج٣، ص٢١١.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

«إن لم يرد القوم مساندتك، فإني مع الركب الذي تسير معه».

كما تكلم اثنان من الأنصار بمثل كلام حنظلة له، فسار علي عليه السلام، وسار معه تسعمائة رجل على أمل الوصول لطلحة والزبير قبل وصولهما إلى البصرة.

وقد ترك الإمام وأصحابه المدينة في اليوم الأخير من شهر ربيع الثاني من السنة السادسة والثلاثين للهجرة[1]. وفي الطريق لَقِيَهم عبد الله بن سلام، فقال لعلي عليه السلام:

«يا أمير المؤمنين! لا تخرج منها، فو الله لئن خرجت منها لا ترجع إليها، ولا يعود إليها سلطان المسلمين». فشتمه الحاضرون، فقال لهم علي عليه السلام:

«دعوا الرجل، فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله»، وتابعوا مسيرهم نحو البصرة وفي طريقهم بعث علي عليه السلام كتاباً إلى أهل الكوفة، قال فيه:

> «أما بعد، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه، إن الناس طعنوا عليه، فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه، وأقل عتابه، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف، وأرفق حدائها العنيف، وكان من عائشة فيه فلتة غضب، فأتيح له قوم فقتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيرين. واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها، وجاشت جيش المرجل، وقامت الفتنة على القطب، فأسرعوا إلى أميركم، وبادروا جهاد عدوكم، إن شاء الله عزّوجل»[2].

وعند وصولهم إلى الرَبذة أتته جماعة من طيء، فقيل لعلي عليه السلام هذه جماعة من طيء قد أتتك، منهم من يريد الخروج معك، ومنهم من يريد التسليم عليك، فقال عليه السلام:

«جزى الله كلاً خيراً و"فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً"».

١- الكامل، ج٣، صص ٢٢١ - ٢٢٢.

٢- نهج البلاغة، الكتاب ١.

ثم دخلوا عليه، فقام رجل من بينهم يُدعىٰ سعيد بن عبيد الطائي، فقال:

« يا أمير المؤمنين! إن من الناس من يعبّر لسانه عمّا في قلبه، وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني، فإني سأنصح لك في السرّ والعلانية، وأقاتل عدوك في كل موطن، وإني أرىٰ لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك»،

فقال علي عليه السلام:

« رحمك الله! قد أدىٰ لسانك عما يجن ضميرك»[1]، وبعث علي عليه السلام من ذلك المكان كلاً من محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلىٰ الكوفة، وكتب إليهم:

إني اخترتكم علىٰ الأمصار، وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، أيدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد، لتعود الأمة إخواناً، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره».

فمضىٰ الرجلان وبقي علي عليه السلام بالرّبذة يتهيأ، وأرسل إلىٰ المدينة، فلحقه ما أراد من دابة وسلاح، فقام بالناس خطيباً، وقال:

«إنّ الله عزوجل أعزّنا بالإسلام، ورَفَعَنا به، وجعَلنا به إخواناً بعد ذلّة وقلّة وتباغض وتباعد، فجرىٰ الناس علىٰ ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم، والحق فيهم، والكتاب أمامهم، حتىٰ أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم

١- الطبري، ج٦، ص ٣١٤٠؛ الكامل، ج٣، ص ٢٢٥.

الذين نزغهم الشيطان، ليَنزغ بين هذه الأمة، إلا أن هذه الأمة لا بد مفترقة، كما افترقت الأمم قبلهم، فنعوذ بالله من شرّ ما هو كائن (ثمّ عاد ثانية، فقال:) «إنه لا بدّ مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، شرّها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي، فقد أدركتم ورأيتم، فالزموا دينكم، واهتدوا بهدىٰ نبيكم واتبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم علىٰ القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله عزّوجل[1] رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم نبياً، وبالقرآن حكماً وإماماً»[2].

وهكذا ترك علي عليه السلام ومن معه الرَبذة، وتابعوا مسيرهم إلىٰ أن وصلوا منطقة تدعىٰ "فيد"، فنزل بها، وأتته جماعة من أسد وطيء، فعرضوا علىٰ الإمام بأن يكونوا معه، فقال: «الزموا قراركم، في المهاجرين كفاية»، وقدم رجل من الكوفة، فسأله علي(عليه السلام) عن أبي موسىٰ(الأشعري)، فقال: إن أردت الصلح فأبو موسىٰ صاحب ذلك، وإن أردت القتال فإنه ليس بصاحب ذلك». فقال علي عليه السلام:

«والله ما أريد إلا الصلح حتىٰ يردّ علينا». ومن ثم تابع مسيره متجهاً إلىٰ ذي قار،

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله علي أمير المؤمنين إلىٰ عثمان بن حنيف: أمّا بعد، فإن النَكَثَة لما عاهدوا الله نكثوا، ثمّ توجهوا إلىٰ مصرك، وسائقهم الشيطان يريدون ما لا يرضىٰ الله به، والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً، فإن قدِمُوا مصرك فادعهم إلىٰ الحق والرجوع إلىٰ الوفاء بعهد الله والميثاق الذي بايعوا عليه، فإن فعلوا، فأحسن جوارهم، ومرهم بالإنصراف إلىٰ المكان

١- وفي نسخة: جل وعزّ.

٢- الطبري، ج٦، ص٣١٤١.

الذي أقبلوا منه، وإن أبوا، وتمسكوا بحبل النكث، فقاتلهم حتىٰ يحكم الله بينك وبينهم».[١]

وانتهىٰ إليه عثمان بن حنيف وقد نتف شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال:

يا أمير المؤمنين! بَعَثْتَني ذا لحية وجئتك أمرداً. فقال عليه السلام:

«أصبت أجراً، وخيراً، بايعني طلحة والزبير، ثمّ نكثا بيعتي، والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممّن قد مضىٰ، اللهمّ فاحلل ما عقدا، وأرهما المساءة فيما قد عملا»[٢].

أما ذي قار فهي منطقة بين الكوفة وواسط، وقد عرفت هذه المنطقة منذ القدم من جرّاء معركه جرت وقائعها بين قبيلة بني شيبان وجنود "خسرو پرويز"، والتي انتصر فيها العرب انتصاراً ساحقاً، فسمي ذلك اليوم بـ«يوم ذي قار».

خطب علي عليه السلام في الناس في «ذي قار» خطبة أوضح لهم فيها سرّ تصديه الخلافة: ونُقل عن ابن عباس أنه قال:

دخلت علىٰ علي عليه السلام بذي قار، وهو يَخصِف نَعلَه، فقال لي:

- ما قيمة هذا النعل؟

- فقلت: لا قيمة لها!

- فقال:

«والله لَهِيَ أحبّ إليّ من إمرتكم، إلا أن أُقيمَ حَقّاً، أو أَدفَعَ باطِلاً»[٣].

١- المعيار والموازنة، ص ٦٠.

٢- الطبري، ج٦، صص ٣١٤٣ - ٣١٤٤.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

الفصل التاسع عشر

لمّا قدم رسل عليؑ (محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر) إلىٰ الكوفة أتيا أبا موسىٰ الأشعري الذي كان والياً علىٰ الكوفة من قبل عثمان بكتاب أمير المؤمنين إلا أن أبا موسىٰ ثبط الناس عن مساعدة عليؑ، وقال لهم:

«أيها الناس! إن أصحاب النبيﷺ الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله عزوجل وبرسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً، فإنا مؤدوه إليكم، كان الرأي ألا تستخفوا بسلطان الله عزوجل، ولا تجترئوا علىٰ الله عزوجل، وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قَدِم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتىٰ يجتمعوا، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم؛ ولا تَكَلَّفوا الدخول في هذا، فأما إذ كان ما كان، فإنها فتنة صمّاء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الرّاكب».

فقام عمار، وقال:

أنت سمعت هذا من رسول الله؟ فقال أبو موسىٰ: هذه يدي بما قلت، فقال عمار: إنما قال لك رسول اللهﷺ خاصة، فقال أنت فيها قاعد خير منك قائم»[1].

وصل خبر عصيان أبي موسىٰ إلىٰ عليؑ، فدعا الأشتر، وقال له: يا أشتر! أنت صاحبنا في أبي موسىٰ، والمعترض في كل شيء، اذهب فأصلح ما أفسدت».

فانطلق إلىٰ أبي موسىٰ ورافقه الحسن بن عليؑ إلىٰ الكوفة. ومع وصولهما إلىٰ الكوفة،

١- المعيار والموازنة، ص ١١٤.

ودعوة الناس لنصرة علي(ﷺ) تخلىٰ الكوفيون عن أبي موسىٰ وتفرقوا عنه، وأخرجوه من قصر الإمارة، وذكر بأن الناس غاروا علىٰ أثاثه. وهكذا وضع أهل الكوفة أنفسهم تحت تصرف خليفة المسلمين ووعدوه النصرة.

يجدر بنا الآن أن نتعرف علىٰ الكوفة وأهلها وتاريخها. فقد ذكر التاريخ أن الكوفة قد تأسست بأمر من عمر بن الخطاب، وذلك في السنة السابعة عشرة للهجرة، وقد بناها في البداية سعد بن أبي وقاص لتكون مقراً لاستراحة الجنود الذين يتحركون من شبه الجزيرة العربية باتجاه بلاد ايران. وأكبر الجموع التي سكنتها هي من القحطانيين أي عرب الجنوب، كما كان المضريون أو عرب الشمال هم أكثر من سكن في البصرة. وقد توسعت وازدهرت الكوفة مثل البصرة، بل أكثر منها، وتجمع فيها أناس من كل جهة ومن كل صنعة وحرفة، وكل منهم كان له هاجسه الخاص.

يمكن القول أن الكوفة كانت في السنوات التي نتحدث عنها بمثابة سوق كبير تجمع فيه التجار وأصحاب الحرف والباعة لكي يعرضوا ما لديهم من بضائع ومنتجات بهدف البحث عن مستهلكين ومشترين لها، وذلك لتحصيل الربح.

في مثل هذا السوق المائج كل شخص يتناغم مع غيره ويتوافق معه للوصول إلىٰ حاجته وبغيته واتقاء الضرر والخسارة. فإذا ما استشعر رائحة الخسارة أو الضرر فإنه يسارع للهروب من الجمع.

إذا ما تجاوزنا الإختلافات القبلية التي كانت قائمة بين المهاجرين والأنصار، فإن العراق كان يتنافس مع الشام قبل الإسلام بمئات السنين. حيث كان اللخميون أو آل منذر الذين حكموا الحيرة متحالفين مع الملوك الإيرانيين، وكان الغسانيون الذين سكنوا في شمال شبه الجزيرة (الشام) متحالفين مع قياصرة الروم الشرقية. بعد الإسلام هدأت هذه المنافسة وخمدت، ولكن مع اتساع رقعة حكومة معاوية في بلاد الشام واستحكامها توقد جمرها من جديد مرة أخرىٰ، وظهر من تحت الرماد، ولم يكن العراقيون يقبلون علىٰ أنفسهم أن يكونوا أقل من الشاميين. وإذا تجاوزنا هذه المنافسة وتجاهلناها فإننا نصل إلىٰ قضية

الموالي.

الموالي هم أناس من غير العرب. ارتبط كل واحد منهم بقبيلة ما، وعاش في ظل حمايتها له. ولم يقعد الموالي في هذه المدينة دون عمل، وإذا لم يكن لهم قدرة وقدرة منظمة بقوة وعلناً إلا أنهم كانوا يقومون ببعض النشاطات والفعاليات كان أكثر الموالي هم من الناس الذين فقدوا عملهم وحرفهم على أثر سقوط وانهيار الإمبراطورية الساسانية في إيران، فتوجهوا إلى الكوفة أملاً بالوصول هناك إلى المال أو الجاه. أناس يمكن أن نعبر عنهم بلغة زماننا بأنهم مثقفون متنورون باحثون عن الجاه والمقام.

نشاهد في بعض الكتب أن أبحاثاً ومناظرات كانت تحصل في ذلك الزمان بين الناس، ولم يكن للحجازيين سابقة في مثل هذه المناظرات والأبحاث، وبعبارة أفضل تفكير الحجازيين (في ذلك الزمان) لم يرق لهذا النوع من البحث والكلام. الأبحاث العقلية التي عرفت بعد سنوات بعلم الكلام هي هدية جلبت لهذه الأوساط، وقد جلب تلك الهدايا إلى تلك البلاد المطلعون والعارفون بالكلام المسيحي والزردشتي والمانوي. وإذا أضفنا إلى هؤلاء الناس، السكان الأصليين للعراق، فإننا نصل إلى هذه النتيجة:

هذا التفرق والتشتت لم يكن يسمح أبداً لتجمع واتحاد وائتلاف شعب ما في العراق وما قاله ابن الكوا لمعاوية حول العراقيين صحيح في حقهم:

يدخلون في الأمر سوية، ثم يخرجون منه فوجاً فوجاً[1] ولأجل هذا كان العراقيون يطيعون الحاكم القوي الظالم، فإذا لم يكن على رؤوسهم مثل هذا الحاكم يشرعون بالتحزب والإنقسام والعصيان ثم لا يلبثون أن يثوروا عليه. ففي الكوفة في أثناء حكومة زياد وعبيدالله والحجاج بن يوسف الثقفي لم يتجرأ أحد منهم على التفوه بكلمة اعتراض على ما كانوا يواجهون من ظلم من هؤلاء الولاة، أي لا يجدون في أنفسهم القدرة على الشقاق والخلاف. ولكنّا نجدهم في مواقف عديدة عندما يكون الحاكم معتدلاً فإنهم يعصونه أو

يتآمرون عليه.

لقد ذكرنا سابقاً بأن مبعوثي الإمام عليه السلام أخرجا أبا موسىٰ من قصره في الكوفة، وذلك بعد أخذ ورد مطول تمخض عن انتصارهما عليه، وبعد إطفاء الفتنة التي أشعلها أبو موسىٰ اتجه جيش من الكوفة يقدر عدد جنوده باثني عشر ألف جندي، والتقىٰ بالإمام بـ«ذي قار». توجه الإمام في فرقة ممن كان معه وكان ابن عباس ضمنها، فرحب بهم وقال لهم:

«وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق، وباينّاهم حتىٰ يبدؤونا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه علىٰ ما فيه الفساد، إن شاء الله تعالىٰ».

ومن ثم نادىٰ الإمام علي عليه السلام القعقاع بن عمرو، وكان من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله ومن وجهاء الكوفة، وقال له:

«إلق هذين الرجلين "طلحة والزبير" فادعهما إلىٰ الألفة والجماعة، وعظّم عليهما الفرقة، وقال له:

«كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصية مني، فقال: نلقاهم بالذي أمرت به، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي، اجتهدنا الرأي، وكلمناهم علىٰ قدر ما نسمع ونرىٰ أنه ينبغي».

وخرج القعقاع حتىٰ قدم البصرة، فبدأ بعائشة، فسلم عليها، وقال:

« أي أماه! ماأشخصك وما أقدمك هذه البلاد؟ قالت: إصلاح بين الناس، فقال: إصلاح بين الناس! (فقال:) فابعثي إلىٰ طلحة والزبير حتىٰ تسمعي كلامي وكلامهما، فبعثت إليهما فجاءا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد، فقالت: إصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمبايعان أم مخالفان؟ قالا: مبايعان، قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن، ولئن أنكرناه لا نصلح، قالا: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن، فقال لهما:

قتلتم ستمائة رجل من أهل البصرة، فغضب لهم ستة آلاف، واعتزلوكم، وخرجوا من بين

أظهركم. فاتقوا أن تنشب الحرب بينكم وبينهم، فإنه أمر عظيم.

فقالت عائشة:

«فماذا تقول أنت؟. قال: أقول هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا. فإن أنتم بايعتمونا، فعلامة خير، وتباشير رحمة، ودرك بثار هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة، وإن أنتم أبيتم، فإن الأمر سينجر للقتال، وستنهال القبائل على بعضها البعض.

فقالوا: نعم، إذاً لقد أحسنت وأصبت المقالة، فارجع، فإن قدم عليٌ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر. فرجع إلى علي، فأخبره بالأمر، فأعجبه ذلك، واتجه نحو البصرة. وجاء في تاريخ الطبري وابن الاثير أنّه:

«فلما أمسوا، أرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه، فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافيه من الذي أشرفوا عليه، والنزوع عما اشتهى الذين اشتهوا، وركبوا ما ركبوا، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط. وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السرّ. فخرجوا سراً. وقاموا بأمر أشعل نار الحرب بين الطرفين»[١].

وهذا يدل على وجود من يريد أن تقوم الحرب! ولكن من هم هؤلاء الذين يريدون ذلك؟ جاء في كتب التاريخ أن تلك المجموعة التي أشعلت نار الحرب هي من جيش الإمام علي كما جاء أيضاً أنّ أناساً من أصحاب طلحة والزبير أرادوا أيضاً أن تنشب الحرب بين الطرفين. وقد ذكر ابن الأعثم أن عبدالله بن الزبير قام. وقال:

«أيها الناس، إن علياً قد قتل عثمان وهو مستحق للخلافة. وجمع جيشه، وأتى ليأخذ منكم قدرتكم وسيطرتكم على ما تحكمون. فكونوا رجالاً أشداء،

واخرجوا للطلب بدم عثمان»[١].

وقد تعددت الروايات في هذا الشأن فأيها الصحيح؟ ليس من المستبعد وجود أشخاص من الطرفين كانوا يريدون عدم انتهاء هذا الأمر بالصلح: من جهة، كان هناك المنشقون الطامحون بالخلافة أو الحكومة على الأقل، ويعرفون جيداً أن الأمر لو تمّ وانتهى بالصلح، فإن علياً ليس هو من يساوم أو يصانع بتفويض المناصب لهم. ومن جهة أخرى كان في جيش الكوفة من يخاف من انفضاح أمر قاتل عثمان.

وقد ورد عن الإمام خطبة لعله قالها في تلك الأيام، جاء فيها:

« اللهمّ! إني أستعديك على قريش، ومن أعانهم، فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تمنعه»[٢].

وطبقاً لما ذكره المؤرخون تهيؤوا وانتظروا قبل حصول الحرب مدة ثلاثة أيام، وكان بعض من عسكر علي(عليه السلام) يريدون بدء القتال، فخطب فيهم قائلاً:

أيها الناس املكوا عن هؤلاء القوم أيديكم، وألسنتكم، وإياكم أن تسبقونا، فإن المخصوم غداً من خصم اليوم.[٣]

ركبت عائشة جملها الذي كان يدعى "عسكر"، وتوجهت به نحو معسكر أهل الكوفة، وقد كان ذلك الجمل قدم شؤم على المسلمين، فقد قتل بقدومه آلاف الرجال وانتهكت به الحرمات، وقبل نشوب الحرب دعا أمير المؤمنين عليه السلام ابن عباس وطلب منه أن يذهب، ويتكلم مع القوم، وقال له:

«لا تَلْقَيَنّ طلحة، فإنّك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب،

١- ترجمة الفتوح، ص ٤٢٢.
٢- نهج البلاغة، الخطبة ٢١٧.
٣- الكامل، ج ٣، ص ٢٣٨.

ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير، فإنّه ألين عريكة، فقل له:

«يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا»[١].

وبعد أن استعد العسكران للقتال دعا علي عليه السلام الزبيرَ وذكّره بحادثة جسرت معها في حضور الرسول صلى الله عليه وآله، وذلك عندما كان الزبير واضعاً يده بيد علي عليه السلام، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله:

أتحبه؟ فقال الزبير:

ولم لا. فقال صلى الله عليه وآله:

لتقاتلنّه وأنت له ظالم. فقال الزبير:

«لو أنك ذكّرتني قبل هذا ما سرت هذا المسير أبداً، والله لا أقاتلك أبداً. ثم تخلّى عن الجيش، وذهب خارج البصرة، فقتل في مكان قريب منها، ودفن هناك. ويعرف مدفنه اليوم باسم «الزبير» من مناطق البصرة، قتله عمرو بن جرموز.

ثم أخذ علي عليه السلام مصحفاً، وقال لأصحابه:

«من يأخذ هذا المصحف ويدعوهم إلى ما فيه؟ وهو مقتول!» فقام إليه فتىً من أهل الكوفة، عليه قباء أبيض محشو، فقال:

أنا، فأعرض عنه علي عليه السلام ثلاثاً. وعندما لم يُجبه غير ذلك الفتىً دفع إليه المصحف، فذهب بالمصحف، فدعاهم إلى ما فيه كما قال له علي عليه السلام، فقتلوه، فقال علي عليه السلام:

«الآن حلّ قتالهم»[٢]

ثم دفع بالراية إلى ابنه محمد بن الحنفية، وقال له:

« تزول الجبال ولا تزل، عضّ على ناجذك، أعِرِ الله جمجتك، تِدْ في الأرض قدمَك، ارمِ ببصرك أقصى القوم، وغضّ بصرك، واعلم أن النصر من عندالله سبحانه»[٣].

بدأت المعركة، وراح كل يرتجز بما عنده، ويعبر عما يخفيه داخله. ومن يطلع على

١- نهج البلاغة، الخطبة ٣١.

٢- الطبري، ج٦، ص ٣١٨٩.

٣- نهج البلاغة، القول ١١.

جزئيات هذه المعركة، وخصوصاً ما كان يرتجز به عسكر عائشة. فإنه سيلاحظ فرقاً كبيراً بين هذه المعركة والمعارك الإسلامية التي جرت قبلها في بضع وثلاثين سنة، وسيكتشف إلى أي مدى كانت هذه المعركة قريبة من معارك الجاهلية. فها هو أحدهم يقول:

نحن على دين علي ﷺ، فيرد عليه رجل من بني ليث، قائلاً:

سائل بنا يوم لقينا الأزد إذ ... الخيل تعدوا أشقراً وورداً

لما قطعنا كبدهم والزندا ... سحقاً لهم في رأيهم وبعداً

وقال رجل آخر:

جردت سيفي في رجال الأزد ... أضرب في كهولهم والمرد

كل طويل الساعدين نهد.

وأراد أحدهم أن يبرز، ويتكلم عن شجاعته، وقوته لعائشة، فقال:

ألا ترين كم شجاع يكلم ... وتختلى منه يدٌ ومعصم

وغير ذلك من الأراجيز التي كان يُرتجز بها في الجاهلية، ولم يمض على حجة الوداع سوى ربع قرن، والتي جعل فيها النبي(ﷺ)، أحقاد الجاهلية وأضغانها تحت قدمه حتى نرى انبعاث الشعارات القبلية من جديد.

لماذا حصل مثل هذا التغيير الفظيع في المجتمع الإسلامي؟

تعرضت لقليل منه في كتابي «ثورة الحسين... نظرة جديدة»، كما بحث في ذلك الآخرون، وخلاصته أن المجتمع الإسلامي في سنة خمس وثلاثين يختلف كثيراً عنه في السنة العاشرة للهجرة عندما ارتحل النبي(ﷺ) إلى الرفيق الأعلى.

في جميع المجالات الاقتصادية والثقافية والعلمية وحتى الدينية! ويمكن البحث عن أهم سبب في هذا التغير في اختلاط أهالي شبه الجزيرة العربية مع أهالي الدول المجاورة التي توجهوا نحوها.

الهودج الذي كانت فيه دون أن يتعرض لها أحد بسوء. وبسقوط الجمل الذي كانت عليه، والذي كان كالراية التي يقاتل تحتها الجنود، انتهت المعركة وانهزم المنشقون الناكثون. وعلى الرغم من انتصار علي﵇ إلا أن هذه المعركة تركت أثراً كبيراً في تاريخ الإسلام، فقبل فتح مكة كان العرب المسلمون يقاتلون العرب المشركين لأجل الدعوة الإسلامية. وبعد أن فتحت مكة وانتشر الإسلام في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتآخى الجميع وتعاهدوا على أن يتعاونوا فيما بينهم، وأن يقفوا يداً واحدة ضد المشركين والمعتدين إلا أننا نجد أن أحداث هذه المعركة كانت من نوع جديد، فقد وقف المسلم مقابل أخيه المسلم، وقتل المسلم المسلم.

تقدم المسلمون من أصحاب علي لجمع الغنائم، كما كانوا يفعلون في غيرها من المعارك التي اشتركوا فيها، أو سمعوا عنها، فنعهم علي﵇ من ذلك، وأوصاهم بعدم التعرض لأموال القتلى. فقال بعضهم:

«أيحل لنا دمهم ولا يحل مالهم».

وقد نسي أو تناسى من قال هذا الكلام بأن هؤلاء القتلى مسلمون، وليسوا بكفار مشركين، ولا يحل التعرض لحرمة المسلم إلا بحق، والحق كان قتالهم ليعودوا إلى رشدهم، لا التعرض لأموالهم ولحرمتهم. وقد ذكر المؤرخون أن أصل وأساس تفكير الخوارج ونشوئهم كان في هذه المعركة، وقد بايع أهل البصرة علياً عليه السلام بعد تلك المعركة. وأتى مروان بن الحكم أسيراً إلى علي﵇ فاستشفع بالحسن والحسين فعفى عنه، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين، فقال:

«أولم يبايعني بعد مقتل عثمان!؟ لا حاجة لي في بيعته، إنّها كف يهودية، لو بايعني بكفه لغدر بسبّته»[1].

وقد ذكر أن عدد القتلى كان ما بين ستة آلاف إلى خمسة عشر ألف رجل، كما ذكر بأنّه

١- نهج البلاغة، الخطبة ٧٣.

قُتل فقط من شيوخ قبيلة بني عدي سبعين رجلاً كلهم ممن قرأ القرآن. فضلاً عمن لم يقرؤوا القرآن[١].

ونقل أنه عندما مرّ عليﷺ بالقرب من جثة طلحة، قال:

«لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً، أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلىٰ تحت بطون الكواكب، أدركت وتري من بني عبد مناف، وأفلتني أعيان بني جُمح، لقد أتلعوا أعناقهم إلىٰ أمر لم يكونوا أهله فوقصوا دونه»[٢].

ولما فرغوا من يوم الجمل اشترىٰ مالك الأشتر جملاً بسبعمائة درهم، وبعثه إلىٰ عائشة مع رجل، وقال له:

قل لها بعث به إليك عوضاً عن بعيرك الذي قتل، فذهب الرجل وأبلغها بما قاله الأشتر، فقالت: لا سلّم الله عليه إذ قتل يعسوب العرب، وصنع بابن أختي ما صنع، فوصل الخبر إلىٰ الأشتر، فقام وقال:

«أرادوا قتلي فماذا أصنع!؟»[٣].

كما انطلق عليﷺ لرؤية عائشة في منزل عبدالله بن خلف، فلما انتهىٰ إلىٰ هناك وجد النساء يبكين علىٰ ابني عبدالله بن خلف، فلما رأته زوجة عبدالله، قالت:

«يا علي! يا قاتل الأحبة، ويا مفرق الجمع! أيتم الله بنيك منك، كما أيتمت ولد عبدالله منه» فلم يرد عليها شيئاً، ولم يزل علىٰ حاله حتىٰ دخل علىٰ عائشة، ولما خرج أقبلت عليه تلك المرأة، وأعادت عليه ما قالته، فكف بغلته، وقال:

١- الطبري، ج٦، ص٣٢٢٤.
٢- نهج البلاغة، الخطبة ٢١٩.
٣- الطبري، ج٦، صص٣٢٢٧ - ٣٢٢٨.

«أمّا لهمست (وأشار إلى الأبواب من الدار) أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه»؛ وكان أناس من الجرحى قد لجؤوا إلى عائشة[١] فأخبر علي بمكانهم. فأراد أن يفهمها بأن عبدالله وأولاده ومن معهم هم من بدأ الحرب، وكان من الواجب عدم السكوت لهم، وأما من كان بعيداً عن ساحة المعركة فقد ترك وشأنه.

وذكر أنّ علياً عليه السلام لمّا خرج من عند عائشة، قال له رجل من الأزد:

«والله لا تفلتنا هذه المرأة، فغضب علي، وقال له:

«صه، لا تهتكنّ ستراً، ولا تدخلن داراً، ولا تهيجن امرأة بأذىً وإن شتمن أعراضكم، وسفّهن أمراءكم، فإنهن ضعفاء، ولقد كنّا نؤمر بالكف عنهن»[٢].

ولما كان اليوم الذي سترحل فيه عائشة جهزها علي عليه السلام بكل ما ينبغي، من مركب ومتاع واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات[٣]. وجاءها جمع من الناس لوداعها، فقالت:

«يابني! لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها».

وقد ذكر في بعض كتب التاريخ أن النساء اللواتي سرن مع عائشة كنّ قد لبسن لباس الرجال، وبعد أن ابتعدوا عن البصرة، قالت عائشة:

«لقد بعث معي رجالاً، فالتفتت إليها إحداهن وقالت لها بعد أن كشفت خمارها:

«نحن نساء بلباس رجال، وقد طلب منّا علي ذلك لكي لا ينظر إلينا الرجال بنظرة سوء»[٤].

١- الطبري، ج٦، ص٣٢٢٥.
٢- الطبري، ج٦، ص٣٢٢٤.
٣- الطبري، ج٦، ص٣٢٣١؛ العقد الفريد، ج٣، ص٣٦؛ الكامل، ج٣، ص٢٥٨.
٤- نزهة الفتوح، ص٤٤٠.

وقال ﷺ بعد خروجها:

« وأمّا فلانة فأدركها رأي النساء، وضِغنٌ غَلا في صدرها كمرجل القين، ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إليَّ لم تفعل، ولها بعدُ حرمتها الأولىٰ والحساب علىٰ الله»[١].

وذكر الطبري بأن عائشة «خرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ هجرية حيث شيعها علي أميالاً، وبعث بنيه معها لمسيرة يوم»[٢].

ولما فرغ ﷺ نظر في بيت المال، فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها علىٰ من شهد معه، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة، وقد اعترض البعض علىٰ تقسيم المال بالتساوي بين الناس، فقال الإمام لهم:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله لا أطور[٣] به ما سمر سمير[٤]، وما أمَّ نجم في السماء نجماً! لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله! ألا إنّ إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه عند الناس، ويهينه عندالله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم»[٥].

١- نهج البلاغة، القول ١٥٦.
٢- الطبري، ج٦، ص٣٢٣١.
٣- لا أمرّ به ولا أقاربه.
٤- أي مدىٰ الدهر.
٥- نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

وبعد انتهاء المعركة قام إليه رجل يدعى «أبو برده» لم يشارك في حرب الجمل، وقال له:

« يا أمير المؤمنين! أرأيت القتلىٰ حول عائشة وطلحة والزبير؟ وبم قتلوا؟ قال: بمن قتلوا من شيعتي، وعمالي، وقتلهم أخا ربيعة العبدي رحمة الله عليه في عصابة من المسلمين. قالوا: لا ننكث كما نكثتم، ولا نغدر كما غدرتم، فقتلوهم، فسألتهم أن يدفعوا إلي قتلة إخواني منهم أقتلهم بهم، ثم كتاب الله بيني وبينهم حكم، فأبوا، وقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي، ودماء قريب من ألف إنسان من المسلمين من شيعتي، فقاتلتهم بهم. أوَ في شكّ أنت من ذلك؟

- فقال: قد كنت في شك، فأما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم، وأنك المهتدي المصيب.»[1]

وفي طريق عودته من البصرة كتب كتاباً ووجهه لأهل البصرة جاء فيه:

« وقد كان من انتشار حبلكم وشقاقكم ما لم تغبوا عنه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السيف عن مدبركم، وقبلت من مقبلكم. فإن خطت بكم الأمور المردية، وسفه الآراء الجائرة إلىٰ منابذتي وخلافي فها أنا ذا قد قرّبت جيادي، ورحلت ركابي، ولئن ألجأتموني إلىٰ المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل إليها إلا كلعقة لاعق، مع أني عارف لذي الطاعة منكم فضله، ولذي النصيحة حقه، غير متجاوز متهماً إلى بريء، ولا ناكثاً إلىٰ وفي»[2].

١ - المعيار والموازنة، ص١٠٢.

٢ - نهج البلاغة، من كتاب/٢٩ له الى أهل البصرة.

الفصل العشرون

لم تكن الأوضاع في الشام أقل فوضىٰ وخلاف مع أمير المؤمنين من البصرة، وكان ذلك واضحاً منذ الأيام الأولىٰ التي تولىٰ فيها عليؑ الخلافة، فمنذ ذلك الوقت بعث لمعاوية بن أبي سفيان حاكم الشام كتاباً يطلب منه البيعة جاء فيه:

«فقد علمت إعذاري فيكم، وإعراضي عنكم، حتىٰ كان ما لا بدّ منه ولا دافع له، والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إلي في وفد من أصحابك»[1].

وكما كان متوقعاً فإن معاوية قابل ذلك الكتاب بالرد ولم يبايع علياًؑ!.

فمن هو معاوية؟ وما هو حسبه ونسبه؟. حتىٰ يرىٰ في نفسه أنه غير مجبور علىٰ مبايعة عليؑ!.

هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويلتقي نسبه بنسب بني هاشم عند عبد مناف. وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. وأما عن حياته قبل الإسلام فلا نجد في كتب التاريخ إلا القليل عنه، إلا أنّه قد ذكر أنّه أسلم بعد فتح مكّة، وجاء بأنه من كتّاب الرسولﷺ. ومما يُستخلص من كتب التاريخ أن معاوية وأباه لم يسلما حتىٰ علما بأنّه لا مفرّ لهما من ذلك وإلا فإن الموت هو مصيرهما.

وقد أولىٰ عمر لأبي سفيان وأولاده أهمية كبيرة! ففي عهد خلافته كان يزيد بن أبي سفيان والياً علىٰ الشام، وكان معاوية والياً علىٰ «القيسارية»، وبعد موت يزيد تولىٰ

١- نهج البلاغة، الكتاب ٧٥.

معاوية حكم الشام. وقد ذكر بأن أمّه قالت له يوماً:

«إن هذا الرجل (عمر)، أعطاك عملاً فعليك أن تفعل ما يريد وليس ما تريد». كما أن أبا سفيان قال له:

«إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا [بالإسلام]، وتأخرنا، فرفعهم سبقهم، وقصّر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلّدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفنّ رأيهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو بلغته لتنفست فيه»[١].

وهذا الحديث يدل على مدى أهمية الإسلام وفائدته لدى كل من معاوية وأبي سفيان.

وقد كان معاوية يقلد حكام امبراطورية الروم الشرقية في حكمه. فقد امتلأ قصره بالخدم والحشم وعاش حياة البذخ والترف.

وجاء أنّ عمر وعبد الرحمن بن عوف ذهبا يوماً إلى الشام على حمار، فالتقيا بمعاوية الذي كان يسير بموكب ضخم من الحرس والخدم، فلم يعرف عمر حتى أخبر بعد أن جاوزه، وعندما أُخبر بأن الذي يركب الحمار هو عمر، نزل عن موكبه وأتى إلى عمر، وسار إلى جانبه وهو معرض عنه، فقال عبدالرحمن لعمر:

لقد أتعبت معاوية، فالتفت عمر نحو معاوية، وقال له:

يا معاوية! أنت صاحب الموكب آنفاً؟ مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك. فقال معاوية: نعم يا أمير المؤمنين! فقال عمر: ولم ذلك؟ فأجاب معاوية: لأنا في بلاد لا نمتنع من جواسيس العدو، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان، ويجب أن نفعل ذلك لتخيفهم. فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت، فقال عمر: لئن كان قولك الذي قلت حقاً فإنه رأي أريب، ولئن كان باطلاً فإنها خدعة أديب»[٢]. وعندما وصل عثمان للخلافة اقترب معاوية من مقاصده أكثر من السابق، فلما حوصر عثمان كان باستطاعته مساعدته إلا أنه لم يفعل شيئاً، ورغب أن يحضره إلى دمشق لكي يسير أمور

١- العقد الفريد، ج ٥، ص ١٠٧.

٢- العقد الفريد، ج ٥، ص ١٠٨.

الخلافة كما يحلو له، كما أنّه سعى في أوساط أهل الشام بعد مقتل عثمان لإشاعة أن علياً هو من قتل عثمان، وكما ذكرنا فإنّ علياً في بداية خلافته بعث لمعاوية كتاباً يطالبه فيه بالبيعة، إلا أن معاوية لم يوافق على ذلك، وطلب من علي عليه السلام أن يسلمه قَتَلَة عثمان وبعد أن يقتص منهم فإنه سيبايع. وقد أراد علي(عليه السلام) أن يقضي على تمرد معاوية إلا أن حرب البصرة حالت دون ذلك.

رأى علي(عليه السلام) أن يرسل إلى معاوية شخصاً يأخذ منه البيعة، فإذا رفض عندها يتوجه نحوه ولذلك بعث علي عليه السلام إلى جرير بن عبدالله الذي كان والياً على همدان وإلى الأشعث بن قيس والي آذربايجان بأن يأخذا له البيعة من الناس ويأتيا إليه، وبعد أن جاءا إليه قرر أن يرسل رجلاً إلى معاوية يطالبه بالبيعة لعلي عليه السلام فقال جرير:

«ابعثني أنا فبيني وبينه صداقة»، فقال الأشتر:

«لا تبعثه فإنّه يميل إلى معاوية». ولكنّ الإمام بعثه محملاً بكتاب لمعاوية نصه:

«إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسّموه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى، ولعمري يا معاوية! لئن نَظَرتَ بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، وَلَتَعلَمَنَّ أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنى، فتجنّ ما بدا لك! والسلام»[1].

فانطلق جرير حتى أتى الشام، وهناك أبقاه معاوية بعلل مختلفة في حين كان في الخفاء يهيئ الناس ويعدهم للحرب.

كان الذين جاؤوا إلى دمشق بعد مقتل عثمان قد أحضروا معهم قميص عثمان المخضب

١- نهج البلاغة، من الكتاب ٦، وراجع أيضاً: ترجمة الفتوح، صص ٤٦١ - ٤٦٢.

بدمه وأصابع زوجته نائلة المقطوعة، وعندما وصلوا إلىٰ معاوية طلب منهم أن يضعوا القميص والأصابع علىٰ منبر دمشق. فكان أهل الشام يأتون إلىٰ هناك ويبكون علىٰ عثمان وزوجته، وأقسم زعماء الشام بأنهم لن يقاربوا نسائهم ولن يغتسلوا إلا باحتلام، إلىٰ أن يأخذوا بالثأر لعثمان[١].

وقبل معركة صفين جاء عمرو بن العاص إلىٰ معاوية ليقف بجانبه ويسانده، وذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص كان في فلسطين عندما قتل عثمان، وعندما علم بأن معاوية امتنع عن بيعة علي(ﷺ) بقي متردداً حائراً فاستشار ابنيه ثم اختار اللحاق بمعاوية فتوجه إلىٰ الشام. فمن هو عمرو بن العاص؟

هو عمرو بن العاص بن وائل من قبيلة بني سهم من قريش. وقد كان أبوه العاص من أعداء الرسول ﷺ، وهو الأبتر الذي جاء ذكره في سورة الكوثر، وقد عرف بأنه أحد النوابغ الأربعة في عصره والبقية هم: معاوية والمغيرة بن شعبة وزياد الذي ألحقه معاوية بأبيه أبي سفيان وصار أخاً له!

كان عمرو في بداية الدعوة الإسلامية من ألد أعداء الإسلام، وقد طُلب منه عندما هاجرت تلك المجموعة من المسلمين إلىٰ الحبشة بأن يذهب إلىٰ النجاشي لإرجاعهم لما عرف به من دهاء وذكاء وشجاعة. وبعد صلح الحديبية الذي وقع بين الرسول(ﷺ) والمشركين في السنة السادسة للهجرة بعد أن منعه المشركون من دخول مكة. عرف عمرو بن العاص بأن أمر المشركين قد انتهى، فذهب إلىٰ المدينة مع المغيرة بن شعبة وأعلن إسلامه.

وفي عهد عمر بن الخطاب أصبح والياً علىٰ فلسطين، وفي سنة ١٩ هجرية فتح مصر بإذن عمر [أو بدون اذنه][٢] فولاه عمر بن الخطاب عليها، وعندما تولّىٰ عثمان الخلافة أبعده عن منصبه مما أحزنه كثيراً، فذهب إلىٰ فلسطين وبقي هناك إلىٰ أن تولىٰ علي ﷺ

١ - الطبري، ج٦، ص ٣٢٥٥.

٢ - هذه العبارة وضعها المؤلف في الأصل بهذا الشكل. م

الخلافة. فالتحق بمعاوية ليقف بجانبه مقابل الامام علي عليه السلام.

وكما ذكرنا فإنّ معاوية قد أبقىٰ جريراً عنده. وهذا مما أثار الناس وجعلهم يطلبون من الامام بأن يجهز جيشه ويخرج لمحاربة معاوية، فردّ عليهم الإمام قائلاً:

«إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير إن أرادوه. ولكن وَقَّتُّ لِجَرير وَقتاً لا يُقيم بعده إلا مخدوعاً أوعاصياً. والرأي عندي مع الأناة فأرودوا. ولا أكره لكم الإعداء»[١].

ولما طال المقام بجرير في الشام بعث إليه الإمام بهذا الكتاب: «أما بعد، فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية علىٰ الفصل[٢] الجزم، ثم خيره بين حرب مجلية[٣] أو سلم مخزية فإن اختار الحرب فانبذ إليه[٤] وإن اختار السلم فخذ بيعته والسلام.[٥]

فاضطر جرير للعودة وعند قدومه علىٰ الإمام قال الأشتر:

- «لوكنت بعثتني لكان أفضل. فقال له جرير:

- « لو كنت ذهبت لقتلوك علىٰ أنك من قتلة عثمان».

وفي النهاية ذهب جرير إلىٰ "قرقيسيا" ومن هناك عاد ليلتحق بمعاوية[٦].

١- نهج البلاغة. القول ٤٣.

٢- الحكم القطعي.

٣- أي مخرجة له عن وطنه.

٤- أي أعلنه بالحرب.

٥- نهج البلاغة. الكتاب / ٧.

٦- الكامل، ج٣، ص٢٧٧.

الفصل الحادي والعشرون

لمّا لم ترضخ حكومة الشام لأوامر الخليفة الشرعي قرّر عليﷺ التّوجّه إلىٰ الشام، وعندما مرّ بكربلاء صلّىٰ بالنّاس فيها، وبعد أن فرغ وسلّم رفع إليه من تربته، فشمّها، ثمّ قال:

«واهاً لك أيتها التربة! ليحشرنّ منك قوم يدخلون الجنّة بغير حساب»[١]

وجاء في رواية أخرىٰ أنه أشار إليها، وقال:

«ها هنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم. وأومأ بيده إلىٰ موضع آخر، فقال: ها هنا مهراق دمائهم»[٢]

وتابع مسيره إلىٰ أن وصل الرقّة، ومن ثمّ عبر الفرات، وبعث شريح بن هاني وزياد بن نصر علىٰ اثني عشر ألف رجل إلىٰ معاوية.

وأورد الإسكافي في كتابه، كتاباً لعلي(ع)[٣] وذكر أنه كتبه لـ« زياد بن نضر» وقد ذكر في نهج البلاغة بعنوان «من وصية له وصّىٰ بها جيشاً بعثه إلىٰ العدو» وقد ذكر هذا الكتاب

١- وقعة صفين، ص ١٤٠.

٢- المصدر السابق، ص ١٤٢.

٣- المعيار والموازنة، ص ١٤٢.

مُفصلاً في كتاب وقعة صفين لـ«نصر بن مزاحم»، وسننقل ما جاء في نهج البلاغة. ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب وقعة صفين، الصفحة ١٢٣.

ومتن الرسالة هو:

«فإذا نزلتم بعدوّ أو نزل بكم، فليكن معسكركم في الأشراف، أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كيما يكون لكم رداءاً، ودونكم مرداً، ولتكن مقاتلكم من وجهٍ واحد أو اثنين واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال، ومناكب الهضاب، لئلا يأتكم العدو من مكان مخافة أو أمن.

واعلموا أنّ مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم.

وإيّاكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفّة، ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة».

مضىٰ أصحاب عليٍ عليه السلام إلىٰ أن التقوا بمجموعة من عساكر معاوية، كان يترأسهم أبو الأعور السّلمي. فتوقفوا وبعثوا رسالة للإمام يطلبون فيها معرفة ما يفعلون. فبعث إليهم مالك الأشتر مُحتملاً برسالة نصّها:

«وقد أمّرتُ عليكما وعلىٰ من في حيّزكما مالك بن الحارث الأشتر، فاسمعا له وأطيعا، واجعلاه درعاً ومجنّاً، فإنّه ممّن لا يُخاف وهنه ولا سقطته ولا بُطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلىٰ ما البطء عنه أمثل.»

تمركز الجيشان في مكان قريب من صفّين يُعرف بـ«القناصرين». وكان ذلك المكان قريباً من الفرات إلا أنّه لم يكن هناك إلا مكان واحد يمكن الحصول منه علىٰ الماء، فاستقرّ فيه معاوية وجنده.

أوصى علي عليه السلام جنده قائلاً:

«لا تُقاتلوهم حتىٰ يَبدؤوكم، فإنكم بحمد الله علىٰ حجّة، وتركُكم إياهم حتىٰ يبدؤوكم حجة أخرىٰ لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة[1] بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تُجهزوا علىٰ جريح، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ، وإن شتمن أعراضكم وسَببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوىٰ والأنفس والعقول، إن كنّا لنُؤمر بالكفّ عنهنّ وإنهنّ لمُشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر أو الهراوة، فيُعَيَّر بها وعَقِبُه من بعده».

في حين أنّ معاوية أمر جنوده بأن لا يَسمحوا لجنود الإمام بالوصول إلىٰ الماء، فأرسل له علي عليه السلام كتاباً بالسماح لهم بأخذ الماء فإنهم لم يأتوا للقتال لأجل الماء. كما أن عمرو بن العاص طلب من معاوية بأن يسمح لهم بأخذ الماء، ولكنه رفض ذلك، فانجرّ الأمر إلىٰ القتال. فخطب الإمام في جيشه قائلاً:

قد استطعموكم القتال، فأقِرّوا علىٰ مذلّة، وتأخير محلّة أو رووا السيوف من الدماء تروووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين، ألا وإنّ معاوية قاد لمّة من الغواة وعمّس عليهم الخبر، حتىٰ جعلوا نحورهم أغراض المنية»[2].

وقع اشتباك بين الجيشين كان النصر فيه لجند علي عليه السلام فسيطروا علىٰ الماء بعد أن دحروا جيش معاوية عنه. فأمرهم الإمام أن لا يمنعوا الشاميين من الماء. وقد ذكر ابن الأعثم في

١- أي لهؤلاء.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٥١

تاريخه:

«احتال معاوية للأمر مرّة أخرىٰ، فبعث مائتي رجل من الفَعَلَة[١] يحفرون قريباً من سدّ علىٰ الفرات بحيال معسكر علي ليوهمهم بأنه يريد أن يُغرقهم، فانطلت الحيلة عليهم فجاؤوا علياً خائفين، فقال لهم علي: ...وإنّما يريد أن يزيلكم عن مكانكم، فالهوا عن ذلك، ودعوه، فقالوا له: والله لترتحلن فإن شئت فارتحل وإن شئت فأقم، فارتحلوا، فجاء معاوية ونزل في معسكر علي الذي كان فيه. فعرف جيش علي أنها كانت حيلة كما قال لهم علي، فعادوا فاقتتلوا اقتتالاً شديداً إلىٰ أن غلب علي علىٰ الماء، وطرد أهل الشّام عنه».

ما ذكره ابن أعثم يختلف قليلاً عمّا ذكره الطبري وابن الأثير.
وليس من المستبعد أن يكون الإمام عليه السلام قال الكلام الآتي عندما وصل جيشه إلىٰ الماء:

«وقد رأيت جولتكم، وانحيازكم عن صفوفكم تحوزكم الجفاة الطغام، وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب و يآفيخ[٢] الشرف، والأنف المقدم، والسنام الأعظم. ولقد شفىٰ وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم، حسّاً بالنصال، وشجراً بالرماح».

وهكذا انتهت الحرب علىٰ الماء، وبدأت المراسلة بين الطرفين.

١- العمّال
٢- جمع مفردها بمعنىٰ مكان التقاء عظم مقدم الرأس مع مؤخره كناية عن الذروة. م

كان معاوية يقول بأنه لن يبايع علياًعليه السلام إلا أن يُسَلّمه قَتَلَة عثمان، وقد قال له شبث بن ربعي في إحدىٰ محاججاته بأمر من علي﴿عليه السلام﴾:

«يا معاوية، والله لا يَخفىٰ علينا ما تغزو وما تطلب، إنك ما وجدت شيئاً تستميل به أهواء الناس إلا قولك قُتِل إمامُكم مظلوماً، وقد أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل».

فرّد عليه معاوية بالشتم والسب، وقال له:

«اذهب فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف».

وقد سعىٰ الإمام عليعليه السلام بكل ما استطاع لكي لا ينجرّ الأمر بينهم إلىٰ القتال. فأرسل شبث بن ربعي مع جماعة إلىٰ معاوية مرّة أخرىٰ عسىٰ أن يقتنع بالبيعة والتسليم دون قتال، وكان قد أشار عليه شبث بن ربعي قائلاً:

«يا أمير المؤمنين ألا تُطمّعه بسلطان توليه إيّاه، ومنزلة يكون له بها أَثَرة عندك إن هو بايعك».

فقال عليعليه السلام:

«ائتوه وانظروا ما رأيه؟»

فذهب شبث مع جمع إلىٰ معاوية وعرضوا عليه الأمر، فطلب منهم إمارة الشام. وفي المجموعة التي جمعها الشريف الرّضي في نهج البلاغة نشاهد كتاباً كتبه عليعليه السلام لمعاوية لا يُستبعد أن يكون جواباً له علىٰ طلبه إمارة الشّام:

«وأمّا طلبك إليّ الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس. وأمّا قولك: إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلىٰ الجنّة».

كان من الواضح بأن علياً ﷺ لن يتنازل عن آخرته لأجل دنياه، ولو كان غير ذلك لكان منذ أيامه الأولىٰ في الخلافة أعطىٰ لكلٍ من طلحة والزبير المناصب والمال ليُسكتهم عنه. ولمّا جرت تلك الحروب المؤلمة.

بدأت المعركة بين الطرفين علىٰ شكل مبارزات بين رجل ورجل، وبين راكب وراكب، وبين راجل وراجل. ودامت علىٰ تلك الحال حتىٰ انتهت السنة السادسة والثلاثون للهجرة. وبدأ شهر محرّم فتوقف القتال بين الجيشين علىٰ أمل أن يتم الصلح بينهما في هذا الشهر.

ثمّ انتهىٰ شهر محرم ولم يتوصل الطرفان إلىٰ الصلح، فنشبت المعركة الكبرىٰ في شهر صفر من السنة السابعة والثلاثين للهجرة، وقد اختلف المؤرخون في عدد جنود الجيشين، فذكر نصربن مزاحم في كتابه أن عدد كل جيش كان قرابة ١٥٠ ألف رجل. وذكر المسعودي أن عدد الجنود من الطرفين مختلف فيه بين قائل بأنه كبير وقائل بأنه قليل ولكن العدد المتفق عليه بأن جيش العراق كان تسعين ألف رجل، وجيش الشام خمسة وثمانون ألف رجل، وعدد القتلىٰ من جيش علي خمسة وعشرون ألفاً ومن جيش معاوية خمسة وأربعون ألفاً.

يمكن القول بأن هذه الأرقام الهائلة التي ذكرت في التواريخ القديمة فيها نوع من المبالغة. فلم يكن من السهل حضور ثلاثمائة ألف رجل أو مئتان وعشرة آلاف في صحراء صفين، وإن حضر هذا العدد فهل كانت مساحة صحراء صفين لتتسع لكل هذا العدد!

وإذا قبلنا ذلك فإن أسئلة أخرىٰ تطرح نفسها بقوة:

كيف كان يتم تهيئة المؤونة والغذاء لكل هؤلاء الجنود؟
ومن أين كان يؤتىٰ بالأعلاف للخيل خلال هذه المدة التي دامت ثلاثة أشهر؟

وكيف كان يتم الإرتباط بينهم وبين مركز القيادة؟

على كل حال، ما جاء في كتب التاريخ المعتبرة يؤكد بأن النصر بداية الأمر كان لجيش الإمام. ولو أنهم تابعوا هجومهم الأخير لكان النصر الحتمي من نصيب الإمام وجيشه. لولا أن معاوية استشار عمرو بن العاص، فاقترح عليه حيلة ليخدع جيش الإمام ويوقفهم عن التقدم إليهم.

كانت الحيلة بأن يأمر معاوية جنوده بجمع ما لديهم من نسخ القرآن ثم التقدم إلى أمام جيش علي﴿ع﴾ ودعوتهم إلى حكم القرآن وبذلك يتوقفون عن متابعة القتال في اللحظة المصيرية. وبالفعل نجحت الحيلة، وتوقف قسم من جيش الإمام عن القتال، وهم من كانوا يُعرفون بـ«قرّاء القرآن» وذهبوا إلى الإمام وطلبوا منه التوقف فوراً عن قتال القوم، وقبول طلبهم فأخبرهم علي﴿ع﴾ بأن الأمر خدعة للتخلص من الهزيمة التي صارت حتمية، فلم يقبلوا ما قال لهم.[1]

وقد جاء في تاريخ الطبري أن الأشتر في أواخر المعركة كان مشغولاً بالقتال وقد اقترب من النصر، فثار البعض على علي﴿ع﴾ وقالوا له:

«لنُرسلنّ إلى الأشتر، فليأتينك أو لنقتلنك كما قتلنا عثمان من قبلك». فبعث إلى الأشتر رجلاً، فأخبره الرجل بأن يرجع إلى علي﴿ع﴾. فقال له مالك:

ألا ترى ما صنع الله لنا من نصر؟ فقال الرجل:

«أتحب أنك ظفرت ها هنا، وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يُقتل أو يُؤسر»، فقال الأشتر:

«لا والله» فأقبل حتى انتهى إليهم، فقال:

١- المعيار والموازنة، ص ١٦٢.

«يا أهل العراق يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف، فأمهلوني فإني قد طمعت بالنصر. يا أصحاب الجباه السود. كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا».

فَعَلَت أصواتهم عليه، وسبّوه وضربوا بسياطهم مركوبه، فصاح بهم علي ﷺ فكفّوا. وتوقفت الحرب التي استشهد فيها جمع غفير من التابعين فضلاً عن خيرة صحابة رسول الله ﷺ وقد كان منهم أبو الهيثم التيهان، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وعمّار بن ياسر الذي قال له رسول الله ﷺ:

«يا عمّار! تقتلك الفئة الباغية».

الفصل الثاني والعشرون

وفي النهاية حان الوقت لتعيين الحكّام لحل الخلاف، وكان واضحاً بأن أهل الشام سيختارون عمرو بن العاص حكماً عنهم، وأمّا بالنسبة لأهل العراق فقد اختار علي عليه السلام عبدالله بن عباس ولكن لم يوافق بعض قادة جيشه على ذلك وطلبوا منه تعيين أبا موسى الأشعري حكماً عن أهل العراق. وقال الأشعث واثنان (وهما ممّن التحق بالخوارج فيما بعد):

- نحن لا نقبل رجلاً غير أبي موسى، فقال لهم الإمام عليه السلام:

«إنه ليس لي بثقة، فقد فارقني وخذّل الناس عني ثمّ هرب مني».

إذا لم نعتبر الأشعري منافقاً فمن المسلم أنه ساذج مغفّل. عندما توجه علي نحو البصرة ثبّط الناس عنه وطلب منهم ملازمة بيوتهم وعدم المشاركة في الحرب وفي النهاية وتحت ضغط مالك الأشتر طرد من دار الحكومة في الكوفة. مثل هذا الشخص كيف يمكن أن يحكم في أمر علي وعمله. ولكن ما هو الشيء الذي سينظر ويحكم فيه الحكمان؟؟

نص كتاب الصلح الذي كان بينهم جاء في تاريخ الطبري وبعض كتب التاريخ الأخرى كالتالي:

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة من معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين. وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين أنّا ننزل عند حكم الله عزوجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا، من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عزوجل وهما أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس، وعمرو بن العاص

القرشي عَمِلا به، وما لم يَجِدا في كتاب الله فالسنّة العادلة الجامعة غير المفرّقة».

وقد ورد هذا المتن في كتاب نصر بن مزاحم مع قليل من العبارات الإضافية التي لا تختلف في المضمون عمّا ذكره الطبري.

وكما نرىٰ فإن هذا المتن لم ينص علىٰ ما سيحتكم إليه الطرفان. والظاهر أنهم لم يجدوا ضرورة لتحديد ذلك لأن الأمر كان معلوماً للطرفين، ولكن يُمكننا استخلاص ما يجب أن يحتكم فيه الطرفان من خلال البحث في أسباب الحرب. وللمعرفة فإن علياً عليه السلام بعث لمعاوية كتاباً طلب منه الرضوخ لما اتفق عليه المهاجرون والأنصار بتعيينه خليفة علىٰ المسلمين. وجاء في ذلك الكتاب:

«وإنما الشورىٰ للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا علىٰ رجل وسمّوه إماماً كان ذلك لله رضىً، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة رَدّوه إلىٰ ما خرج منه».

فأجابه معاوية بالكتاب التالي، وقد ذكره نصر بن مزاحم في كتابه وفعة صفين:

«لقد ظَنّ بك السوء من هم يميلون لعثمان، لأنك ألجأتَ قبله عثمان إليك، وها هم الآن يعيشون بين يديك، ويمدّون لك يد العون، وقد برّأتَ نفسك من دم عثمان، فإنْ كان ما تقول صدقاً، سَلِّمنا قَتَلَة عثمان نقتصُّ منهم، وبعدها نأتي ونبايعك».

وكانت الأحداث التي جرت في ذلك الوقت من جهة، وما كتبه علي لمعاوية وما ردّ معاوية به علىٰ علي عليه السلام من جهة أخرىٰ يدل علىٰ ما كان سَيَحتكِم لأجله الطرفان. كانت مهمّة الحكمين تشخيص ما إذا كان قَتَلَة عثمان علىٰ حق أم ليسوا كذلك؟ ولم يكن لهم الحق بالتشاور بأمر الخلافة، ولا بتشخيص أي الطرفين أحقّ بها!.

وقد ذُكر أنّ معاوية كان يريد الخلافة لنفسه، ولكنه لم يتجرأ علىٰ المجاهرة بهذا الأمر بشكل مباشر ولذلك عَمَد إلىٰ فكرة المطالبة بدم عثمان للوصول لمآربه، حيث أنّه كان

يدّعي القرابة والولاية على دم عثمان، واستشهد بالآية الكريمة:

«ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً».[١]

هذان الحكمان يجب أن ينظرا في كتاب الله وسنّة رسوله ليَريا هل كان عثمان مستحقاً للقتل؟ فإذا كان مستحقاً للقتل يجب على علي﴿ع﴾ تسليم قتلته إلى معاوية.

هل كان مضمون كتاب الصلح هو ما ذكرناه فعلاً؟ من البعيد أن يكون الجيل اللاحق غير المضمون بشكل كامل، ربما تغيرت بعض الألفاظ على أثر النقل الشفهي من رجل لآخر، وهذا شيء طبيعي، ولكن إذا كان مضمون كتاب الصلح هو ما ذكرنا فلماذا لم يتم التصريح بما يجب على الحكمين؟ وما هي حدود صلاحياتهم؟ للحيلولة دون المشاكل التي حصلت فعلا بعد إعلان نتيجة التحكيم.

ونتساءل أيضاً عن سبب عدم معرفة جيش علي﴿ع﴾ بالحيلة، وبالأحرى عن السبب الذي جعلهم يتجاهلون بأن رفع المصاحف لم يكن إلا حيلة لإبعادهم عن النصر؟، وعن سبب عدم قبولهم لكلام الإمام﴿ع﴾، وإجباره على الخضوع لأمر التحكيم؟.

من الواضح أن جيش الإمام قد أنهكته الحرب مما أدى إلى هذا الخطأ الكبير. ويمكن تقسيم جيش الإمام في نهاية الحرب إلى ثلاثة أقسام:

١ - قسم كان يُصغي وينفذ كل ما يقوله الإمام﴿ع﴾. أو على الأقل كانوا يريدون أن تنتهي الحرب لصالح جيش الكوفة.

٢ - قسم كان قد تعب من الحرب والقتال، وكان يخاف أن تكون نهاية هذه الحرب كحربهم مع البصرة، وبالتالي لن ينال من الغنائم شيئاً.

٣ - وقسم كان من المنافقين الذين كانوا ينتظرون وعود معاوية لهم بالحكم والمال وغيره.

١ - الإسراء/١٧: ٣٣

كان الأشعث بن قيس هو الزعيم الأكبر للمنافقين، وهو من قبيلة كنده من جنوب الجزيرة. وقد التحق بالإسلام في السنة العاشرة للهجرة، وبعد وفاة الرسول ﷺ ارتدّ عن الإسلام. فبعث إليه أبو بكر جيشاً كبيراً فأُسِر وأُحضر إلىٰ المدينة، حيث أفرج عنه. وبعد ذلك تزوج من ابنة أبي بكر. وبايع الأشعث علياً ﷺ علىٰ الخلافة بعد قتل عثمان، إلا أنه لم يكن علىٰ علاقة جيدة مع الإمام ﷺ. وقد جاء كلام للإمام في نهج البلاغة يصف فيه الأشعث بأنه "منافق ابن كافر".(١)

عند كتابة كتاب الصلح، كتب الكاتب: هذا ما تقاضىٰ عليه علي أمير المؤمنين ومعاوية. فقال له عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم ابيه هو أميركم وليس بأميرنا. فأراد الكاتب أن يمحو لقب "أمير المؤمنين". فقال له الأحنف:

«لا تمح اسم إمارة المؤمنين فإني أتخوف إن محوتها أن لا ترجع إليك».

فأبى الإمام ملياً من النهار، ثم إنّ الأشعث قال: امح هذا الإسم. فقال علي ﷺ:

«لا إله إلا الله، والله أكبر، إني لكاتب بين يدي الرسول ﷺ يوم الحديبية إذ قالوا: لست رسول الله، ولا نشهد لك به، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فكتبه»، فقال عمرو: سبحان الله! أنشبّه بالكفار، ونحن مؤمنون، فقال علي ﷺ:

يا ابن النابغة! ومتىٰ لم تكن للفاسقين ولياً، وللمسلمين عدواً، فقام عمرو فقال:

لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم، فقال له علي ﷺ:

«لأرجو أن يُطَهِّر الله عزّوجل مجلسي منك ومن أشباهك». وبعد أن كُتِب كتاب الصلح خرج به الأشعث يقرؤه علىٰ الناس، ويَعرضه عليهم حتىٰ مرّ به على طائفة من بني تميم، فيهم عروة بن أدية، فقرأه عليهم، فقال عروة:

تُحكِّمون في أمر الله عزّوجل الرجال، لا حكم إلا الله»، ثم شدّ عليه بسيفه. فغضب للأشعث قومه وأناس كثيرون، فمشىٰ بعض ممن أصبح من الخوارج إليه، واعتذروا منه

١- الخطبة ١٩

فقبل. ولا يُعلم بالضبط هل أن عروة فهم من كتاب الصلح يومها ما فهمه الخوارج منه بعد ذلك بزمن (أي البحث في صلاحية الخليفة) أم لا؟ وجاء في كتب التاريخ أن كتاب الصلح قد كتب في الثالث عشر من صفر سنة ٣٧ من الهجرة. ويَذكر الطبري بأن عليأً قال للناس في ذلك الوقت:

«لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت منة وأوهنت وأورثت وهناً وذلة، ولما كنتم الأعلين وخاف عدوكم الإجتياح واستحرّ بهم القتل ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف ودعوكم إلى ما فيها ليفتؤوكم عنهم ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم وما أظنكم بعدها توافقون رشداً، ولا تصيبون باب حزم».

وقد تمّ تعيين مكان اجتماع الحكمين في «دومة الجندل»، وهي منطقة تقع في الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية، والمصَور الجغرافي لهذه المنطقة يشير إلى أن مكان اجتماع الحكمين بعيد عن مقر خلافة علي، وقريب من الشام التي كانت مقراً لحكومة معاوية.

لماذا تمّ اختيار هذا المكان بالذات للحكمين؟ ليس معلوماً ولا واضحاً. ربما أنّ معاوية أراد أن يكون المكان قريباً منه ليبقى على اطلاع كامل بكل ما يجري بين الحكمين.

أقام الحكمان مدة من الزمن في دومة الجندل لأجل التشاور. وكما هو معروف فإن أبا موسى كان من المعتقدين بأن عثمان قد قُتل بغير حق وأنّ من الواجب إقامة الحد على قاتليه. وهم الآن من الملتفين حول علي«ع»، فيجب عليه أن يُسلمهم إلى معاوية مع أنه لم يكن معلوماً من هم قتلة عثمان على وجه التحديد. بالإضافة إلى أن كل أصحاب علي من الذين شاركوا معه في حروب البصرة وصفين والذين هم من ثوار المدينة هم من المتهمين بدم عثمان.

لماذا اختار أصحاب علي«ع» هذا الحكَم؟ لماذا أصرّ الأشعث بن قيس على انتخاب أبي موسى الأشعري؟

السبب في ذلك يعود إلى سخط الأشعث على علي«ع» كما يكمن في انبعاث الروح القبلية وعاداتها من جديد.

في النهاية حان يوم إعلان رأيهما وهو اليوم الذي يجب فيه على كليهما إعلان رأيه. هل كان عثمان مستحقاً للقتل أم أنه قتل بغير حق؟ لكنّهما لم يتشاورا في مقتل عثمان وحسب، بل تجاوزا ذلك إلى ما لم يُخوّلا به.

بعد أن تشاور عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري استطاع عمرو بدهائه إقناع أبا موسى بأن علياً ليس أهلاً للخلافة لإيوائه قتلة عثمان وإشعاله نار الحرب! كما أن أبا موسى الأشعري أظهر تذمّره من معاوية، وعدم لياقته وأهليته للخلافة، واستقرّ رأيهما على أن يخلع أبو موسى علياً وأن يخلع عمرو معاوية، ثمّ يتم إيكال أمر انتخاب الخليفة للشورى. فمن أين أخذا التفويض بالتشاور في مثل هذا الأمر وتقرير مصير الخلافة؟ ولماذا لم يقررا شيئاً بخصوص الموضوع الأصلي الذي كان يجب عليهما التشاور فيه؟ ومن أين استخلصا بأن لهما الحق بعزل خليفة وتنصيب آخر؟ فنحن لا نرى في كتاب الصلح ما يُجيز لهما هذا الفعل.

وعلى كل حال بعد أن حان الوقت لإعلان ما اتفقا عليه قدّم عمرو بن العاص أبا موسى، وقال له: إنّك صاحب رسول الله ﷺ، وإنك أسنّ مني. فتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابن عباس:

«ويحك والله إني لأظنه قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك». وكان أبو موسى مُغفلاً، فقال له: «إنا قد اتفقنا»، ثم تقدم، وقال:

«إني أخلع علياً من الخلافة كما أخلع هذا الخاتم من إصبعي». فتقدم عمرو وقال:

«كما سمعتم لقد خلع صاحبه وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية على الخلافة كما أضع هذا الخاتم في إصبعي».

فغضب أبو موسى وقال له:

«إن مَثَلك كمثَل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث». فقال عمرو:

«إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً». وسفّه كل واحد منهما الآخر، ثم مضيا.

وهكذ وقع ما حذّر منه علي ﷺ. وعندما سمع أهل العراق بنتيجة التحكيم ثاروا.

واعترضت فرقة من الناس على عليؑ لقبوله أمر التحكيم، في الوقت الذي كان فيه عليؑ مخالفاً لهذا الأمر. وقد قال عليؑ حول هذا الموضوع:

«ولما دعانا القوم إلى أن نُحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله سبحانه: «فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى الله ورسوله». فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه، وردُّه إلى الرسول أن نأخذ بسنته، فإذا حكم بالصدق في كتاب الله، فنحن أحق الناس به، وإن حكم بسنة رسول اللهﷺ فنحن أحق الناس وأولاهم بها».

ومن جواب له على من اعترضوا على أمر التحكيم قال:

«إنا لم نحكّم الرجال، وإنما حكّمنا القرآن. وهذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بدّ له من ترجمان. وإنما ينطق عنه الرجال. فأجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين، فأخذنا عليهما أن يجعجعا عند القرآن، ولا يجاوزاه، وتكون ألسنتهما معه وقلوبهما بتبعه، فتاها عنه، وتركا الحق وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما، والإعوجاج رأيهما»[1].

فقالوا للإمام:

«ارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم» ولكن ذلك كان بعد أن فات الأوان. فبموجب كتاب الصلح كان لا يحق لهما القتال إلى شهر رمضان. وبعد أن قبلوا إحقيقة أو ظاهرياً] بأنهم هم المخطئون بأمر التحكيم، قالوا: فلماذا جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم؟

فقال عليؑ:

«وأمّا قولكم: لمَ جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم؟ فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل،

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٧٧.

ويَتثبت العالم، ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة»[١].

وقد كثُر النقاش والحديث في أمر التحكيم، فقال بعضهم:

«التحكيم في دين الله ليس من صلاحية عباده، ولا حكم إلا لله» وتفاقم الأمر بهم أكثر، وتجاوز بعضهم حد الشكوى والتذمر، فقالوا:

«لقد كفرت بدين الله بقبولك أمر التحكيم». وانتهى بهم المطاف لينفضوا عن جيش علي عليه السلام حيث ذهبوا إلى منطقة تدعى «حروراء» وأقاموا في منزل عبدالله بن وهب الراسبي، فخطب بهم عبدالله، ودعاهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال لهم:

«فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض الجبال أو إلى بعض المدائن مُنكرين لهذه البدع المضلة.»

فقام حرقوص بن زهير، وقال:

«إن لمتاع هذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

وبعد ذلك بايعوا عبدالله بن وهب على أن يتزعمهم، واتجهوا إلى "النهروان" ثم دعوا الناس ليَحضروا إليهم.

فبعث لهم علي عليه السلام كتاباً قال فيه:

«إن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمها قد خالفا كتاب الله، واتبعا هواهما، فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا إلينا».

فبعثوا له كتاباً جاء فيه:

«أما بعد، فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٢٥.

الخائنين».

وقدموا على الناس فأراقوا الدماء. وجاؤوا على عبدالله بن خبّاب صاحب رسول الله ﷺ فقتلوه ومزقوا بطن زوجته وهي حامل. فوصل خبرها إلى علي ﷺ وأصحابه. فقام أهل الكوفة. وقالوا: سر بنا إلى القوم. فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام».

من جهة أخرى التحق خوارج البصرة وعددهم يقارب خمسمائة مقاتل بخوارج النهروان طبقاً لما ذكر المؤرخون. فصار خطر الخوارج أكثر جدية وخطورة نتيجة ازدياد عددهم وقوتهم. فقام علي ﷺ فخطب بأصحابه قائلاً:

«أما بعد، فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب النّدامة. وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، "لو كان يُطاع لقصير أمر". فأبيتم علي إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضنّ الزند بقدحه، فكنت أنا وإيّاكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد.

وقال ﷺ أيضاً:

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدىً من الله، فحكما بغير حجة بينه، ولا سنة ماضية فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين».

وهكذا توجّه علي ﷺ لمواجهة الخوارج. وكالعادة، ولما كان يتمتع به من عطف ورأفة قرر أن يبعث إليهم رسولاً ليقيم الحجة عليهم فبعث ابن عباس قبل أن تنشب الحرب بين الطرفين للإحتجاج عليهم، وقال له:

«لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه، فتقول ويقولون. ولكن حاججهم

بالسنّة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً».

فذهب ابن عباس وحاججهم إلا أن ذلك لم ينفع معهم، فقد أعدّوا عدتهم للقتال. فخرج إليهم علي عليه السلام بنفسه وقال:

أكلكم شهد معنا صفين؟ فقالوا: «منّا من شهد ومنّا من لم يشهد». قال: «فامتازوا فرقتين، فليكن من شهد صفين فرقة، ومن لم يشهدها فرقة حتى أكلّم كلاً منكم بكلامه»، ونادى الناس، فقال: «أمسكوا عن الكلام، وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتكم إليّ، فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها.

ثم كلّمهم عليه السلام بكلام طويل. ومن جملته أن قال عليه السلام:

«ألم تقولوا عند رفعكم المصاحف حيلة وغيلة، ومكراً وخديعة: إخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم؟ فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان، وباطنه عدوان».

فقبل منه البعض، فدعا أبا أيوب الأنصاري، فأعطاه راية، وقال:

«من جاء هذه الراية منكم فهو آمن» فانصرف فروة بن نوفل الأشجعي عن الجيش وانصرف معه خمسمائة رجل إلى «دسكرة»، وانصرفت طائفة إلى الكوفة، كما انضم مائة رجل لجيش علي عليه السلام. وأما الذين بقوا فقالوا:

«إنّا حكّمنا، فلمّا حكّمنا أثِمنا، وكنا بذلك كافرين، وقد تُبنا، فإن تُبت كما تبنا فنحن منك ومعك».

فقال لهم علي عليه السلام:

«أصابكم حاصب، ولا بقي منكم أثر. أبعد إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله، أشهد على نفسي بالكفر! لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، فأوبوا شر مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب أم إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة».

وقد جاء في تاريخ الطبري أن عدد الخوارج الذين كانوا تحت راية عبدالله بن وهب ما

يقارب ألفين وستمائة شخص، وقد قُتل في هذه المعركة سبعة أو تسعة رجال من جيش علي عليه السلام ولم ينج إلا تسعة رجال من الخوارج.

وقد قال عليه السلام قبل البدء بالحرب:

«والله لا يفلت منهم عشرة، ولا يهلك منكم عشرة».

-وهكذا انتهت الحرب مع الخوارج لصالح مركز الخلافة. إلا أنها تركت أثراً سلبياً في نفوس أهل العراق كان أسوأ من الحرب ذاتها. فكما ذكر التاريخ، فإن المعارك التي وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وآله كانت تدور بين المسلمين والكفار، وفي زمان الخلفاء الثلاثة كانت تدور المعارك والحروب بين المسلمين العرب والكفار من غير العرب. وأما معركتا الجمل وصفين فلم تكونا كذلك. فمعركة الجمل كانت بين المسلمين العرب الجنوبيين والمسلمين العرب الشماليين، ومعركة صفين لم تكن أفضل من سابقتها ففي هذه المعركة في بعض الأحيان كان يقف إلى جانب علي عليه السلام نصف القبيلة ويقف إلى جانب معاوية نصفها الآخر.

ولكن في هذه الحرب، التقى المسلمون مع مسلمين آخرين كانت تدمغ جباههم آثار السجود فضلاً عن كون أكثرهم ممن يحفظ القرآن أو معظمه عن ظهر قلب. فعندما كان الخوارج يريدون الشروع بالحرب والقتال كانوا ينادون «إلى الجنة». وروى الطبري عن أبي مخنف عن رجل ممن قاتل مع علي عليه السلام أنه قدم إليه، وقال: يا أمير المؤمنين قتلتُ زيد بن حصين. فقال الإمام: ما قلت له، وما قال لك. قال: قلت له أبشر يا عدو الله بالنار. فقال لي: «ستعلم أينا أولى بها صلياً».(١)

وبعد إنتهاء الحرب قيل للإمام:

يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم؟ فقال عليه السلام:

«كلا والله، إنهم نطفٌ في أصلاب الرجال، وقرارات النساء، كلما نجم منهم قرن قطع، حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين».(٢)

١- الطبري، ج ٦، ص ٣٣٨٢

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٦٠.

وقد حصل ما تنبأ به علي ﷺ فعلاً، ففي عصر الخلفاء العباسيين ومن سبقهم انتشر الخوارج في البصرة والأهواز وبعض المدن الجنوبية من إيران، حيث اختلفوا مع حكام زمانهم وسببوا الفتن والمشاكل واشتبكوا مع جيوش الخلفاء إلىٰ أن ضعفوا وانقسموا إلى مذاهب وفرق متعددة. وكان مذهب الأزارقة أكثر مذاهبهم إفراطاً وتحجراً، كما كان مذهب الإباضية من أكثرها إعتدالاً ومرونة.

ومع مرور الزمن قُضي علىٰ المذاهب والفرق التي تشكلت من الخوارج ولم يبق إلا مذهب الإباضية.

وقد جاء في كتب التاريخ أن رجلاً من الخوارج اسمه عبدالرحمن، وكان يُطلق علىٰ نفسه «ابن رستم بن بهرام شاپور» ذهب في أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري من ايران إلىٰ إفريقية، وبالتحديد إلىٰ مدينة في الجزائر تدعىٰ "تاهرت". وشكل دولة عرفت في التاريخ باسم "الدولة الرستمية". وقد دامت حكومة هذه الدولة من سنة ١٤٠ إلىٰ ٢٩٦ للهجرة. وحالياً يَقطن أكثر الإباضيين في الجزائر في مدينة "تاهرت" و"غرداية" وقد نشأ من أوساطهم فقهاء ومؤرخون مشهورون.

كما أن معظم السكان في سلطنة عمان يعتنقون المذهب الإباضي.

الفصل الثالث والعشرون

حريٌّ بنا الآن أن نتعرف على ما كان يقوله الخوارج حول أمر التحكيم، وما كانوا يظنون أنه مخالف لحكم الله، ودافعوا عنه حتى الموت. فهل أن ذلك الأمر هو كما ادعى معاوية بأن عثمان قُتل ظلماً؟ فإن كان كذلك فإن أمر التحكيم ليس جائزاً من الله وحسب، بل منصوص عليه في نفس القرآن الكريم؛ ومن الآيات التي تدل على التحكيم في القرآن نذكر:

«وإن خِفتم شقاق بَينهما فابعثوا حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها».(١)

«فإن جاؤوك فاحكم بينهم».(٢)

«أن احكم بينهم بما أنزل الله».(٣)

وآيات أخرى من هذا القبيل. ولكن من الواضح أن الخوارج لم يعترضوا على هذا القبيل من التحكيم، فعندما ذهب ابن عباس إليهم، قال لهم: ما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عزوجل: «إن يُريدا إصلاحاً يُوَفّق الله بينهما».(٤)

فقالت الخوارج: أمّا ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح إليهم، فكما أمر به. وأما ما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه: حكم في الزاني مائة جلدة، وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا».

ما هو الحكم الذي أمضاه الله عزوجل ولا يقبل التغيير وسار الحكمان (أبوموسى الأشعري وعمرو بن العاص) خلافاً له؟

١- النساء/٤: ٣٥
٢- المائدة/٥: ٤٢
٣- المائدة/٥: ٤٩
٤- النساء/٤: ٣٥

بالتدقيق نجد أن نص كتاب الصلح هو الذي خلق هذه المشكلة. فبالنظر إلى الكتب التاريخية وما ورد فيها حول هذا الموضوع لا يمكن فَهم وظيفة الحكمين من خلال عبارات كتاب الصلح. ولكن وكما ذكرنا سابقاً، عندما خرج الأشعث وقرأ كتاب الصلح قال له عروة بن أدية:

«أتُحَكِّمُون في أمر الله الرّجال»، إذاً بحسب ظنّه (وكما ذهب إلى ذلك بقية الخوارج فقالوا: لا حكم إلا لله) فإنّ موضوع التحكيم هو شيء أبعد من عثمان وقتله بحق أو بغير حق، وهو الشئ الذي يُخالف حكم الله والعقيدة الإسلامية بحسب رأي الخوارج، ولهذا نجد أن الخوارج عندما قال لهم علي عليه السلام:

«أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف قلت لكم امضوا على حقكم وصدقكم، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ومكيدة»، قالوا:

«كان ذلك منا كفراً فقد تبنا إلى الله عزوجل».

من الواضح أن التحكيم في أمر قتل عثمان ليس مخالفاً لأمر الله عزوجل، حتى يتوب الخوارج عنه وخصوصاً أن الخوارج كانوا ممّن له اطلاع على الحلال والحرام وممن يعرف بشكل أو بآخر معاني الكلمات القرآنية. لذا لا يمكن القول أنهم كانوا معارضين كلياً ومطلقاً للتحكيم، وأنهم كانوا يعتبرون التحكيم كفراً على الإطلاق، وذلك لأنهم يعترفون بأن بعض المسائل تقبل التحكيم، كما أن النظر في قتل عثمان هل كان قتله بحق أم لا ليس من المسائل التي لا يجوز التفكير والنظر فيها.

أجل!إن فهم الخوارج من التحكيم شيء أبعد من طلب معاوية بثأر عثمان، فكانوا يعتقدون بأن علياً بقبوله مسألة التحكيم قد ترك لأبي موسى وعمرو المجال ليتحكما بأمر الخلافة.

وهو الشئ الذي توهمه ابن أُدية من كتاب الصلح واعترض عليه واضطرب منه، دون غيره، ولكن بدأ اعتراضهم بعد أن أعلن عمرو وأبو موسى عزل علي من الخلافة ونصّب

عمرو معاوية في الخلافة. فحصل نفس التوهم لجميع الخوارج وهو أن موضوع تحكيم الحكمين هو الخلافة فاعترضوا، حيث كانوا يقولون:

«لا حكم إلا لله. فقد جعل الله أمر تعيين الخليفة بيد الناس، وقد اختاروك، فلا يحق لك أن تحكّم بما أراده الناس. إن الله يضع الحكم أينما يشاء ويأخذه ممن يشاء، وإرادته تتحقق بما أجمع عليه الناس».

هذا ما توهمه الخوارج وما كانوا يقولونه، وكما ذكرنا لم يكن مثل هذا الموضوع مطروحا من البداية، ولم يُطلب من الحكمين النظر في هذا الأمر، ومما يؤكد ذلك أكثر ما ورد في تاريخ اليعقوبي أنه:

«عندما سمع الناس ما حكم به أبو موسى وعمرو بن العاص، اعترضوا وأقسموا بالله بأن الحكمين قد عملا خلافاً لكتاب الله وسنة نبيه».

وإذا راجعنا كتب التاريخ فإننا سنجد أن اعتراض الخوارج على علي عليه السلام لم يكن إلا لأنهم ظنّوا بأنّه سمع لعمرو وأبي موسى بالتحكيم في أمر الخلافة، وقد جاء في كتاب المعيار والموازنة أنهم قالوا للإمام:

«لماذا كتبت اسمك واسم أبيك في كتاب الصلح، ومحوت لقب أمير المؤمنين الذي أعطاك إيّاه الله عز وجل».

وبهذا الإعتراض يصبح أمر قيام الخوارج على علي عليه السلام أكثر وضوحاً، ويمكن القول بأن اعتراضهم كان على مسألة الإمامة، وليس على تعيين الحكم. في الوقت الذي كان فيه علي عليه السلام معترضاً على تعيين الحكام، وقد قال ذلك في مواضع عديدة، وأخبر الناس بأن الأمر خدعة من قبل أهل الشام، وأن الحكمين لم يكونا مكلفين بالنظر في المستحق للخلافة من غيره، بل تعديا حدودهما وتدخلا فيما ليس من حقهما، إلا أنهم لم يستجيبوا له. في البداية كان اعتراض الخوارج على هذه المسألة إلا أنهم ما لبثوا أن طوروا الأمر أكثر وأكثر وتميزوا في الكثير من المسائل العقائدية مما أدى إلى انقسامهم إلى فرق ومذاهب متعددة، ما لبثت أن انقرضت آثارهم.

وقد كانت أحداث الخوارج من أفجع الحوادث وأحزنها في عهد خلافة علي ﷺ. فطلحة والزبير كانا يريدان الحكومة والسلطة؛ ومعاوية كان يريد الخلافة، أما الخوارج فماذا أرادوا؟ لا هذا، ولا ذاك، وكما ذكرنا فقد عُرف الخوارج بأنهم كانوا ممن يحيي الليل ويقرأ القرآن، وقد قال عنهم الأشتر:

"إن أثر السجود كان واضحاً على جباههم". وقد كان أكثرهم ممن يعرف علياً جيداً وعاشوا معه وعرفوا ما قال عنه الرسول ﷺ من أحاديث، وقد رأوا الحياة البسيطة والزهد الذي كان يتمتع بهما علي ﷺ، ودقته في تطبيق وإجراء الحدود الإلهية. والأهم من كل ذلك أنهم كانوا يعلمون بأنه لم يكن راضياً بأمر التحكيم. وأنهم مع بقية جيشه هم الذين أجبروه على الرضوخ للتحكيم. ومع كل ما عرفوا عن الإمام إلا أنهم ثاروا عليه وقاموا ضده وحاربوه. فلماذا فعلوا ذلك؟

من الممكن أن يكون قول علي ﷺ التالي جواباً لتساؤلاتنا، فقد قال:

«فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه».[١]

كان معاوية وغيره من الخارجين عليه يطلبون الباطل في حين أن الخوارج كانوا يطلبون الحق ولكنهم ضلّوا عنه. للشيطان حيل ومكائد لا ينجو منها الإنسان إلا بالاعتصام بحبل الله واللجوء إلى كهفه. وقد ذكر بأن علياً قال في إحدى خطبه التي وجهها للخوارج بعد أن قتلوا الناس بلا ذنب:

«فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلِمَ تضلون عامة أمة محمد ﷺ بضلالي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب... ثمّ أنتم شرار الناس، ومن رمى الشيطان به مراميه، وضرب به تيهه».[٢] وهكذا انتهت الحرب مع الخوارج وارتاح المسلمون من فتنتهم.

١- نهج البلاغة، الخطبة ٦١.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧

الفصل الرابع والعشرون

لمّا فرغ علي عليه السلام من أهل "النهروان" طلب من جنده أن يتوجهوا إلى حرب الشام، فقالوا:

«يا أمير المؤمنين! نَفِدَت نبالنا وكَلَّت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً، فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منّا، فإنه أوفى لنا على عدونا».

وقد ذكر الطبري في تاريخه أن الذي قال هذا الكلام هو الأشعث[1]، وليس بعيداً عن الأشعث أن يقول ذلك، فقد سلك مسلك المنافقين، وربما أراد من ذلك تأخير توجه الإمام إلى الشام. لماذا؟

يُعتقد أن للأشعث علاقات سرّية وخَفِيّة مع أعداء علي عليه السلام، وكما سوف نذكر فإن اغتيال علي ﴿عليه السلام﴾ واستشهاده كان على أثر مؤامرة حاكها ضدّه.

كان تخاذل أهل العراق عن الحرب يحزّ في نفس علي عليه السلام كثيراً، وقد عبّر عن ذلك:

«ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا: ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو. ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا اخضرّ للإيمان عود».[2]

إلا أنّه لم يكن هناك أذن صاغية لما كان يقوله الإمام. وإذا دققنا في خطب الإمام عليه السلام حول أهل العراق ورتبناها طبقاً للحوادث والتسلسل الزمني فإننا سنجد أنّه كان في البداية

١- الطبري، ج ٦، ص ٣٣٨٥.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٥٦.

يذكر أهل العراق بالمديح والثناء ولكن كلما تقدمنا قليلاً فإننا نجده قد بدأ شيئاً فشيئاً بالعتب والشكوىٰ منهم إلىٰ أن وصل الأمر إلىٰ الدعاء عليهم، وفي النهاية وصل إلىٰ حالة ووضع طلب فيه من الله الموت. فلماذا كان ذلك؟ لقد ذكرنا السبب سابقاً، التنافر السكّاني في العراق ورأفة الإمام وعدله فيهم من جهة، ومن جهة أخرىٰ خصوصية الكوفيين الذين كانوا يطيعون حاكماً مثل زياد والحجّاج بحيث لا يَرحمهم أبداً. وكما أشرنا سابقاً فإنّ المقاتلين الذين اشتركوا في حربي الجمل وصفين كانوا ممن شارك في الحروب والمعارك في خارج الدائرة الإسلامية وكانوا يستفيدون من الغنائم الحربية، في حين أنهم في هاتين المعركتين لم يحصلوا علىٰ شيء من الغنائم، لماذا؟

لأنّ علياً قال لهم (ما مضمونه): إن أهل البصرة أو أهل الشام حازوا أموالهم علىٰ دين الإسلام ونكحوا نساءهم علىٰ أساسه، وليسوا كفاراً حتىٰ يكون لكم في أموالهم ونسائهم نصيب. ولكن إدراك هذه الحقيقة من وجهة نظر الفقه الإسلامي صعب لجميع من كان معه أو لأكثرهم علىٰ الأقل. ومن الطبيعي بالتالي أن يَملّوا من الحرب.

بالإضافة إلىٰ أولئك الذين دسّهم معاوية بين أهل الكوفة لتثبيطهم عن طاعة الإمام وعدم الإنصياع لأوامره، وذلك عن طريق إغرائهم بالمال أو المقام. وفي نفس الوقت كان هناك جمع بقوا مع الإمام من البداية وحتىٰ النهاية مطيعين له ولكن عددهم كان قليلاً.

كما أننا نرىٰ من جهة أخرىٰ بأن أهل الشام كانوا ينصاعون لكل ما يقوله معاوية وما يأمرهم به، وقد قال علي ﷺ حول ذلك:

«لَوَددت والله أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم. يا أهل الكوفة! منيت منكم بثلاثٍ واثنتين: صم ذوو أسماع وبُكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء».[1]

١- نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.

ومرّة أخرى يقايس أصحابه مع معاوية فيقول:

«وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، ولأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم».(١)

وبعد أن خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري في خلع علي عن الخلافة وتوليته معاوية، فهم معاوية أن أمر الإستيلاء على العراق أصبح قريباً، ولكن في البداية لا بدّ من إلقاء الخوف والرعب منه في قلوب العراقيين، فأرسل فرقة من جنوده لإخافة الناس فاستقروا على حدود البلاد، وعمدوا إلى قتل الناس، وكان علي عليه السلام يأمر أصحابه باستمرار بالخروج للجهاد إلا أنهم كانوا يُقدّمون أعذاراً وحُجَجاً واهية لكي لا يخرجوا للقتال، فكان الإمام عليه السلام يقول لهم:

«قُبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ، قُلتم: هذه حمارّة القيظ، أمهلنا يُسبّخ عنّا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنّا البرد، كل هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تَفرّون فأنتم والله من السيف أفرّ».(٢)

وفي السنة الثامنة والثلاثين بعث معاوية عبدالله بن عمرو الحضرمي إلى البصرة ليدعو الناس للمطالبة بدم عثمان، وقال له: «إنّ جلّ أهلها يَرَون رأينا في عثمان، وقد قُتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حَنِقون يَوَدّون أن يأتيهم من يجمعهم... فانزل في مُضر وَتَوَدَّد الأزد فإنهم كلّهم معك، ودَع ربيعة فلن ينحرف عنك أحد سواهم لأنهم كلهم ترابية إأي:

١- نهج البلاغة، الخطبة ٢٥

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

يهوّن أبا تراب علياً عليه السلام]» فذهب الحضرمي إلى البصرة، ونزل عند بني تميم، وكان ابن عباس قد خرج من البصرة إلى علي عليه السلام بالكوفة واستخلف مكانه زياد بن أبيه. فاجتمع الناس حول الحضرمي، فخطب بهم خطبة أطنب فيها بالطلب منهم بدم عثمان، واتهم علياً عليه السلام بأنه قتل عثمان. فقال له الضحاك بن قيس الهلالي وكان قائد الشرطة من قبل ابن عباس:

«ما أسوأ ما تطلب: أتيتنا تطلب منا ما جاءنا لأجله طلحة والزبير؟ فلقد أتيا إلينا وفرّقا كلمتنا بعد أن بايعنا علياً عليه السلام، والآن وبعد أن بايعناه مرة أخرى وعفا عنّا. أتريد منّا أن نقتل بعضنا الآخر ليصبح معاوية أميراً علينا؟ والله ليوم من خلافة علي عليه السلام أفضل من معاوية ومن معه».[1]

وبعد أخذ وردٍّ، وبعد أن قرأ عبدالله الحضرمي عليهم كتاب معاوية الذي وعدهم فيه العطاء مرتين في العام دعا زياد بني بكر بن وائل الذين كانوا لا يزالون على طاعة الإمام عليه السلام، ونشبت الحرب، فانتصر جيش زياد على جيش الحضرمي ومن معه بعد أن حاصرهم زياد في القلعة التي لجؤوا إليها، وقام بإضرام النار فيها. وبهذا انتصرت الأزد على تميم وقال شاعرهم.

رددنا زياداً إلى داره ... وجار تميم دخاناً ذهب
لحى الله قوماً شووا جارهم ... وللشاء بالدرهمين الشصب
ينادي الخناق وخمانها ... قد سمطوا رأسه باللهب
ونحن أناس لنا عادة ... نحامي عن الجار أن يغتصب
ولم يعرفوا حرمة للجوار ... إذا أعظم الجار قوم نجب
كفعلهم قبلنا بالزبير ... عشية إذ بزه يستلب

لم يمض على وفاة الرسول صلى الله عليه وآله حينما أنشدت هذه الأبيات أكثر من ثلاثين عاماً فإذا

١- الكامل، ج٣، ص ٣٦٠.

نظرنا في هذه الأبيات، فإننا سنلاحظ بأن الشيء الوحيد الذي لم يذكر فيها هو الإسلام، وطاعة إمام المسلمين، ومن هنا نستنتج بأن طاعة البعض للإمام لم تكن إلا نتيجة للتعصب القبلي. وما أسرع ما ابتعد المسلمون عن تحذير القرآن لهم بقوله تعالىٰ:

«وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل. أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين».(١)

ولا يُستبعد أن تكون هذه الفقرة من خطبة علي﴿ع﴾ التي تسمىٰ بـ«القاصعة» ناظرة إلىٰ هذه الحادثة:

«ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربه. فالله الله في كبر الحمية، وفخر الجاهلية، فإنه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة علىٰ ربهم وجاحدوا الله علىٰ ما صنع بهم.(٢)

وفي نفس السنة (أي سنه ٣٨ هجرية) جاء المخرّيت بن راشد إلىٰ علي﴿ع﴾ في ثلاثين راكباً من أصحابه، وقد شهدوا معه الجمل وصفين، فقال له:

«يا علي! لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، وإني غداً لمفارقك». فقال له علي﴿ع﴾:

«إذاً تعصي ربك وتَنكث عهدك، لا تَضر إلا نَفسك، خَبّرني لِمَ تَفعل ذلك؟»، فقال: «لأنك حكمت بالكتاب، وضعفت عن الحق، وركَنت إلىٰ القَوم الذين ظلموا».

فقال له علي﴿ع﴾:

«هلّم أدارسك الكتاب، وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت له منكر الآن، وتستبصر ما أنت عنه

١- آل عمران/٣: ١٤٤.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

جاهل».

فقال: إني عائد إليك، فقال علي عليه السلام:

«لا يَستَهوينك الشيطان، ولا يَستخفنك الجهل، والله لئن استرشدتني واستنصحتني لأهدينّك سبيل الرشاد».

فخرج من عند الإمام منصرفاً إلىٰ أهله، فخرج من الكوفة، وفي الطريق قتل (مع من كان معه) رجلاً من الدهاقين كان قد أسلم، فأرسل علي عليه السلام رجلاً من أصحابه علىٰ جيش لقتاله، فاشتبكوا معه، إلا أنه هرب ليلاً فاراً إلىٰ الأهواز، فالتحقت به مجموعة، وأخرجوا سهل بن حنيف عامل علي عليه السلام علىٰ الأهواز، فأرسل علي عليه السلام معقل بن قيس إليهم، فحاربهم فهزمهم، فهرب الخرّيت إلىٰ البحرين، فراح يُحرّض الناس للقيام علىٰ علي عليه السلام.

الفصل الخامس والعشرون

كانت سنة تسع وثلاثين هجرية بالنسبة لعلي﴿ع﴾ من السنوات المليئة بالألم والمشقّة، حيث فرّق معاوية جيوشه إلىٰ حدود العراق لإخافة الناس وإرعابهم، فأرسل النعمان بن بشير علىٰ ألف رجل إلىٰ "عين التمر" وهي منطقة في غرب الكوفة، حيث أنّه لم يكن فيها إلا مالك بن كعب ومائة رجل معه. فبعث إلىٰ علي﴿ع﴾ يطلب منه المدد والعون لقتال النعمان، فطلب علي﴿ع﴾ من أهل الكوفة الخروج إلىٰ الجهاد إلا أنهم تباطؤوا في ذلك، وعندما رأىٰ منهم ذلك، صعد المنبر، وقال:

«كلما أطلّ عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه، وانجحر انجحار الضب في جحره، والضبع في وجارها. الذليل والله من نصرتموه، ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل. فإنّا لله وإنا إليه راجعون».(١)

ولكن هل أثّر هذا الكلام وأمثاله في قلوب هؤلاء الناس الصلدة؟

- لا!

وأرسل معاوية في هذه السنة رجلاً من أصحابه إلىٰ مكة اسمه يزيد بن شجرة ليدعوا الحجيج لبيعة معاوية، كما طلب منه إخراج عامل علي من مكة. وأرسل أيضاً مجموعة لغزو

١ - نهج البلاغة، الخطبة ٦٩. [ولا يوجد في نسخة المعجم عبارة «إنا لله...».م]

شبه الجزيرة.

كما أرسل في نفس السنة سفيان بن عوف على ستة آلاف رجل ليحاربوا أهل هيت[١]، فذهب سفيان إلى تلك المنطقة، وشرع في تقتيل الناس، وسلبهم ممتلكاتهم، وعندما وصل الخبر إلى علي عليه السلام خطب خطبة، قال فيها:

«ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يَغزوكم، فوالله ما غُزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت عليكم الغارات، ومُلكت عليكم الأوطان. وهذا أخو غامد[٢] وقد وردت خيله الأنبار، وقد قَتل حسان بن حسان البكري[٣]، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقُلبها وقَلائدها ورعثها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلمٌ، ولا أُريق لهم دم، فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً».[٤]

وذُكر أنّه لمّا بلغه إغارة أصحاب معاوية على "هيت"، خرج بنفسه ماشياً حتى أتى "النخيلة"، فأدركه الناس، وقالوا: «يا أمير المؤمنين! نحن نكفيكهم»، فقال:

«ما تكفوني أنفسكم، فكيف تكفونني غيركم؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكوا حيف

١- مدينة على ضفاف الفرات، وهي حالياً مركز محافظة دليم (الرمادي) في العراق.
٢- سفيان بن عوف من بني عامر من أزد، أمره معاوية بالإغارة على حدود العراق.
٣- عامل الإمام عليه السلام على الأنبار.
٤- نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

رعاتها، وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، وكأنني المَقود وهم القادة».[١]

وبعث معاوية قائداً آخر من قادته إلى "تيماء"[٢]، وقال له:

«خذ الصدقة من كل أعرابي تصل إليه، فمن مَنَعَك فاقتله».

وفي سنة سبع وثلاثين أرسل معاوية الضحاك بن قيس للإغارة والقتل، فقال علي عليه السلام يستنهض الناس حين ورد خبر غزو جيش معاوية لبعض مناطق العراق، وشاهد تقصير أهله:

«أيّها النّاس! المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصمّ الصّلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون في المجالس كيت وكيت[٣]، فإذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد[٤]! ما عَزَّت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم... أي دار بعد داركم تَمنَعون، ومع أي إمام بعدي تُقاتلون؟ المغرور - والله - من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز - والله - بالسهم الأخيب»[٥]

إلا أن الشيطان كان قد استحوذ على قلوبهم، بحيث أنه لم يكن هناك طريق لما يقوله الإمام، وقال الإمام فيهم أيضاً:

«يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال، لَوَدِدت أنّي لَم أرَكم ولَم أعرفكم مَعرفَة - وَالله - جَرَّت نَدَماً، وَأَعقَبَت سَدَماً، قَاتَلَكم

١- قصار الحكم، ٢٦١.

٢- بلدة في شمال شبه الجزيرة العربية.

٣- كلمتان متلازمتان: كناية عن الحديث.

٤- كلمة يقولها الهارب عند هروبه وفراره.

٥- نهج البلاغة، الخطبة ٢٩ [بحسب نسخة المعجم المفهرس].

الله! لَقَد مَلأتم قَلبي قَيحاً، وَشَحَنتم صَدري غَيظاً، وَجَرَّعتموني نغب التَّهام أنفاساً، وَأَفسَدتم عَلَيَّ رأيي بالعصيان والخذلان».[١]

ثمَّ بَثَّ هَمَّه وغَمَّه رَبّه قائلاً:

«اللهمَّ! إنّي قَد مَلَلتهم وَمَلّوني، وَسَئمتهم وَسَئموني، فَأبدلني بهم خَيراً منهم، وَأبدلهم بي شَرّاً مِنّي».[٢]

ثمّ أرسل حجر بن عدي إليهم، فانتصر جيش حجر علىٰ جيش الضّحّاك الذي ولّىٰ هارباً.

لقد علم معاوية بأنه لن يستطيع السيطرة علىٰ العراق [رغم تخاذل أهله] مادام علي عليه السلام حياً، ولذلك وجّه أنظاره إلىٰ مصر التي كانت غنية بالثراوت التي تعود بالمنفعة علىٰ من يَستولىٰ عليها، إلا أنّ أكثرية أهل مصر كانوا لا يميلون إلىٰ عثمان، وقد خاف معاوية أن يتفقوا مع علي عليه السلام فيزحفون لحربه، لذا دعا كلاً من عمرو بن العاص، والضحاك بن قيس، وأبي الأعور السلمي، وبعض الأشخاص ممّن كان عنده خبرة في الحرب، واستشارهم بما يدور في ذهنه، فجاءه عمرو بن العاص، وكان يحب أن تكون له ولاية مصر، وقد تحالف مع معاوية في محاربة علي «عليه السلام» علىٰ أن يجعل له مصر طعمة ما بقي، فقال له:

«أرىٰ أن تبعث جيشاً كثيفاً، عليهم رجل حازم صابر صارم تأمنه وتثق به، فيأتي مصر، فيأتيه من كان علىٰ مثل رأينا فيظاهره علىٰ عدونا». فقال معاوية:

«أرىٰ أن نكاتب من بها من شيعتنا، فنمينهم ونأمرهم بالثبات... فإن كان ما أردنا بغير قتال فذاك الذي أردنا، وإلا كان حربهم من بعد ذلك. إنك يا ابن العاص امرؤ بورك لك في الشدة والعجلة، وأنا بورك لي في التؤودة»، فقال له عمرو:

١- نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ٢٥

«افعل ما ترى، فما أرى أمرنا يصير إلا إلى الحرب»؛ فبعث معاوية كتاباً إلى مسلمة بن مخلّد، ومعاوية بن خديج، وكانا مخالفين لعلي، مَدَحَهُمَا، ومجّد خلافهما علياً ﷺ بكتابه ذلك، وطلب منهم القيام للطلب بدم عثمان، وَوَعَدَهما بأن يُشركها في حكمه. وعندما وصل كتابه إليهما كتبا إليه رداً مضمونه:

«إن هذا الأمر الذي بذلنا له أنفسنا، واتبعنا به أمر الله فيه، أمر نرجوا به الثواب والنصر على من خالفنا، وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا. وأما ما ذكرت من المواساة في سلطانك، فتالله إن ذلك أمر ما له نهضنا، ولا إياه أردنا، فعجّل إلينا بخيلك ورجلك».

وعندما وصلته هذه الرسالة بعث عمرو بن العاص على ستة آلاف رجل، فخرج عمرو، وسار حتى نزل أداني أرض مصر، فاجتمعت العثمانية إليه، فأقام بهم، وكتب إلى محمد بن أبي بكر، عامل علي على مصر أنه:

«فتنحَ عنّي بدمك، فإن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، وإني لك من الناصحين».

فكتب محمد بذلك إلى علي ﴿ﷺ﴾، فكتب إليه علي ﷺ:

«فاضمم إليك شيعتك، واندب أهلك، فإني نادب إليك الناس».

ثمّ دعا أهل الكوفة لأن يستعدوا للخروج لمساعدة محمد بن أبي بكر، ولكن كان جوابهم له كعادتهم. فئة تعلقت قلوبهم بوعود معاوية، وأخرى ملّت وسَئِمت من الحرب، وثالثة كانت تطمح إلى انتصار العراق على الشام، فلمّا لم تصل إلى أمنيتها انفضّت عن إمامها، ورفضت قوله، وأمره. فقال لهم الإمام علي ﷺ:

«أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تُطع، وإذا دعوت لم تُجب، إن أُمهلتم خُضتم،

وإن حوربتم خِرتم، وإن اجتمع الناس علىٰ إمام طَعنتم. لا أباً لغيركم، ما تنتظرون بنصركم والجهاد علىٰ حقكم؟ الموت والذل لكم؟ أوَ ليس عَجيباً أن معاوية يدعوا الجفاة الطغام، فَيَتّبعونه علىٰ غير معونة ولا عَطاء، وأنا أدعوكم إلىٰ المَعونة أو طائفةٍ من العَطاء، فَتَفَرّقون عني وتَختَلفون عليَّ!؟».[١]

بعد هذه الخطبة المؤثرة، والمحزنة، وبعد الجهود التي بذلها عدد من الأصحاب الحقيقيين للإمام تَمَّ تجهيز وإعداد ألفي رجل للذهاب إلىٰ مصر، وصمّم الإمام عليه السلام علىٰ إرسال قائد مخضرم ومحنك إلىٰ مصر، وقال:

«ما لمصر إلا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلناه عنها (يعني قيساً) أو مالك بن الحارث (يعني الأشتر)».

كان الأشتر في تلك الأيام في بلدة "نصيبين"[٢]، فطلبه علي عليه السلام، وقال له:

«ليس لها غيرك. اخرج رحمك الله، فإني إن لم أوصك اكتفيت برأيك».

توَجّه الأشتر نحو مصر، فأعلم معاويةَ جواسيسُه بالأمر، فَقَلِق وعَلِم أنّ الأشترَ إذا وصل إلىٰ مصر، فسيشق الأمر علىٰ أصحابه ومؤيديه، فكتب كتاباً إلىٰ عامل خراج القلزم[٣] جاء فيه:

«إنّ الأشتر قد وَلِي مصراً، فإن أنت كفيتَنيه لم آخُذ منك خراجاً ما بقيت، فاحتل بما

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٨٠؛ الكامل، ج ٣، ص ٣٥٨.

٢- نصيبين بلدة بين دجلة والفرات، وهي اليوم تابعة إدارياً لدولة تركية.

٣- ميناء على ساحل البحر الأحمر.

قدرت عليه».

فلما وصل الأشتر إلىٰ "القلزم" ذهب إليه، ودعاه إلىٰ بيته، وأطعمه طعاماً جعل فيه السمّ. فاستشهد الأشتر علىٰ أثر ذلك. وقد حان الآن أن نتعرف علىٰ مالك الأشتر بشكل أفضل.

***

هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث من قبيلة نخع. ولقبه الأشتر، وهو لقب يقال للشخص الذي أصابه انقلاب في جفن العين، وقلمايكون خلقة.[1] ولمّا كان قد أصيب في معركة اليرموك، قيل له الأشتر.

ولد مالك قبل ظهور الإسلام، وقد عدّه ابن سعد من تابعي أهل الكوفة. ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب: «أدرك الجاهلية»، وذكر في الإصابة: «له إدراك»، ومعنىٰ هذا أنه رأىٰ رسول الله ﷺ، أو أدرك عصره، وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الأوفياء والمُضحين. كان معه في الجمل وصفين، وقد اشتبك في حرب الجمل مع عبدالله بن الزبير فأصابه عبدالله إصابة خفيفة، وهشّم الأشتر رأسه، واشتبكا بالأيدي، فأسرع جماعة من كل فريق لنصرة صاحبهم، فكان عبدالله يقول لجنود البصرة:

«اقتلوني ومالكاً»، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الأشتر باسمه، ولو أنه قال: «اقتلوني والأشتر» لقتل الأشتر.

كان مالك والياً علىٰ الجزيرة للإمام، ثم نُصب والياً علىٰ مصر. أكثر المطلعين علىٰ تاريخ الإسلام وحياة علي عليه السلام قرؤوا عهد الإمام وكتابه إلىٰ مالك الأشتر، والذي هو دستور [كامل] لإدارة البلاد، وجئت به في آخر الكتاب للمزيد من الاستفادة والاطلاع.

وقد قال معاوية بعد أن علم بمقتل مالك الأشتر:

١- لسان العرب، ذيل مادّة "شتر".م

«كان لعلي يَدَان، سَقَطَت إحداهما في صفين (عمّار بن ياسر)، والأخرىٰ في طريق الوصول إلىٰ مصر».

ولمّا أُخبر علي عليه السلام باستشهاده، قال:

«مالك وما مالك! والله لو كان جبلاً لكان فنداً[١]، ولو كان حجراً لكان صلداً، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه[٢] الطائر[٣].

وفي بعض الروايات أنه قال:

«كان مالك لي كما كنت لرسول الله».

وفي الجانب الآخر للدولة الإسلامية، اشتعلت الحرب بين محمد بن أبي بكر والعثمانيين في مصر، فتغلبوا عليه، وأردوه شهيداً، وجعلوا جسده في داخل حمار ميت، وأحرقوه. وقد كان عملهم وحشياً وقاسياً لدرجة أن عائشة لمّا سمعت الخبر بكت بشدة ولعنت معاوية وعمرو بن العاص بعد الصلاة.

وبعد أن علم علي عليه السلام بمقتل محمد أثنىٰ عليه، وكتب إلىٰ عبدالله بن العباس:

«أما بعد، فإن مصر قد فُتحت، ومحمد بن أبي بكر قد استشهد، فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً (صالحاً)، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، ورُكناً دافعاً، وقد كنت حَثَثْتُ الناس علىٰ لحاقه، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة، ودعوتهم سرّاً وجَهراً، وعَوداً وبَدءاً، فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد

١- [قال الشريف الرّضي: والفند: المنفرد من الجبال] م.

٢- [: لا يصل إليه] م.

٣- الكامل، ج ٣، صص ٢٥٢-٢٥٣؛ قصار الحكم: ٤٤٣، مع اختلاف يسير في اللفظ

خاذلاً. أسأل الله أن يجعل لي منهم فَرَجاً عاجلاً. فو الله لولا طمعي عند لقائي عدوي في الشهادة، وتَوطيني نفسي على المَنية لأحبَبتُ ألا ألقى مَع هـؤلاء يَوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً»[١].

وبهذا العمل [اغتيال مالك] اقترب معاوية من أمنيته خطوة أخرى، فالشام تحت سلطانه، وها هو يضع يده على مصر أيضاً، والآن جاء دور العراق!

مقتل محمد بأيدي حلفاء معاوية، وغلبة العثمانيين، كل ذلك لم يكن دون أثر في جيش علي ﷺ، بل جعل من معاوية في أعينهم رجلاً مدبراً وفاتحاً. وتَوَجّه أهل الدنيا نحوه أكثر من ذي قبل، لدرجة أنهم تخيلوه سياسياً حاذقاً بصيراً، وحاكماً مدبراً، ولم يَتحَرَّجوا من التصريح بهذا الاعتقاد الخاطىء، فكان من كلام له عليه السلام في [بيان حقيقة] معاويه:

«والله! ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يَغدر ويَفجر، ولولا كراهية الغَدر لكنتُ من أدهى الناس، ولكن كلُّ غَدرة فَجرة، وكلُّ فَجرَة كَفرَة، ولكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة، والله ما أُستغفل بالمكيدة، ولا أُستغمز بالشديدة»[٢].

ثمّ أرسل معاوية بسر بن أرطأة في سنة أربعين هجرية مع ثلاثة آلاف مقاتل ليستولي على اليمن، فذهب أولاً إلى المدينة التي كان عاملها لعلي هو أبو أيوب الأنصاري، فلمّا وصل بُسر إليها، خرج منها هارباً، متوجهاً إلى علي في الكوفة، فدخل بُسر المدينة، وصعد المنبر، ودعا إليه طوائف من الأنصار، ثم قال:

شيخي! شيخي! عَهِدته هٰهنا بالأمس، فأين هو؟ - يعني عثمان - ثم قال: والله لولا ما عَهِد إليّ معاوية ما تركت بها محتلماً إلا قتلته».

ثمّ هدم بالمدينة دوراً، ثمّ سار إلى اليمن، فلمّا علم علي ﷺ بفعلته صعد المنبر، وقال:

١- الكتاب ٣٥.

٢- الخطبة ٢٠٠.

« أُنبئت بُسراً قد اطلع اليمن، وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيُدالون منكم باجتماعهم علىٰ باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلىٰ صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم، فلو ائتمنت أحدكم علىٰ قصب، لخشيت أن يذهب بعلاقته. اللهمّ! إني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شرّاً مني، اللهمّ مث قلوبهم كما يُماث الملح في الماء».[١]

روىٰ البلاذري عن عبيد الله بن أبي رافع (كاتب الإمام):

قال: شهدت علياً وقد اجتمع الناس عليه حتىٰ أدموا رجله، فقال:

"اللهمّ إني قد كرهتهم وكرهوني، فأرحني منهم وأرحهم مني" [قال عبيد الله بن أبي رافع] فما بات إلا تلك الليلة.[٢]

كان علي عليه السلام يُشاهد تجرؤ[٣] معاوية وتماديه من جهة، وتراخي أصحابه وعدم مبالاتهم من جهة أخرىٰ. ثم يتذكر المسلمين في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، أولئك الذين كانت قلوبهم، وألسنتهم مع الله ورسوله واحدة، أولئك الذين ما كانوا ينظرون إلىٰ أنفسهم وعشائرهم، ولو نظروا كانوا يطلبون بذلك رضىٰ الله. والآن ينظر إلىٰ الجاهلية القديمة، وقد انبعثت من جديد، فيقول:

« فيا عجباً! وما لي لا أعجب من خطإ هذه الفرق علىٰ اختلاف حججها في دينها! لا يقتصّون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا

١- نهج البلاغة، الخطبة ٢٥.

٢- أنساب الأشراف، ص ٤٨٨.

٣- في الأصل الفارسي: «گستاخي».

يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات. المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مَفزعهم في المعضلات إلىٰ أنفسهم، وتعويلهم في المهمّات (المبهمات) علىٰ آرائهم، كأن كل امرىء منهم إمام نفسه»[١].

ويقول أيضاً:

«لقد رأيت أصحاب محمد صلىٰ الله عليه وآله، فما أرىٰ أحداً يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شُعثاً غُبراً، وقد باتوا سُجَّداً وقياماً، يُراوحون بين جباههم وخُدودهم، ويقفون علىٰ مثل الجمر من ذكر معادهم! كأن بين أعينهم رُكب المِعزىٰ من طول سجودهم! إذا ذُكر الله هَمَلت أعينهم حتىٰ تَبُل جُيوبَهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب!»[٢].

«أيها الناس! لا يجرمنكم شقاقي، ولا يستهوينكم عصياني، ولا تقرامسوا بالأبصار عند ما تسمعونه مني فو الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إن الذي أنبئكم به عن النبي الأمي ﷺ، ما كذب المبلغ ولا جهل السامع»[٣].

كان علي عليه السلام يتألم من هؤلاء الناس، ويشكو إلىٰ الله ذلك، ولو وجد شخصاً أهلاً للمسارّة كان يتحدث إليه، ومن جملة ذلك ما قاله لكميل بن زياد:

١- الخطبة ٨٨

٢- الخطبة ٩٧.

٣- الخطبة ١٠١.

« ها إن ها هنا لَعِلماً جمّاً! (وأشار بيده إلىٰ صدره) لو أصبتُ له حَمَلة! بلىٰ أصبت لَقِناً غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله علىٰ عباده، وبِحُجَجِه علىٰ أوليائه أو منقاداً لحَمَلَة الحق، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة.

ألا! لا ذا، ولا ذاك! أو منهوماً باللذة، سَلِسَ القياد للشهوة، أو مُغرماً بالجمع والادّخار، ليسا من رعاة الدين في شيءٍ، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة»[1].

ما قاله علي عليه السلام في وصف هؤلاء القوم ينطبق علىٰ الأكثرية في تلك الفترة العصيبة، وفي أكثر الأزمان:

«همج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح».

١- نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة رقم ١٤١ [في نسخة المعجم المفهرس ١٤٧].

الفصل السادس والعشرون

يتبين من مجموع الرّوايات التي نقلها المؤرخون الأوائل حول استشهاد أمير المؤمنين، ونقلها الشيعة وأهل السنة في كتبهم، أن شهادته كانت على أثر مؤامرة دبّرها الخوارج.

ويمكن الحصول على هذه الروايات باختلافات يسيرة في كتب من قبيل تاريخ الطبري، تاريخ اليعقوبي، إرشاد المفيد، طبقات ابن سعد، كتابات البلاذري والواقدي. وحاصل تلك النقول والأقوال هو أن جمعاً من الخوارج اجتمعوا وتلاقوا وبكوا على قتلاهم في معركة النهروان، وذلك بعد انتهائها، ونعتوهم بالتقوى والتعبد. ثم خلصوا إلى أن هذه الفتن التي ظهرت كان بسبب ثلاثة أشخاص: علي عليه السلام، وعمرو بن العاص، ومعاوية. وطالما بقي هؤلاء الثلاثة على قيد الحياة فلن يصلح ولن يستقيم أمر المسلمين، وتعهد ثلاثة أشخاص من ذلك الجمع بقتل هؤلاء الثلاثة:

تعهد عبدالرحمن بن ملجم المرادي بغيلة علي عليه السلام، وتعهد بُرَك بن عبد الله من بني تميم بقتل معاوية، وتعهد عمرو بن بكر من بني تميم بقتل عمرو بن العاص. متى الوقت المناسب للقيام بهذا العمل؟

قالوا: لما كان هؤلاء يأتون إلى المسجد في شهر رمضان. فليكن القيام بذلك في شهر رمضان! وعينوا الليلة الحادية عشرة أو الثالثة عشرة أو السابعة عشرة منه، أو كما هو المشهور عند الشيعة: الليلة التاسعة عشرة، لماذا؟

لأن هؤلاء الثلاثة مضطرون للمجيء إلى المسجد في الشهر المبارك.

الشخص الذي تولى قتل عمرو بن العاص قتل الشخص الذي جاء للصلاة بدلاً عنه في تلك الليلة. والذي ضرب معاوية وصل سيفه إلى فخذ معاوية فجُرِح، ونجا من الموت عن

طريق تناول الدواء. لكن ابن ملجم نفّذ عملياً ما أضمره من نية خبيثة.

ولكن!؟ هل كانت القصة بهذا الشكل فعلاً؟ يجب أن نقول أن ذلك محل تساؤل وشك. فهذه القصة تظهر عليها علامات الجعل والوضع من بدايتها. وأكبر الظن أن قصّاصاً ماهراً قام بتأليفها. يأتي هؤلاء الثلاثة إلى المسجد في شهر رمضان! والمجيء في ليلة التاسع عشر قطعي ومؤكد!.

ليس هناك ترديد ولا شك في أن علياً ضُرب في هذه الليلة بيد ابن ملجم. لكن. لماذا قَتَل الشخص الذي ذهب لقتل عمرو بن العاص شخصاً آخر بدلاً عنه، يُدعى "خارجة"؟ هل كان عمرو بالنسبة له مجهولاً. ولم يتمكن من تمييزه من غيره؟

لماذا لم يأت عمرو في تلك الليلة إلى المسجد؟ هل أعلمه أحد بالمؤامرة مسبقاً؟

ما يبدو أنه أكثر صواباً هو لزوم البحث والتحقيق عن جذور هذه المؤامرة: أولاً في الكوفة، ثمّ في دمشق!.

كان معاوية وكما أشرنا سابقاً يعلم أن وصوله للخلافة مستحيل طالما بقي علي ﷺ حياً. كما أنّ الأشعث بن قيس لم يكن يقف مع علي قلبياً. وقد أشرنا إلى ذلك أيضاً في السابق.

روى ابن أبي الدنيا المتوفى في سنة ٢٨١ هجرية قمرية، وكتاباته مقدمة على الطبري واليعقوبي في كتاب مقتل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، بأسناده عن عبد الغفار بن قاسم الأنصاري ما يلي:

«سمعت من كثيرين أن ابن ملجم قضى ليلته عند الأشعث. فلمّا صار السحر، قال له أسفر الصباح».[1]

إذا كان هؤلاء الثلاثة قد تواعدوا مع بعضهم البعض على مثل ذلك العمل، لماذا يجب أن يقضي ابن ملجم ليلته مع الأشعث في المسجد وهو يتحدث معه؟ وهل يمكن قبول فكرة أن الشخص الذي يريد اغتيال علي سراً يمكن أن يبيح بسرّه لأحد (وللأشعث أيضاً!).

١- ص ٣٦.

نقل البلاذري في كتاب أنساب الأشراف:

«قيل أن ابن ملجم كان ليلاً عند الأشعث بن قيس وكان يتحدث معه همساً إلىٰ أن قال له الأشعث:

«انهض لقد فضحك الصباح»، وسمع ذلك من قوله حجر بن عدي الكندي، فلما قتل علي قال له حجر: «يا أعور أنت قتلته»[١].

وذكر أيضاً أن الأشعث أرسل ابنه في صباح اليوم الذي ضرب فيه ابن ملجم علياً عليه السلام إلىٰ بيت علي وقال له:

انظر هو في أي حال؟ فذهب ابنه، ورجع، وقال له لقد غارت عيناه في رأسه، فقال الأشعث:

«والله إنها أعين من وصلت ضربته إلىٰ أم رأسه»[٢].

لا أريد أن أقول كما قال المؤرخ المعاصر، الإباضي المذهب، الشيخ سليمان بن يوسف بن داوود بأن الخوارج كانوا من أنصار علي، ولا علاقة لهم بقتله، وقبيلة بني مراد التي كان ابن ملجم منها ليست من قبائل الخوارج، وقصة ابن ملجم مع صاحبَيه الآخرَين هي من وضع قصّاصي معاوية، وضعت لإخفاء الحقيقة، وتَعميتها عن الناس.

وقد أوردتُ عدة إشكالات علىٰ عدد من الأماكن في كتابه في حضوره عندما كنّا في بلاد الحرمين الشريفين، وعن طريق رسالة كتبتها، وأرسلتها له.

ولكن لو قال شخص أن قصة المؤامرة التي أدّت إلىٰ استشهاد علي عليه السلام كما هي رائجة وشائعة علىٰ الألسنة (فضلاً عن الكتب) ليست صحيحة! فإنني لا أعتبر قوله بعيداً جداً عن الحقيقة.

بل وأقول أكثر من ذلك، وهو أنه من المحتمل أننا لو أمسكنا برأس هذا الخيط وتابعنا

١- أنساب الأشراف، ص ٤٩٣.

٢- مقتل الإمام أمير المؤمنين، ص ٣٧؛ طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٣٧.

حتى النهاية، فإننا سنصل إلى الأشعث في الكوفة، ومنه سنصل إلى دمشق.

ذكرنا سابقاً أن الأشعث لم يكن راضياً عن علي ﷺ، لأن علياً ﷺ رفع يده عن حكومة "كندة"، ونَعَتَه من فوق المنبر بأنه «منافق ابن كافر».

ذكر الشهرستاني في الملل والنحل:

«كان الأشعث أشد من جميع من نقم على علي، وأمرق منهم من الدين»[١]. والأعجب من أصل القصة، هو الظهور المفاجئ لامرأة باسم "قطام"، والتي تَعَلَّق بها قلب ابن ملجم بعد رؤيته لها أيما تعلق! وأعجب من قصّة قطام نفس "قطام". وفي حين أن الطبري يصفها بأنها قديسة، ويقول:

«كانت تعتكف في المسجد الأعظم، فجاءها ابن ملجم مع اثنين آخرين، وقالوا لها: عزمنا على قتل علي».

قال عنها ابن الأعثم: «امرأة مهووسة وفاجرة بغية، قال:

جاء علي إلى الكوفة بعد أن انتهى من حرب الخوارج، وكان ابن ملجم قد سبقه إلى الكوفة يُبشّر الناس بقتل الخوارج، ثم وصل إلى بيتٍ سمع منه صوت الطبل والطنبور، فلم يرض بذلك، فسأل عن ذلك فقيل له: «في هذا البيت وليمة عرس»، فنهى الناس عن الطبل والطنبور، فخرجت النسوة من البيت، وكان بينهن واحدة تدعى "قطام" بنت الأصبغ التميمي، وكانت امرأة جميلة، فلما رآها عبدالرحمن[٢] ورأى هيأتها ومشيتها أعجبته، فسار خلفها، وقال لها:

- أمتزوجة أنت أم لا؟

- لا، لست متزوجة!

- ألا تريدين زوجاً يوافق ميلك من كلّ جهة؟

- بلى أنا بحاجة لزوج كما وصفت! ولكن لي أولياء ولا بدّ من مشورتهم، فاتبعني!

مشى ابن ملجم خلفها إلى أن وصل بيتاً فدخلت فيه ثمّ لبست أجمل ثيابها، وقالت للخادم قل لهذا الرجل أن يدخل وإذا دخل فأرخ الستائر. فدخل ابن ملجم البيت، ورأى قطام في تلك الحالة وأسدلت الستائر. سأل ابن ملجم:

- هل تمّ الأمر كما تحب؟

- وافق أولياني بشرط أن تمهرني ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة!

- قبلتُ!

- هناك شرط آخر.

- أي شرط؟

- قتل علي بن أبي طالب!

فقال ابن ملجم

- إنا لله وإنا إليه راجعون، ومن يقدر على قتل علي وهو وحيد دهره في الشجاعة والبسالة؟!

- لا تهتم لذلك، أنا لا أريد مالاً، ولكن لا بدّ من قتل علي لأنه قتل أبي!

- إذا قبلتِ بضربة واحدة فأنا موافق!

- قبلتُ، ولكن عليك أن ترهن سيفك عندي!

وضع ابن ملجم سيفه عندها وذهب إلى بيته.

ثمّ وصل علي عليه السلام إلى الكوفة، وذهب الناس إليه مهنئين بانتصاره على الخوارج، فدخل علي عليه السلام المسجد الأعظم وصلى فيه ركعتين، ثمّ صعد المنبر وخطب خطبة بليغة، وبعدها التفت إلى الحسن عليه السلام وقال له كم بقي من شهر رمضان ؟

- سبعة عشر يوماً.

فمسح بيده على لحيته التي ابيضت من الشيب ، وقال:

- والله سيخضبها بالدم أشقى الناس، وتمثل بشعر أنبأ فيه عن مقتله بيد رجل من مراد.

فلمّا سمع ابن ملجم ذلك تقدم نحوه وقال له:

- يا أمير المؤمنين! معاذ الله، هذه يميني وشمالي فاقطعهما أو اقتلني.

فقال علي عليه السلام كيف أقتلك ولم ترتكب ذنباً؟! ما تمثلت به من شعر لا أعنيك به، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني أن قاتلي من بني مراد، ولو علمت أنك قاتلي لقتلتك![1]

لم يأت مثل هذا التفصيل في أي كتاب أو تذكرة من المصادر التي تعد مصادر من الدرجة الأولى. ويبدو لنا أن ما كُتب وذُكر في الكتب التي جاءت بعده أُخذ منه.

علامة، بل علامات جعل واختلاق القصة التي تُشاهد فيها بوضوح هي:

* وصل ابن ملجم إلى الكوفة قبل علي عليه السلام، وبشّر أهلها بقتل الخوارج!

أين كان ابن ملجم نفسه؟ هل كان مع الخوارج أم مع علي عليه السلام؟ فإذا كان مع الخوارج، فيجب أن يكون مقتولاً أو فارّاً! وإذا كان في جيش علي، فلا بُدَّ أن يكون منافقاً!! لكن احتمال الكذب والنفاق بالنسبة للخوارج ضعيف جداً، لأنهم لو كانوا من أهل الكذب والمداهنة لما عرّضوا أنفسهم للقتل والإبادة؛ وإذا كان من الخوارج، فكيف يُبَشّر الناس بقتل الخوارج!؟.

* أُعجب ابن ملجم بجمال قطام فسار خلفها!.

لا بدَّ أن نتساءل: المرء الذي غامر بنفسه وروحه، وهو بصدد مؤامرة كبيرة كهذه، كيف حان له الوقت المناسب للعشق والزواج!!؟

كما أن هناك إشكالات عديدة أغضّ الطرف عنها.

* قول علي: «لو كنت أعلم أنك قاتلي لقتلتك».

كيف يقتل علي شخصاً لم يرتكب جريمة قتل؟!

١- تاريخ ابن الأعثم، ج ٤، صص ١٣٣-١٣٦.

* جاء في الكتاب المذكور أن ابن ملجم نام مخموراً سكراناً في بيت قطام، فأيقظته قطام، وقالت له:

«إنه وقت الأذان، اذهب واقض حاجتنا، وارجع فرحاً جذلاناً».[١]

وزاد مترجم الكتاب إلى الفارسية قائلاً:

« قضينا حاجتك، فقم أنت أيضاً، واقض حاجتنا، ثم ارجع وعاشرنا»[٢]

يجب أن نتساءل هنا: كيف سمحت قطام في تلك الليلة لرجل غريب أن ينام في بيتها؟ وهل سمح لها كبار قومها بذلك؟ وهل من المعقول أن ينام ابن ملجم مخموراً وهو بصدد القيام بمثل ذلك العمل الخطير؟!.

أمّا البلاذري فروى في إحدى رواياته ما يلي:

دخل ابن ملجم الكوفة، وأخفى أمره، ثم تزوّج قطام بنت علقمة، وبقي عندها ثلاثة ليال، فقالت له في الليلة الثالثة:

لو أنّ قلبك يتعلق ببيتك وزوجتك، وتنصرف عمّا جئت لأجله!. فقال:

«إنّ لي وقتاً واعدت عليه أصحابي، ولن أتجاوزه».[٣]

يؤيد مجموع هذه التناقضات أصل وأساس كون القصة موضوعة ومجعولة، وكأن الواضع جَعَل ووَضَع قصة قطام، ثم ربطها بعمل أولئك الثلاثة لكي تستقر في الأذهان أكثر وأفضل.

وقد أتيت بكل هذه التفاصيل لأجل أن أثبت:

من جهة أن هذه القصة بالشكل المذكور والذي حُكيت فيه ليس لها أساس أصلاً.

١- نفس الكتاب، ص ١٣٩

٢- ترجمه الفتوح، ص ٧٥١.

٣- أنساب الأشراف، ص ٤٨٨.

ومن جهة أخرىٰ لبيان أن القدماء كانوا يكتفون بنقل القصة، ولا يتعرضون لنقدها وتمحيصها.

إنني أعرف أن القصة التي رسخت في الأذهان مدة تزيد علىٰ ثلاثة عشر قرناً لا تزول بمجرد هذه الإشارات المذكورة هنا، وهذا النقد والتمحيص. ولا أتوقع أن يتخلىٰ الناس عن تلك الإعتقادات والأفكار والآراء [المأخوذة من هذه القصة المجعولة] ويصبح اعتقادهم علىٰ ما أرىٰ. أما الآن وقد أخذت كتابة التاريخ منحىً ومسلكاً آخر فمن الأفضل أن نعيد النظر في جميع كتابات السابقين، وليس فقط في هذه القصة.

انتقل علي ﷺ إلىٰ لقاء الحق تعالىٰ في شهر كان قد قَسَّم إفطاره فيه: ليلة عند ابنه الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر: يُفطر ولا يَتناول أكثر من لقمتين أو ثلاث لقمات. فكان يسئل لماذا تكتفي بهذا المقدار القليل من الطعام؟ فيجيب:

«إنما هي ليالٍ قلائل، يأتي أمر الله، وأنا خميص»[1]

١- كنز العمّال، عن جعفر بن أبي طالب، ج ١٣، ص ١٩٠.

الفصل السابع والعشرون

تفاصيل كيفية الضربة التي تعرّض لها الإمام ليست واحدة في كتابات المؤرخين القدماء. ففي حين ذكر الطبري وابن سعد وآخرون:

« لمّا خرج علي من السدّة التي يخرج منها ضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف».

يقول اليعقوبي الذي كتب تاريخه قبل هؤلاء:

«وأما عبد الرحمن بن ملجم، فإنه وقف له عند المسجد، ... وأدخل رأسه من باب خوخة المسجد، وضربه على رأسه».

لكن ما ذكره ابن الأعثم المعاصر للطبري يخالف هؤلاء، ويوافق المشهور لدى الشيعة، ذكر ابن الأعثم:

تناول ابن ملجم سيفه وأتى المسجد، ونام فيه مع من كان نائماً. ثمّ جاء علي وأذّن ودخل المسجد يوقظ النائمين للصلاة، ثمّ ذهب إلى المحراب ووقف فيه وبدأ بالصلاة ثمّ ركع وسجد فلمّا رفع رأسه من السجدة الأولى ضربه ابن ملجم على رأسه فجاءت ضربته في نفس المكان الذي ضربه عليه عمرو بن ود في واقعة الخندق، ولاذ ابن ملجم بالفرار، وسقط علي عليه السلام في المحراب وتصايح الناس قتل أمير المؤمنين.[1]

روى البلاذري عن الحسن بن بزيع:

«أنّ علياً خرج [في] الليلة التي ضرب في صبيحتها في السحر فلمّا ضربه ابن ملجم، قال: "فزت ورب الكعبة"

١ - تاريخ ابن الأعثم، ج ٤، صص ١٣٩-١٤٠

وكان آخر ما تكلّم به:

﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾[١]»[٢].

وتتفق الروايات الشيعية، وبعض روايات أهل السنة أيضاً مع ما ذكره ابن الأعثم.

نُقِل الإمام من المسجد إلى البيت، ولم يمض وقت طويل حتى ألقي القبض على ابن ملجم، وأُحضر إلى الإمام، فقال له:

- «ابن ملجم؟».

- «نعم!».

- «يا حسن! شأنك بخصمك، فأشبع بطنه، واشدد وثاقه، فإن متّ فألحقه بي لأخاصمه عند ربي، وإن عشت فعفواً أو قصاص».

وذكر ابن سعد أنه قال:

-«انه أسير فأحسنوا نزله وأكرموا مثواه» وذكر أيضاً أنه لما بايع الناس علياً جاءه ابن ملجم مرتين والإمام لا يقبل منه ويدفعه عنه ثم قال سمعت من رسول الله أنه يخضب هذه من هذه (أي لحيته من مفرق رأسه).

وطلب الإمام في آخر لحظات حياته أبناءه، وأوصاهم:

«أُوصيكما بتقوى الله، وألاّ تبغيا الدّنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيءٍ منها زوي عنكما، وقولا بالحقّ، وآعملا للأجر، وكونا للظّالم خصماً، وللمظلوم عوناً.

أوصيكما، وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي، بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإنّي سمعتُ جدّكما - صلّى الله عليه وآله وسلّم - يقول:

١- الزلزلة/٩٩: ٧-٨.

٢- أنساب الأشراف، ص ٤٩٩.

«صلاح ذات ألبين أفضل من عامّة الصّلاة والصّيام».
أللّه أللّه في ألأيتام، فلا تُغِبُّوا أفواههم، ولا يَضِيعُوا بحضرتكم.
وأللّه أللّه في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتىّ ظَنَنَّا أنّه سيُوَرِّثُهم.
وأللّه أللّه في ألقرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم.
وأللّه أللّه في الصّلاة، فإنّها عمود دينكم.
وأللّه أللّه في بيت ربّكم، لا تُخلُوه ما بقيتم، فإنّه إن تُرك لم تُناظروا.
وأللّه أللّه في ألجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل أللّه.
وعليكم بالتّواصل والتّباذل، وإيّاكم والتّدابر والتّقاطع، لا تتركوا ألأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فيُولّىٰ عليكم شراركم ثمّ تَدعون فلا يُستجاب لكم».

ثم قال:

«يا بني عبد ألمطلب، لا أُلفينّكم تخوضون دِماء ألمُسلمين خَوضاً، تَقولون: «قُتل أمير ألمؤمنين». ألا لا تَقتُلنّ بي إلاّ قاتلي.

أنظروا إذا أنا متُّ من ضَربتِه هذه، فاضربوه ضَربةً بضَربةٍ، ولا تُمثّلوا بالرّجل، فإنّي سمعت رسول ألله - صلىّ أللّه عليه وآله وسلّم - يقول:

«إيّاكم والمُثلة ولو بالكلب ألعقور».

وشيئاً فشيئاً تحققت أمنيته واقترب مما كان يريده، وهو الطالب للشهادة من قديم الأيام، والذي كان يقول:

«اللهمّ أبدلني خيراً منهم وأبدلهم شرّاً مني!».

انتقل عليٌّ عليه السلام إلى لقاء الحق، وفقدت العدالة حارساً وحافظاً أميناً ومقيماً لها، ومجاهداً فيها، وبقيت دون ناصر ولا معين واجترأ الأوباش عليها من كل مكان، كلٌّ يختطف ما

وسعه منها إلىٰ أن لم يبق منها شيء، واغتصب الظلم مكانها، ولا يزال غاصباً مهيمناً علىٰ مكانها إلىٰ أن يشاء الله أن تمتلأ الأرض عدلاً وقسطاً، بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً.

وبعد أن ووري الثرىٰ، صعد الإمام الحسن عليه السلام المنبر وقال:

«يا أيها الناس! لقد فارقكم أمس رجل ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون. لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يبعثه المبعث فيعطيه الراية فما يرد حتىٰ يفتح الله عليه، إن جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، ما ترك صفراء ولا بيضاء، إلا سبعمائة درهم فضلت عن عطائه، أراد أن يشترى بها خادماً.»[1]

وفضلاً عن الوصية القصيرة التي تقدمت، تُشاهد وصايا أخرىٰ أيضاً في الأسناد القديمة. بعضها قبل ضربته، وبعضها بعد ضربته، بعد أن عرف أنه ملاق ربه.

وقد أورد القاضي محمد بن سلامة المعروف بـ«القضاعي» المتوفىٰ سنة ٤٠٥ هجرية في مجموعة من كلام علي عليه السلام أسماها «دستور معالم الحكم» أورد هذه الوصية عن الإمام عليه السلام. لما ضربه ابن ملجم، دخل عليه الإمام الحسن باكياً، فسأله:

ما يبكيك يا بني؟ فقال له ما لي لا أبكي وأنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا. فقال له: يا بني احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت بهنّ شيء: قلت: وما هنّ يا أبه؟ قال: إن أغنىٰ الغنىٰ العقل، وأكثر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العُجب، وأكرم الحسب حسن الخلق. قلت يا أبه: هذه أربع، فأعطني الأربع، قال: يا بني وإياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه يُقرّب عليك البعيد ويبعد عليك القريب، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد بك عن أحوج ما تكون إليه، وإياك ومصادقة الفاجر فانه يبيعك بالتافه.

كما أورد هذه الوصية أيضاً في مجموعته:

لَمَّا ضُربَ أميرُ المؤمنينَ عَلَيه السَّلام اِجْتَمع إليه أهْلُ بَيْته وَجَماعةٌ مِن خاصَّة أصحابه،

١- طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٢٦.

فقال:

«الحمد لله الذي وَقّت الآجال[١] وَقدّر أرزاق العباد، وَجَعل لِكلّ شيْ قَدراً، وَلم يُفرّط في الكتاب من شيْ. فقالَ: «أينما تكونوا يُدرككُمُ المَوْتُ وَلو كُنتُم في بُروج مُشيّدة»[٢]. وقالَ عزّ وَجلّ: «قُل لوْ كُنتُم في بُيُوتكم لَبرزَ الّذين كُتبَ عليهمُ القتلُ إلىٰ مضاجعهم»[٣]. وقال عزّوَجلّ لنبيّه ﷺ: «وَأمُرْ بالمعرُوف، وَانْه عن المنكر، وأصبر عَلىٰ ما أصابك، إنّ ذلك من عَزم الأمُور»[٤]. لَقد خبّرني حبيبُ الله وَخيرتُهُ من خلقه، وَهُوَ الصّادقُ المصدق عن يومي هذا، وَعَهد إليّ[٥] فيه، فَقال: يا علي! كيف بك إذا بقيت في حُثالة[٦] مِن النّاس تدعُو فلا تُجاب، وتنصَحُ عَن الدّين فلا تُعانُ، وَقدْ مَالَ أصحابُك، وَشنف لك نُصحاؤك[٧]. فكان الّذي مَعَك أشَدَّ عليك من عَدُوّك، إذا أستنهضتهم صَدُّوا مُعرضين، وَإن أستحثثتهُم[٨] أدبَرُوا نافرين، يتمنّوْن فقْدَك لما يَرونَ من قيامك بأمر الله عزّوَجلّ وصرْفك إيّاهُم عَن الدُّنيا، فَمنهُم مَن قد حَسَمت طمعهُ[٩]. فَهُوَ كاظمُ عَلىٰ غيظه، وَمنهُم من قَتَلت أُسْرَتَهُ[١٠] فَهُوَ ثائرٌ[١١] مُترَبصٌ[١٢] بك ريبَ المنُون، وَصُرُوفَ ألنّوائب، وَكلُّهُم نَغِلُ الصّدر[١٣]

١- أي جعل لكل أجل وقتاً محدداً إذا جاء لا يستأخر صاحبه ساعة ولا يستقدم، قال الله تبارك وتعالى: «إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

٢- النساء / ٤: ٧٨.

٣- آل عمران /٣: ١٥٤.

٤- لقمان /٣١: ١٧.

٥- أي أوصاني.

٦- أي في قوم من الناس لا خير فيهم.

٧- أي تنكروا لك، وأعرضوا عنك كل الإعراض.

٨- أي حضضتهم علىٰ تأييدك ونصرك.

٩- أي قطعته وأزلته.

١٠- أي رهطه الأقربون الذين يتقوىٰ بهم.

١١- أي طالب للثار.

١٢- أي منتظر.

١٣- أي حاقد عليك متغيظ منك.

مُلتهبُ الغَيظ، فلا تَزال فيهم كذلك حتىٰ يقتُلوك مَكراً أوْ يُرهقُوك شَرّاً[١]، وسيسمُّونك بأسْماءٍ قَدْ سَمَّوني بها، فقالُوا كاهنٌ، وقالُوا ساحرٌ، وقالُوا كذَّابٌ مُفترٍ، فاصبر فإنَّ لَك فيَّ أُسْوةً[٢] وَبذلك أمَرَ اللهُ إذ يقُولُ: «لَقدْ كانَ لَكم في رسولِ اللّه أسوة حَسَنَة»[٣]، يا علي! إنَّ اللّه عَزّوَجَلَّ أمرني أنْ أُدنيك وَلا أُقصيكَ وَأن أُعلّمك وَلا أُهمِلك وَأن أُقرِّبك وَلا أجفُوك، فهذه وَصيّتُهُ إليَّ وَعَهدُهُ لي.

ثُمَّ إنّي أُوصيكُم أيُّها النَّفرُ الّذينَ قاموا بأمر اللّه وذبُّوا عَن دين اللّه وَجَدُّوا في طَلَب حُقُوق الأَرامل وَالمَساكين. وأُوصيكُم بَعدي بالتَّقوىٰ وَأُحَذِّرُكم الدُّنيا والاغترارَ بزبرجها وَزُخرُفها[٤] فإنّها متاعُ الغُرُور، وَجانبوا سبيلَ من رَكنَ إليها، وَطمستِ الغفلةُ عَلىٰ قُلُوبهم حتّىٰ أتاهُم منَ اللّه ما لم يحتَسبُوا، وأُخذُوا بغتَةً وَهم لا يشعُرون وَقَد كان قبلكُم قَومٌ خلفوا أنبياءَهُم باتباع آثارهم فإن تمسّكتُم بهديهم وَاقتديتُم بِسنتهم لم تضلُّوا إنّ نبي اللّه ﷺ خلَّف فيكُم كتاب اللّه وَأهل بيته، فعندهُمْ عِلم مَا تأتُون وَمَا تتَّقُون[٥]. وَهُمُ الطّريقُ الواضح وَالنُّورُ اللائحُ، وَأركانُ الأَرض القَوّامُون بالقسط[٦]، بِنورهم يُستضاءُ، وَبهديهم يُقتدىٰ مِن شَجرةٍ[٧] كَرُمَ منتبذها فثبت أصلُها وَبَسَق فرعُها[٨]

١- أي يكلفوك إياه.

٢- أي لك فيَّ قدوة، ومعناه انظر إلىٰ صبري علىٰ ما أصابني من قريش واقتد بي في ذلك.

٣- الأحزاب/٣٣: ٢١.

٤- أي بزينتها وبهجتها، يعني لا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا تنظروا إليها نظر المعجب بها إذا أخذت زخرفها وازّينت، فإن جميع ما ترون من ذلك صائر للزوال.

٥- أي ما تحذرون.

٦- أي العدل.

٧- المراد بالشجرة هنا النخلة.

٨- أي طال فرعها وارتفع إلىٰ السماء.

وطاب جناها[1] نبتتْ في مُستقر الحرم، وسقيت ماءَ الكَرم، وَصَفتْ من الأقذاء[2] والأدْناس وَتُخيِّرت مِن أطيب مواليد النّاس، فلا تَزولوا عنهم فتفرّقوا[3] والزمُوهُمْ تَهتَدُوا وَتَرشُدُوا، وأخلُفوا رَسول اللّهﷺ فيهم بأحسن الخلافة. فقد أخبركم: «أنّهما لن يفترقا حتّى يَرِد[ا] عليّ الحوض» أعني: كتاب اللّه وذُريتهُ.

أستودعكُمُ اللّه الّذي لا تضيعُ وَدائعُهُ، بَلّغَكُم اللّهُ ما تأمُلُونَ، وَوَقاكُم مَا تحذرون، إقرؤُوا علىٰ أهل مَوَدّتي السّلام، والخلف وَخَلف الخلف، حفظكُمُ اللّه وَحفظ فيكم نبيكم والسّلامُ.»[4]

❊ ❊ ❊

وصل عليﷺ إلىٰ أمنيته كما كان يريد وانتقل إلىٰ جوار ربه، وتخلص من إيذاء أعدائه المتظاهرين بصداقته، واستقرّ في رحمة الحق؛ وحصل معاوية علىٰ ما كان يريده. وصار العراق لُقمة سائغة له يجب أن يعُض عليه مدة بأسنانه، ثم يبتلعه ويهضمه. لكنه لم يكتف بهذا، وكأنه كان يمتلىء رعباً وذعراً من ذكريات عليﷺ في أذهان أصحابه الأوفياء، فيجب أن يزيل هذه الذكريات، أو علىٰ الأقل أن يمحو أثر قداسته. فهيأ وجمع عملاء حمق ومأجورين، وقال لهم:

"اجعلوا ما أمكنكم من الأحاديث في مديح عثمان، وذمّ علي، وانشروها بين الناس" وفعل هؤلاء ما شاء لهم، وأبعدوا القلوب المتزلزلة عن عليﷺ بالأحاديث المكذوبة والمجعولة.

١- أي طاب ثمرها.

٢- الاقذاء جمع قذى، وهو ما يسقط في العين والشراب.

٣- أي تفترقوا فتذهب قوتكم.

٤- [المصدر المذكور في المتن]، صص ٨٩ - ٩٠.

ولو أنّ شخصاً دقّق جيداً في الأحاديث العادية لأهل دمشق بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر قرناً لسمع آثار الدعاية المعادية التي لا تزال باقية علىٰ شكل أمثال وعبارات دارجة.

وقد ذكرت في أحد كتبي[1] أن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس أرسل جمعاً من مشايخ الشام إلىٰ السفّاح، وكتب له أن هؤلاء من عقلاء وعلماء هذه البلاد وجميعهم يحلفون أن:

«لم نكن نعلم أن لرسول الله ﷺ أرحاماً يرثون منه غير بني أمية حتىٰ وَلِيتُم أنتم».

لو اعتَبَرنا هذه القصّة التي ذكرها غرس النعمة في كتابه من اللطائف والطرائف، فإننا نرىٰ أناساً في التاريخ، وعلىٰ أثر دعاية عملاء معاوية من البداية لم يكن لديهم أي معرفة صحيحة بأمير المؤمنين، لذا كانوا يناصبونه العداء، وحينما تعرفوا علىٰ منزلته وفضائله صاروا من محبيه وعشّاقه.

نقرأ في سيرة حياة ياقوت الحموي أنه كان من أعداء علي، ولكن القَدَر شَدَّه إلىٰ أن يتعرف علىٰ فضائل علي ﷺ إلىٰ أن وصل به الأمر ليكتب:

خيراته كثيرة، وفضائله ظاهرة، وإذا أردنا أن نجمعها جميعها ونكتب من خلاصتها وزبدتها كتاباً فسوف يكون أضخم من مجموعة كتابنا معجم الأدباء.

أجل! المصباح الذي أوقده الله تعالىٰ لا يَخبو اشتعاله من نَفَس بارد سقيم لهذا وذاك، بل في كل آن يزيد الله من توقده وتوهجه. ومع مرور الزمان تتسرب محبة علي إلىٰ أعماق القلوب، ونغم الشهادة بولايته يُطرب آذان شيعته ومحبيه صباحاً وظهراً ومساءً.

١- زندگاني امام علي بن الحسين (بالفارسية)، ص ٦٥. النسخة العربية تحت عنوان: حياة الإمام علي بن الحسين (ع)، منشورات دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

الفصل الثامن والعشرون

وصيته للحسن(ع)

الآن وقد قارب كتاب شرح حياة إمام الأتقياء على النهاية، رأيت أن أضيف عليه وثيقتين مهمتين، مع أنه قد تكررت طباعتهما في ترجمة كتاب نهج البلاغة[١] وغيره:

إحداهما: وصية الإمام لابنه الحسن المجتبى(ع)، وهي مليئة بالمواعظ والنصائح، وقد أوصاه بها في أواخر عمره الشريف.

والأخرى: هي كتابه المعروف والمشهور إلى مالك الأشتر.

***

وصيته* لابنه الحسن بن علي - عليهما السلام - كتبها «بحاضرين»[٢] عند انصرافه من صفّين:

١- إشارة إلى الترجمة التي قام بها المؤلف المحترم لكتاب نهج البلاغة الذي يشتمل على خطبٍ وكتبٍ وحكم للإمام علي(ع) قام بجمعها الشريف الرضي (المترجم).

*- شرح وتوضيح بعض الكلمات الصعبة هو من استخراج المترجم اعتماداً على الشروح المشهورة للنهج ولاسيما شرح المرحوم صبحي الصالح.

٢- حاضرين: اسم بلدة في نواحي صفيّن.

من ألوالد ألفان، ألمُقرّ للزّمان[١]، ألمُدبر ألعُمر، ألمُستسلم للدنيا السّاكن مساكن ألموتى، وألظاعن عنها غداً، إلىٰ ألمَولود ألمُؤمّل ما لا يُدرك، ألسّالك سبيل من قد هلك، غَرَض[٢] ألأسقام ورهينة[٣] ألأيّام، ورَميّة[٤] ألمصائب، وعبد ألدّنيا، وتاجر ألغرور، وغريم ألمنايا، وأسير ألموت، وحليف ألهموم، وقرين ألأحزان، ونُصُب ألآفات[٥]، وصريع[٦] ألشّهوات، وخليفة ألأموات.

أمّا بعد، فإنّ فيما تَبَيَّنتُ من إدبار ألدّنيا عنّي، وجُموح ألدّهر[٧] عليّ، وإقبال ألآخرة إليّ ما يَزَعُني[٨] عن ذكر من سواي، وألاهتمام بما وراني[٩] غير أنّي حيث تفرّد بي دون هموم ألنّاس همّ نفسي، فَصَدفَني[١٠] رأيي، وصرفني عن هواي، وصرّح لي محض أمري[١١] فأفضىٰ بي إلىٰ جِدٍّ لا يكون فيه لعب، وصدق لا يشوبه كذب (كدر)؛ ووجدتك بعضي، بل وجدتك كلّي، حتّىٰ كأنّ شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنّ ألموت لو أتاك أتاني، فَعَنَاني من أمرك ما يَعنيني من أمر نفسي، فكتبت إليك

١- المقّر للزمان: المعترف له بالشدّة.

٢- غرض الأسقام: هدف الأمراض ترمي إليه سهامها.

٣- الرهينة: المرهونة أي أنه في قبضة الأيام وحكمها.

٤- الرميّة: ما أصابه السهم.

٥- لا تفارقه العلل، وهو من قولهم: فلان نُصُب عيني: أي لا يفارقني.

٦- الصريع: الطريح.

٧- جموح الدهر: استقصاؤه وتغلبّه.

٨- يَزَعني: يكفّني ويصدّني.

٩- ما وراني: كناية عن أمر الآخرة.

١٠- صدفه: صرفه.

١١- محض الأمر: خالصه.

كتابي مستظهراً به[١] إن أنا بقيت لك أو فنيت.

فإنّي أُوصيك بتقوى ٱللّه - أي بنيّ - ولزوم أمره، وعِمارة قلبك بذكره، وٱلاعتصام بحبله؛ وأيُّ سببٍ أوثقُ من سببٍ بينك وبين ٱللّه إن أنت أخذْتَ به!.

أحيِ قلبك بالموعظة، وأمِته بالزّهادة، وقوِّه باليقين، ونوِّره بالحكمة، وذلِّله بذكر الموت، وقرِّره بالفناء[٢]، وبصِّره[٣] فجائع[٤] الدّنيا، وحذِّره صولة الدّهر وفحش تقلُّب اللّيالي والأيام، وأعرض عليه أخبارَ ٱلماضين، وذكِّره بما أصاب مَن كان قبلك من ٱلأوّلين، وسِر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعمّا ٱنتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا! فإنّك تجدهم قد ٱنتقلوا عن الأحبة، وحلّوا ديار (دار) ٱلغربة، وكأنّك عن قليل قد صِرتَ كأحَدِهم؛ فأصلح مثواكَ، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودَعِ ٱلقول فيما لا تعرف، وٱلخطاب فيما لم تُكلَّف؛ وأمسك عن طريقٍ إذا خِفتَ ضَلالَته، فإنَّ ٱلكفَّ عند حيرة الضّلال خيرٌ من رُكوب ٱلأهوال، وأمُر بالمَعروف تكُن من أهله، وأنكر ٱلمُنكر بيدكَ ولسانك، وبايِن[٥] مَن فَعَلَه بجُهدِك، وجاهِد في ٱللّه حقَّ جهاده، ولا تأخُذك في ٱللّه لومةُ لائم. وخُضِ الغَمرات[٦] للحقّ حيث كان، وتفقّه في الدّين، وعوِّد نفسك التّصبّر (الصّبر) علىٰ ٱلمكروه، ونِعمَ ٱلخُلُق التّصبُّر في الحقّ! وألجىء نفسك في أمورك كُلِّها إلىٰ إلهك، فإنّك تُلجئها إلىٰ كهفٍ[٧] حريزٍ[٨]. ومانع

١ - مستظهراً به: أي مستعيناً به.

٢ - قرّره بالفناء: اطلب منه الإقرار بالفناء.

٣ - بصّره: اجعله بصيراً.

٤ - الفجائع: جمع فجيعة، وهي المصيبة تفزع بحلولها.

٥ - باين: أي باعد وجانب.

٦ - الغمرات: الشدائد.

٧ - الكهف: الملجأ.

٨ - الحريز: الحافظ.

عزيز. وأخلص في المسألة لربِّك، فإنّ بيده العطاء والحرمان، وأكثِر الاستخارة[١]، وتَفَهَّم وَصِيّتي، ولا تَذهَبَنَّ عنك صَفحاً[٢]، فَإنَّ خير القول ما نَفَع. واعلم أنّه لا خير في علمٍ لا ينفع، ولا يُنتفعُ بعلم لا يَحِقُّ[٣] تَعَلُّمُه.

أي بُنَيّ، إنّي لمّا رَأيتُني قد بَلَغت سِنّاً[٤]، ورأيتُني أزداد وَهناً[٥]، بادَرت بوصيّتي إليك، وأوردت خصالاً منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أفضي[٦] إليك بما في نفسي، أو أن أُنقص في رأيي كما نُقِصْتُ في جسمي، أو يَسبقني إليك بعضُ غَلَبات الهوى وفِتَن الدّنيا، فتكون كالصَّعب[٧] النَّفور[٨]. وإنّما قلبُ الحَدَث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيءٍ قَبِلَته. فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبُك، ويَشتَغل لُبُّك لتَستَقبل بِجِدِّ رَأيك[٩] من الأمر ما قد كفاك أهل التّجارب بُغيَته[١٠] وتجربته، فتكون قد كُفيت مؤونة الطّلب، وعوفيت من علاج التّجربة، فأتاك من ذلك ما قد كُنّا نأتية، واستبان[١١] لك ما ربّما أظلم علينا منه.

أي بنيّ، إنّي وإن لم أكن عُمّرت عُمُرَ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم،

١- الاستخارة: إجالة الرأي في الأمر قبل فِعله لاختيار أفضل وجوهه.

٢- صفحاً: جانباً.

٣- لا يحِق: أي لا يكون من الحق.

٤- بلغت سناً: أي وصلت النهاية من جهة السن.

٥- الوهن: الضعف.

٦- أُفضي: أُلقي إليك.

٧- الفرس الصعب: غير المذلل.

٨- النَّفور: ضد الآنس.

٩- جدّ رأيك: أي محقّقه وثابته.

١٠- كفاه بغية الشيء: أغناه عن طلبه.

١١- استبان: ظهر.

وفكّرتُ في أخبارهم، وسِرتُ في آثارهم، حتّىٰ عُدتُ كأحدهم بل كأنّي بما انتهىٰ إليّ من أمورهم قد عُمّرت مع أوّلهم إلىٰ آخرهم، فعرفتُ صَفْوَ ذلك من كَدَرِه، ونَفعه من ضرره فاستخلصتُ لك من كُلِّ أمرٍ نَخيلَه (جَليلَه)[١]، وتَوَخَّيتُ[٢] لك جميله، وصرفتُ عنك مجهوله، ورأيت حيث عناني من أمرك ما يَعني الوالد الشَّفيق، وأجمعت عليه[٣] من أدبك أن يكون ذلك وأنت مُقْبِلُ العُمُر ومُقتَبَلُ[٤] الدّهر، ذو نيّة سليمة، ونفسٍ صافيةٍ، وأن أبتدئك بتعليم كتاب اللّه عزّوجلّ وتأويله، وشرائع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، لا أجاوز[٥] ذلك بك إلىٰ غيره. ثمّ أشفقتُ[٦] أن يَلتبس عليك ما اختلف النّاس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل الّذي التبس[٧] عليهم، فكان إحكام ذلك علىٰ ما كرهت من تنبيهك له أحبَّ إليّ من إسلامك إلىٰ أمر لا آمن عليك به الهلكة[٨] ورجوتُ أن يُوَفِّقك اللّه فيه لرشدك، وأن يهديك لقصدك، فعهدت إليك وصيّتي هٰذه.

واعلم يا بنيّ أنّ أحبَّ ما أنت آخذٌ به إليّ من وصيّتي تقوىٰ اللّه والاقتصار علىٰ ما فرضه اللّه عليك، والأخذُ بما مضىٰ عليه الأوّلون من آبائك، والصّالحون من أهل

١- النخيل: المختار المصفىٰ.

٢- توخيّت: أي تحريّت.

٣- أجمعت عليه: عزمت.

٤- مُقتَبل من اقتبل الغلام فهو مقتبل. وهو من الشواذ، والقياس مقتبِل بكسر الباء لأنه اسم فاعل. ومقتبل الإنسان: أول عمره.

٥- لا أجاوز ذلك: لا أتعدىٰ بك.

٦- أشفقت: خشيت وخفت.

٧- التبس: غمض.

٨- الهلكة: الهلاك.

بيتك، فإنّهم لم يَدَعوا[١] أن نَظَروا لأنفسهم كما أنت ناظرٌ، وفكّروا كما أنت مفكّر، ثمّ ردّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عمّا لم يُكلّفوا، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهُّم وتعلُّم، لا بتورّط الشبهات، وعُلَق (علوّ) الخصومات. وابدأ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك، والرّغبة إليه في توفيقك، وترك كل شائبةٍ[٢] أولجتك[٣] في شبهة أو أسلمتك إلى ضلالةٍ؛ فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع، وتمّ رأيك فاجتمع، وكان همّك في ذلك همّاً واحداً، فانظر فيما فسّرت لك، وإن لم يجتمع لك ما تحبّ من نفسك، وفراغ نظرك وفكرك، فاعلم أنّك إنّما تخبط العشواء[٤]، وتتورّط[٥] الظلماء، وليس طالب الدّين من خبط أو خلط، والإمساك[٦] عن ذلك أمثل[٧].

فتفهّم يا بنيّ وصيّتي، واعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحياة، وأنّ الخالق هو المميت، وأنّ المفني هو المعيد، وأنّ المبتلي هو المعافي، وأنّ الدّنيا لم تكن لتستقرّ إلاّ على ما جعلها الله عليه من النّعماء، والابتلاء، والجزاء في المعاد، أو ما شاء ممّا لا تعلم. فإن أشكل عليك شيءٌ من ذلك فاحمله على جهالتك، فإنّك أوّل ما خُلقت به جاهلاً ثمّ عُلّمت. وما أكثر ما تجهل من الأمر (الأمور)، ويتحيّر فيه رأيك، ويضلّ فيه بصرك، ثمّ تبصره بعد ذلك! فاعتصم بالّذي خلقك ورزقك وسوّاك، وليكن له

١- لم يَدَعوا: لم يتركوا.

٢- الشائبة: ما يشوب الفكر من شك وحيرة.

٣- أولجتك: أدخلتك.

٤- العشواء: الضعيفة البصر، أي تخبط خبط الناقة العشواء لا تأمن أن تسقط فيما لا خلاص منه.

٥- تورّط الأمر: دخل فيه على صعوبة في التخلص منه.

٦- الإمساك عن الشيء: حبس النفس عنه.

٧- أمثل: أفضل.

تَعبُّدك وإليه رغبتك، ومنه شفقتك[١].

وأعلم يا بنيّ أنّ أحداً لم يُنبىء عن اللّه سبحانه كما أنبأ عنه الرّسول - صلّى اللّه عليه وآله - فارضَ به رائداً[٢]، وإلىٰ النّجاة قائداً، فإنّي لم آلُكَ[٣] نصيحة. وإنّك لن تبلغ في النّظر لنفسك - وإن أجتهدت - مبلغ نظري لك.

وأعلم يا بنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسُله، ولرأيت آثار مُلكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّه إلهٌ واحدٌ كما وصف نفسه، لا يُضادّه في ملكه أحدٌ، ولا يزول أبداً، ولم يَزل.

أوّلٌ قبل الأشياء بلا أوّليّة، وآخر بعد الاشياء بلا نهاية. عظم عن أن تثبت ربوبيّته بإحاطة قلب أو بصر.

فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يَفعله في صغر خطره[٤] وقلّة مقدرته، وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلىٰ ربّه، في طلب طاعته والخشية من عقوبته، والشّفقة من سخطه؛ فإنّه لم يأمرك إلاّ بحَسَنٍ، ولم يَنهَك إلاّ عن قبيح.

يا بنيّ! إنّي قد أنبأتك عن الدّنيا وحالها، وزوالها وانتقالها، وأنبأتك عن الآخرة، وما أُعدّ لأهلها فيها، وضربت لك فيهما الأمثال، لتعتبر بها، وتحذو عليها. إنّما مثل من خَبر[٥] الدّنيا كمثل قوم سَفْرٍ[٦] نَبَا[٧] بهم منزلٌ جديبٌ[٨]، فأمّوا[٩] منزلاً

١- شفقتك: خوفك.

٢- الرّائد: من تُرسله في طلب الكلأ ليتعرّف موقعه. والرسول قد عرّف عن اللّه وأخبرنا فهو رائد سعادتنا.

٣- لم آلك نصيحة: لم أقصرّ في نصيحتك.

٤- خطره: قدره.

٥- خبر الدنيا: عرفها كما هي بامتحان أحوالها.

٦- السّفر: المسافرون.

٧- نبا المنزل بأهله: لم يوافقهم المقام فيه لوخامته.

خصيباً وجناباً[١٠] مَريعاً[١١]. فاحتملوا وعْثاء[١٢] الطّريق، وفراق الصّديق، وخشونة السّفر، وجشوبة[١٣] المطعم، ليأتوا سَعَة دارهم، ومنزل قرارهم. فليس يَجِدون لشيءٍ من ذلك ألماً، ولا يرون نفقةً فيه مَغرَماً ولا شيء أحبّ إليهم مما قرّبهم من منزلهم، وأدناهم من مَحَلّتهم.

ومثل من أغترّ بها كمثل قومٍ كانوا بمنزل خصيبٍ، فنبا بهم إلى منزل جديب، فليس شيء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه، إلى ما يَهجمون عليه[١٤]، ويصيرون إليه.

يا بنيّ! أجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، وأكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحبّ أن تظلم، وأحسن كما تحبّ أن يحسن إليك، وأستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك، وأرض من النّاس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم، وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحبّ أن يقال لك.

وأعلم أنّ الإعجاب[١٥] ضدّ الصّواب، وآفة الألباب[١٦]؛ فاسع في كَدحك[١٧]، ولا تَكُن خازناً لغيرك[١٨]، وإذا أنت هُديت لقصدك فَكُن أخشع ما

٨- الجديب: المقحط لا خير فيه.

٩- أمّوا: قصدوا.

١٠- الجناب: الناحية.

١١- المَريع: كثير العشب.

١٢- وَعْثاء السّفر: مشقته.

١٣- الجُشوبة: الغِلَظ.

١٤- هجم عليه: انتهى إليه بغتة.

١٥- الإعجاب: استحسان ما يصدر عن النفس مطلقاً.

١٦- آفة: علة، والألباب: العقول.

١٧- الكدح: أشد السعي.

تكون لربّك.

وأعلم أنّ أمامك طريقاً ذا مسافةٍ بعيدة، ومشقّة شديدة، وأنّه لا غنىٰ بك فيه عن حسن ألارتياد[١٩]، وقدر (قدّر) بَلاغك[٢٠] من الزّاد، مع خفة الظّهر، فلا تَحمِلنّ علىٰ ظهرك فوق طاقتك، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك، وإذا وجدت من أهل ألفاقة[٢١] من يحمل لك زادك إلىٰ يوم ألقيامة، فيُوافيك به حيث تحتاج إليه، فاغتنمه وحمّله إيّاه، وأكثِر من تَزويده وأنت قادرٌ عليه، فَلَعَلَّك تَطلُبه فلا تَجِده. وأغتنم من أستقرضك في حال غناك، ليجعل (يحصل) قضاءه لك في يوم عُسرتك.

وأعلم أنّ أمامك عقبةً كؤوداً[٢٢]، أَلمُخِفُّ[٢٣] فيها أحسن حالاً (أمراً) من ألمثقل[٢٤]، وألمُبطىء عليها أقبح حالاً من ألمُسرع، وأنّ مَهبِطك بها لا محالة إمّا علىٰ جنّة أو علىٰ نارٍ، فارتَد[٢٥] لنفسك قبل نزولك، وَوَطِّىء ألمنزل قبل حُلُولك، «فَلَيسَ بعد ألموت مُستَعتَبٌ[٢٦]، ولا إلىٰ ألدّنيا منصرفٌ»[٢٧].

وأعلم أنّ الذّي بيده خزائنُ السّمواتِ وألأرضِ قد أذِنَ لك في الدُّعاء، وَتَكَفّل

---

١٨ - خازناً لغيرك: تجمع المال ليأخذه الوارثون بعدك.

١٩ - الارتياد. الطلب: وحُسنه: إتيانه من وجهه.

٢٠ - البلاغ: الكفاية.

٢١ - الفاقة: الفقر.

٢٢ - كؤوداً: صعبة المرتقىٰ.

٢٣ - المخِفّ: الذي خفّف حمله.

٢٤ - المُثقل: هو من أثقل ظهره بالأوزار.

٢٥ - ارتَدِد: ابعث رائداً من طيبات الأعمال توقفك الثقة علىٰ جودة المنزل.

٢٦ - المُستعتب: مصدر ميمي من استعتب. والاستعتاب: الاسترضاء والمراد أن اللّه لا يُسترضىٰ بعد إغضابه إلا باستئناف العمل.

٢٧ - المنصرف: مصدر ميمي من انصرف. والمراد: لا إنصراف إلى الدنيا بعد الموت.

لك بالإجابة، وأَمَرَك أن تَسأله لِيُعطيك، وتَستَرحِمَه لِيَرحمك، ولم يَجعل بينك وبينه من يَحجُبك عنه، ولَم يُلجئك إلىٰ مَن يَشفع لك إليه، ولم يَمنعك إن أسأتَ من التّوبة، ولم يُعاجلك بالنّقمة، ولمْ يُعَيّرْك بالإنابة[١]، ولم يَفضحك حيث ٱلفضيحة بك أولى، ولم يُشدّد عليك في قبول ٱلإنابة، ولم يُناقِشك بالجريمة، ولم يُؤيسك من الرَّحمة، بل جَعل نُزوعك[٢] عن الذّنب حسنةً، وحَسَب سيئتك واحدةً، وحسب حسنتك عشراً، وفتح لك باب ٱلمتاب، وباب ٱلاستعتاب، فإذا ناديته سمع نداك، وإذا ناجيته عَلِم نجواك[٣]، فأفضَيت[٤] إليه بحاجتك، وأبثثته[٥] ذات نفسك[٦] وشَكوتَ إليه همومك، وٱستكشفته كروبك[٧]، وٱستعنته علىٰ أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر علىٰ إعطائه غيره، من زيادة ٱلأعمار، وصحّة ٱلأبدان، وسعة الأرزاق، ثمّ جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتىٰ شِئتَ ٱستَفتَحت بالدُّعاء أبواب نعمته (نعمه)، وٱستَمطَرت شآبيب[٨] رحمته، فلا يُقنِطَنّك[٩] إبطاء إجابته، فإنّ ٱلعطيّة علىٰ قدر النّيّة.

وربّما أُخِّرت عنك ٱلإجابة، ليكون ذلك أعظم لأجر السّائل، وأجزل لعطاء

١- الإنابة: الرجوع إلىٰ اللّه.

٢- نزوعك: رجوعك.

٣- المناجاة: المكالمة سراً.

٤- أفضيت: ألقيت.

٥- أبثثته: كاشفته.

٦- ذات النفس: حالتها.

٧- استكشفته كروبك: طلبت كشف غمومك.

٨- شآبيب: جمع الشُؤبوب: وهو الدفعة من المطر. وما أشبه رحمة اللّه ينزل على الأرض الموات فيُحييها.

٩- القنوط: اليأس.

ألآمل. وربّما سألت الشّيء فلا تُؤتاه، وأُوتيت خيراً منه، عاجلاً أو آجلاً، أو صُرِف عنك لما هو خير لك. فَلَرُبَّ أمرٍ قد طَلَبْتَه فيه هلاك دينك، لو أُوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقىٰ لك جماله، ويُنفىٰ عنك وَبالُه. فالمال لا يبقىٰ لك ولا تبقىٰ له.

وأعلم يا بنيّ أنّك إنّما خُلِقتَ للآخرة لا للدّنيا، وللفَنَاء[١] لا للبَقاء، وللموت[٢] لا للحياة، وأنّك في قُلعةٍ[٣] ودار بُلغةٍ[٤] وطريق إلىٰ ألآخرة، وأنّك طريد ألموت الّذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفوتُه طالبه، ولا بدّ أنّه مدركه، فكن منه علىٰ حَذَر أن يُدرِكَكَ وأنت علىٰ حالٍ سيّئةٍ قد كنت تُحَدِّث نفسك منها بالتّوبة، فيحول بينك وبين ذٰلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك.

يا بنيّ! أكثِر من ذِكر ألموت، وذِكر ما تَهجُم عليه، وتُفضي بعد ألموت إليه، حتّىٰ يأتيك وقد أخذت منه حِذْرك[٥]، وشَددتَ له أزرك[٦]، ولا يَأتيك بغتةً فيَبهرك[٧]. وإيّاك أن تغترّ بما تَرىٰ من إخلاد[٨] أهل الدّنيا إليها، وتكالبهم[٩] عليها، فقد نبّأك ألله عنها، ونَعَت[١٠] هي لك عن نفسها، وتَكَشَّفت لك عن

١- الدنيوي لا الأخروي. م

٢- الدنيوي أيضاً. م

٣- قُلعة: يُقال منزل قلعة أي لا يُملك لنازله. أو لا يدري متىٰ ينتقل عنه.

٤- البُلغة: الكفاية وما يتبلغ به من العيش.

٥- الحِذر: الاحتراز والاحتراس.

٦- الأزر: القوة.

٧- بَهَر: غلب، أي يغلبك علىٰ أمرك.

٨- إخلاد أهل الدنيا: سكونهم إليها.

٩- التكالب: التواثب.

١٠- نعاه، أخبر بموته. والدنيا تخبر بحالها عن فنائها.

مساويها، فإنّما أهلها كلابٌ عاويةٌ، وسباعٌ ضاريةٌ[١]، يهرّ[٢] بعضها على بعضٍ، ويأكل عزيزُها ذليلَها، ويقهر كبيرُها صغيرَها، نَعَمٌ[٣] مُعقّلةٌ (مغفّلة)[٤] وأخرى مهملةٌ، قد أضلّت[٥] عقولها وركبت مجهولها[٦]. سُرُوح[٧] عاهةٍ[٨] بوادٍ وَعث[٩]، ليس لها راعٍ يُقيمها، ولا مسيمٌ[١٠] يُسيمها. سلكت بهم الدّنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتاهوا في حيرتها، وغرقوا في نعمتها، واتّخذوها ربّاً، فلعبت بهم ولعبوا بها، ونسوا ما وراءها.

رُويداً يُسفر[١١] الظّلام، كأن قد وردت الأظعان[١٢]؛ يوشك من أسرع أن يَلحق!

وأعلم يا بُنَيّ! أنّ من كانت مَطيّته اللّيل والنّهار، فإنّه يُسار به وإن كان واقفاً.

١- ضارية: مولعة بالإفتراس.

٢- يَهِرّ: يعوي وينبح، وأصلها «هرير الكلب» وهو صوته دون حاجة من قلة صبره على البرد. وقد شبّه الإمام أهل الدنيا بالكلاب العاوية.

٣- النَّعَم: الإبل.

٤- مُعَقَّلَة: من «عقّل البعير» شدّ وَظِفَه إلى ذراعه.

٥- أَضَلّت: أضاعت.

٦- مجهولها: طريقها المجهول لها.

٧- السُروح: جمع سَرْح: وهو المال السارح السائم من إبل ونحوها.

٨- العاهة: الآفة، والمراد بقوله: (سروح عاهة) أنهم يسرحون لرعي الآفات.

٩- الوَعْث: الرخو يصعب السير فيه.

١٠- مُسيم: من أسام الدابة يسيمها: سرحها إلى المرعى.

١١- يسفر: يكشف.

١٢- الأظعان - جمع ظعينة -: وهي الهودج تركب فيه المرأة، عبّر به عن المسافرين في طريق الدنيا إلى الآخرة.

ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً[١].

واعلم يقيناً أنك لن تبلغ أملك، ولن تعدوَ أجلك وأنك في سبيل من كان قبلك، فخفّض[٢] في الطلب، وأجمل[٣] في المكتسب، فإنه رُبَّ طلبٍ قد جرّ إلى حَرَب[٤]، فليس كلّ طالبٍ بمرزوقٍ، ولا كلّ مُجملٍ بمحروم. وأكرم نفسك عن كلّ دنيّةٍ[٥] وإن ساقتك إلى الرّغائب[٦]، فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً[٧].

ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً. وما خيرُ خيرٍ لا يُنال إلاّ بشرّ، ويُسرٍ لا ينال إلا بعسر[٨]؟!.

وإيّاك أن توجف[٩] بك مطايا[١٠] الطّمع، فتوردك مناهل[١١] الهلكة[١٢].

وإن استطعت ألاّ يكون بينك وبين الله ذو نعمةٍ فافعل، فإنّك مدرك قَسْمك، وآخذٌ سهمك، وإنّ اليسير من الله سبحانه أعظم وأكرم من الكثير من خلقه، وإن كان كلّ منه.

١- الوادع: الساكن المستريح.

٢- خفّض: أمر من خفّض - بالتشديد - أي ارفق.

٣- أجمل في كسبه: أي سعى سعياً جميلاً. لا يحرص فيمنع الحق ولا يطمع فيتناول ما ليس بحق.

٤- الحرب: سلب المال.

٥- الدنيّة: الشيء الحقير المبتذل.

٦- الرّغائب: جمع رغيبة، وهي ما يُرغب في اقتنائه من مال وغيره.

٧- عوضاً: بدلاً.

٨- العسر: الصعوبة، والمراد ضيق العيش.

٩- توجف: تسرع.

١٠- المطايا: جمع مطية، وهي ما يركب ويمتطى من الدواب ونحوها.

١١- المناهل: ما ترده الإبل ونحوها للشرب.

١٢- الهلكة: الهلاك والموت.

وتلافيك[١] ما فرَطَ[٢] من صمتك أيسرُ من إدراكك ما فات[٣] من منطقك، وحِفظ ما في ألوعاء بشدِّ ألوكاء[٤]، وحفظ ما في يديك أحبّ إليّ من طلب ما في يدي غيرك.

ومرارة آليأس خيرٌ من الطّلب إلىٰ النّاس، وآلحِرفة مع آلعفّة خيرٌ من آلغنىٰ مع آلفجور.

وآلمرء أحفظ لسرّه[٥].

وربّ ساعٍ فيما يضرّه!.

من أكثر أهجر[٦] ومن تفكّر أبصر.

قارن أهل آلخير تكن منهم، وباين أهل الشرّ تَبن عنهم.

بئس الطّعام آلحرام!

وظلم الضّعيف أفحش الظّلم!

إذا كان آلرّفق خُرقاً[٧] كان آلخُرق رِفقاً.

ربّما كان الدّواء داءً، والدّاء دواءً.

وربّما نَصح غير النّاصح. وغشَّ آلمُستَنصَح[٨].

١- التلافي: التدارك لإصلاح ما فَسَد أو كاد.

٢- ما فرط: أي قصر عن إفادة الغرض أو إنالة الوطر.

٣- إدراك ما فات: هو اللحاق به لأجل استرجاعه، وفات: أي سبق إلىٰ غير عودة.

٤- بشدّ وكائها: أي رباطها.

٥- أحفظ لسّره: أشدّ صوناً له وحرصاً علىٰ عدم البوح به.

٦- أهجر إهجاراً وهُجراً: هذىٰ يهذي في كلامه.

٧- الخُرق: العنف.

٨- المُستَنصَح: المطلوب منه النصح.

وإيّاك والاتّكال على المُنى[١] فإنّها بضائع النّوكى[٢].

والعقل حفظ التّجارب، وخير ما جرّبتَ ما وَعَظَك.

بادرِ الفرصة قبل أن تكون غُصَّة.

ليس كلّ طالبٍ يُصيب. ولا كلّ غائب يَؤوب.

ومن الفساد (المفسدة) إضاعة الزّاد، ومَفسدة المعاد.

ولكلّ أمرٍ عاقبةٌ.

سوف يأتيك ما قُدِّر لك.

التّاجر مُخاطر، وربّ يسيرٍ أنمى من كثيرٍ!

لا خير في مُعينٍ مَهينٍ[٣]، ولا في صديقٍ ظنينٍ[٤].

ساهل الدّهر[٥] ما ذلّ لك قَعُوده[٦].

ولا تُخاطر بشيءٍ رجاء أكثر منه.

وإياك أن تجمع بك مَطيّة اللّجاج[٧].

أحمل نفسك من أخيك عند صَرمه[٨] على الصّلة[٩]، وعند صُدوده[١٠] على

١- المنى: جمع مُنْية: ما يتمناه الشخص لنفسه ويعلل نفسه باحتمال الوصول إليه.

٢- النّوكى: جمع أنوك، وهو كالأحمق وزناً ومعنىً.

٣- مهين: بمعنى حقير، والحقير لا يصلح أن يكون مُعيناً.

٤- الظنين: المتهم.

٥- ساهل الدهر: خذ حظك منه بسهولة ويسر.

٦- القعود: الجمل الذي يقتعده الرّاعي في كل حاجته.

٧- المطية: ما يُركب ويُمتطى، واللّجاج: الخصومة.

٨- صَرمه: قطيعته.

٩- الصلّة: الوصال، وهو ضد القطيعة.

١٠- الصدود: الهجر.

اللَّطَف[١] والمقاربة، وعند جموده[٢] على البذل[٣]، وعند تباعُده على الدّنو، وعند شدّته على اللّين، وعند جرمه على العُذر، حتّى كأنّك له عبد، وكأنّه ذو نعمة عليك.

وإيّاك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله بغير أهله.

لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك،

وامحض أخاك النّصيحة، حسنةً كانت أو قبيحةً،

وتجرع الغيظ[٤] فإنّي لم أر جرعةً أحلى منها عاقبةً، ولا ألذّ مغبةً[٥]،

ولِن[٦] لمن غالظك[٧] فإنّه يوشك أن يلين لك،

وخذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحلى (أحد) الظّفرين،

وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقيّة يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً مّا:

ومن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنّه؛

ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتّكالاً على ما بينك وبينه، فإنّه ليس لك بأخٍ من أضعت حقّه.

ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك؛

ولا ترغبنّ فيمن زهد عنك؛

ولا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته؛

١- اللَّطَف: الاسم من ألطفه بكذا أي برّه به.

٢- جموده: بخله.

٣- البذل: العطاء.

٤- الغيظ: الغضب الشديد.

٥- المَغبّة: بمعنى العاقبة.

٦- لن: أمر من اللين ضد الغلظ والخشونة.

٧- غالظك: عاملك بغلظ وخشونة.

ولا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان:

ولا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك، فإنّه يسعى في مضرّته ونفعك: وليس جزاء من سرّك أن تسوءه.

واعلم يا بنيّ أنّ الرّزق رزقان: رزق تطلبه ورزقٌ يطلبك، فإن أنت لم تأته أتاك.

ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى!:

إنّما لك من دنياك، ما أصلحت به مثواك[١]:

وإن كنت جازعاً (جزعت) على ما تفلّت[٢] من يديك، فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك.

أستدلّ على ما لم يكن بما قد كان، فإنّ الأمور أشباه:

ولا تكوننّ ممن لا تنفعه العظة إلاّ إذا بالغت في إيلامه، فإنّ العاقل يتّعظ بالآداب، والبهائم (والجاهل) لا تتّعظ إلاّ بالضّرب:

أطرح عنك واردات الهموم (الأمور) بعزائم الصبر وحسن اليقين.

من ترك القصد[٣] جار[٤]:

الصّاحب مُناسب[٥]:

والصّديق من صدق غيبه[٦].

١- مثواك: مقامك، من ثوى يثوي: أقام يقيم، والمراد هنا: منزلتك من الكرامة.

٢- تفلّت: أي تملّص من اليد فلم تحفظه.

٣- القصد: الإعتدال.

٤- جار: مال عن الصواب.

٥- الصاحب مناسب: أي يُراعي فيه ما يُراعى في قرابة النسب.

٦- الغيب: ضد الحضور، أي من حفظ لك حقك وهو غائب عنك.

وألهوىٰ[١] شريك ألعمىٰ.

وربّ بعيدٍ أقرب من قريبٍ، وقريبٍ أبعد من بعيد وألغريب من لم يكن له حبيب.

من تعدّىٰ ألحقّ ضاق مذهبه.

ومن أقتصر علىٰ قدره كان أبقىٰ له.

وأوثق سبب أخذت به سببٌ بينك وبين ألله سبحانه.

ومن لم يبالك[٢] فهو عدوّك.

قد يكون ألياًس إدراكاً، إذا كان الطّمع هلاكاً.

ليس كلّ عورة تظهر. ولا كلّ فرصةٍ تصاب؛ وربّما أخطأ ألبصير قصده، وأصاب ألأعمىٰ رشده.

أخّر الشّرّ فإنّك إذا شئت تعّجلته[٣].

وقطيعة ألجاهل تعدل صلة ألعاقل.

من أمن الزّمان خانه، ومن أعظمه[٤] أهانه.

ليس كلّ من رمىٰ أصاب.

إذا تغيّر السّلطان تغيّر الزّمان.

سل عن الرّفيق قبل الطّريق، وعن ألجار قبل الدّار.

إيّاك أن تذكر من ألكلام ما يكون مضحكاً، وإن حكيت ذلك عن غيرك.

١- الهوىٰ: شهوة غير منضبطة ولا مملوكة بسلطان الشرع والأدب.

٢- لم يبالك: أي لم يهتم بأمرك. باليته وباليت به: أي راعيته واعتنيت به.

٣- تعجلته: استبقت حدوثه.

٤- أعظمه: هابه وأكبر من قدره.

وإيّاك ومشاورة النّساء فإنّ رأيهنّ إلى أفَن[١] وعزمهنّ إلى وهنٍ[٢]. وأكفف عليهنّ من أبصارهنّ بحجابك إيّاهن، فإنّ شدّة الحجاب أبقى عليهنّ. وليس خروجهنّ بأشدّ من إدخالك من لا يوثق به عليهن. وإن أستطعت ألاّ يعرفن غيرك فافعل. ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، فإنّ المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة[٣] ولا تَعدُ[٤] بكرامتها نفسها، ولا تطمعها في أن تشفع لغيرها.

وإيّاك والتّغاير[٥] في غير موضع غيرة، فإنّ ذلك يدعو الصّحيحة إلى السّقم، والبريئة إلى الرّيب.

وأجعل لكلّ إنسان من خدمك عملاً تأخذه به، فإنّه أحرى ألاّ يتواكلوا في خدمتك[٦].

وأكرم عشيرتك، فإنّهم جناحك الّذي به تطير، وأصلك الّذي إليه تصير، ويدك الّتي بها تصول.

أستودع الله دينك ودنياك، وأسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة، والدّنيا والآخرة، والسّلام.

١- الأفَن: النقص.

٢- الوهن: الضعف.

٣- القهرمان: الذي يحكم في الأمور ويتصرف فيها بأمره.

٤- لا تَعد: أي لا تجاوز بإكرامها نفسها فتكرم غيرها بشفاعتها.

٥- التغاير: إظهار الغيرة على المرأة بسوء الظن في حالها من غير موجب.

٦- يتواكلوا: يتكل بعضهم على بعض.

كتابه(ع) إلى مالك الأشتر

من كتاب له - عليه السلام - كتبه للأشتر النخعي، لما ولاه على مصر وأعمالها، حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر، وهو أطول عهد كَتَبَه وأَجْمَعُه للمحاسن.

بسم اللّه الرّحمن الرحيم

هذا ما أمر به عبد الله عليّ أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولّاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوّها، وإستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمرَه بتقوى اللّه، وإيثار طاعته، وإتباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه، الّتي لا يَسعد أحدٌ إلا باتباعها، ولا يَشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها؛ وأن ينصر اللّه سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنّه، جلّ اسمه، قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزّه.

وأمره أن يكسر نفسه من الشّهوات، ويَزَعَها[1] عند الجمحات[2]، فإنّ النّفس أمّارةٌ بالسّوء، إلاّ ما رحم اللّه.

ثمّ اعلم يا مالك، أنّي قد وجّهتك إلى بلاد قد جرَت عليها دولٌ قبلك، من

١- يزعها: يكفها.

٢- الجمحات: منازعات النفس إلى شهواتها ومآربها.

عدل وجور، وأنّ النّاس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يُستدل على الصالحين بما يُجري الله لهم على ألسن عباده، فَليَكُن أحبّ الذّخائر إليك ذخيرة العمل الصّالح. فاملك هواك، وشُحَّ[١] بنفسك عما لا يَحِل لك فإنّ الشُحّ بالنفس (الأنفس) الإنصاف منها فيما أحبّت أو كرهت. وأشعر قلبك الرّحمة للرّعية، والمحبّة لهم، واللُّطف بهم، ولا تكوننَّ عليهم سَبُعاً ضارياً (ضارباً) تغتنم أكلَهم، فإنّهم صنفان:

إمّا أخ لك في الدّين، أو نظير لك في الخلق

يَفْرط[٢] منهم الزّلل[٣]، وتَعرض لهم العلَل، ويُؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الّذي تحبّ وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليكَ فوقَك، والله فوق من ولّاك! وقد استكفاك أمرهم[٤]، وابتلاك بهم، ولا تنصبَنّ نفسك لحرب الله[٥] فإنّه لا يدَ لك بنقمته[٦]، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تَندَمَنَّ على عفو، ولا تَبَجَّحَنَّ[٧] بعقوبة، ولا تُسرعنّ إلى بادرةٍ[٨] وجدت منها مندوحة[٩]، ولا تقولنّ: إنّي

١- شحّ بنفسك: ابخل بنفسك عن الوقوع في غير الحل. فليس الحرص على النفس إبقاءها كل ما تحبّ، بل من الحرص أن تُحمل على ما تكره.

٢- يفرط: يسبق.

٣- الزلل: الخطأ.

٤- استكفاك: طلب منك كفاية أمرك والقيام بتدبير مصالحهم.

٥- أراد بـ«حرب الله»: مخالفة شريعته بالظلم والجور.

٦- لا يد لك بنقمته: أي ليس لك يد تدفع نقمته، أي لا طاقة لك بها.

٧- تبجح به: كفرح لفظاً ومعنى.

٨- البادرة: ما يبدر من الحدّة عند الغضب في قول أو فعل.

٩- المندوحة: المتسع، أي المخلص.

مُؤَمَّرٌ[١] آمُر فأُطاع، فإنّ ذٰلك إدغال[٢] في ٱلقلب، ومنهكةٌ[٣] للدّين، وتَقَرّب من ٱلغِيَر[٤] وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبّهة[٥] أو مَخيلةً[٦]. فانظر إلىٰ عظم ملك ٱللّه فوقك وقدرته منك علىٰ ما لا تقدر عليه من نفسك، فإنّ ذٰلك يطامن[٧] إليك من طِماحك[٨]، ويكفّ عنك من غربك[٩]، ويفيء[١٠] إليك بما عَزَبَ[١١] عنك من عقلك!

إيّاك ومساماة[١٢] ٱللّه في عَظَمَتِه، والتَّشَبّه به في جَبَروته، فَإنّ ٱلله يُذِلُّ كلَّ جَبّار، ويُهين كُلَّ مُختالٍ.

أنصف ٱللّه وأنصف النّاس من نفسك، ومِن خاصّة أهلك، ومن لك فيه هوىً[١٣] من رعيّتك، فإنّك إلاّ تَفعل تَظلم! ومن ظَلَم عباد ٱللّه كان ٱللّه خَصمه

١- مؤمر - كمعظم -: أي مسلط.

٢- الإدغال: إدخال الفساد.

٣- منهكة: مضعفة. وتقول «نهكه» أي أضعفه. وتقول نَهِكَه السلطان - من باب فَهِم: أي بالغ في عقوبته.

٤- الغِيَر: حادثات الدهر بتبدل الدول.

٥- الأُبّهة: العظمة والكبرياء.

٦- المَخيلة: الخيلاء والعجب.

٧- يُطامن الشيء: يخفض منه.

٨- الطِماح - ككتاب -: النشوز والجماح.

٩- الغَرب: الحدّة.

١٠- يفيء: يرجع.

١١- عزب: غاب.

١٢- المساماة: المباراة في السمو، أي العلو.

١٣- من لك فيه هوى: أي لك إليه ميل خاص.

دون عباده، ومن خاصَمَه ٱللّه أدحَضَ[١] حجّته، وكان لِلّه حَرباً[٢] حتّىٰ يَنزِعَ[٣] أو يتوب. وليس شيءٌ أدعىٰ إلىٰ تغيير نعمة ٱللّه وتعجيل نِقمَتِه من إقامةٍ علىٰ ظُلم، فإنّ ٱللّه سميعٌ دعوة ٱلمُضطَهَدين (المَظلومين) وهو للظّالمين بالمِرصاد. وَلْيَكُن أحبَّ ٱلأمور إليك أوسَطها في ٱلحقّ، وأعمُّها في العدل وأجمعها لرضىٰ الرّعيّة، فإنّ سُخط ٱلعامّة يُجحِف[٤] برضىٰ ٱلخاصّة، وإنّ سُخط الخاصّة يُغتفر مع رضىٰ ٱلعامّة. وليس أحدٌ من الرّعية أثقل علىٰ ٱلوالي مؤونة في الرّخاء، وأقلّ معونة له في ٱلبلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف[٥]، وأقلّ شُكراً عند ٱلإعطاء، وأبطَأ عُذراً عند ٱلمَنع، وأضعَف صَبراً عن مُلِمّات الدّهر من أهل ٱلخاصّة.

وإنّما عِماد الدّين، وجِماع[٦] ٱلمسلمين، وٱلعُدّة للأعداء، ٱلعامّة من ٱلأمّة، فَلْيَكن صِغْوُك[٧] لهم، ومَيلُك معهم.

وليَكن أبعد رعيّتك منك، وأشنأهم[٨] عندك، أطلبهم[٩] لمعائب النّاس، فإنّ في النّاس عيوباً ٱلوالي أحقّ من سَتَرَها، فلا تَكشِفَنَّ عمّا غاب عنك منها، فإنّما عليك تَطهير ما ظَهر لك، وٱللّه يَحكم علىٰ ما غاب عنك فاستر ٱلعورة ما ٱستطعت

---

١ – أدحض: أبطل.
٢ – كان حرباً: أي محارباً.
٣ – «ينزع» – كيضرب –: أي يُقلع عن ظلمه.
٤ – «يجحف برضى الخاصة»: يذهب برضاهم.
٥ – الإلحاف: الإلحاح والشدة في السؤال.
٦ – جماع الشيء – بالكسر –: جمعه، أي جماعة الاسلام.
٧ – الصغو: الميل.
٨ – أشنؤهم: أبغضهم.
٩ – الأطلب للمعائب: الأشد طلباً لها.

يَستر آللّه منك ما تُحبّ سَتره من رَعِيّتك. أطلق عن النّاس عقدة كلّ حقدٍ[١]، وآقطع عنك سبب كلّ وِترٍ[٢]، وتغَابَ عن كلّ ما لا يَضِح[٣] لك، ولا تعجَلنّ إلى تصديق ساعٍ، فإنّ السّاعي[٤] غاشّ، وإن تَشبّه بالنّاصحين؛ ولا تُدخلنّ في مَشُورتك بخيلاً يَعدل بك عن آلفضل[٥]، ويَعِدُك آلفقر[٦]، ولا جباناً يُضعفك عن آلأمور، ولا حَريصاً يُزيّن لك الشّرَه[٧] بالجور، فإنّ آلبخل وآلجبن وآلحرص غرائز شتّى[٨] يجمعها سوء الظّن باللّه.

إنّ شرّ وزرائك من كان للأشرار قَبلَك وزيراً، ومَن شركهم في الآثام فلا يَكونَنّ لك بطانةً[٩]، فإنّهم أعوان آلأثَمَة (الأئمة)[١٠]، وإخوان الظّلَمَة[١١]، وأنت واجدٌ منهم خير آلخلَف ممّن له مِثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مِثل آصارهم[١٢] وأوزارهم[١٣] وآثامهم، ممّن لم يعاون ظالماً علىٰ ظلمه، ولا آثماً علىٰ إثمه: أولئك

١- أطلق عقدة كل حقد: احلل عقد الأحقاد من قلوب الناس بحسن السيرة معهم.

٢- الوِتر: العدواة.

٣- يضح: يظهر، والماضي وضح.

٤- الساعي: هو النّمام بمعائب الناس.

٥- الفضل هنا: الإحسان بالبذل.

٦- يعدك الفقر: يخوفك منه لو بذلت.

٧- الشّرَه: أشدّ الحِرص.

٨- غرائز: طبائع متفرقة.

٩- بطانة الرجل - بالكسر -: خاصّته، وهو من بطانة الثوب خلاف ظهارته.

١٠- الأثَمَة - جمع آثم -: وهو فاعل الإثم، أي الذنب.

١١- الظّلَمة: جمع ظالم.

١٢- الآصار - جمع إصر بالكسر -: وهو الذنب والإثم.

١٣- الأوزار جمع وزر: وهو الذنب والإثم أيضاً.

أخفّ عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنىٰ عليك عَطفاً، وأقلّ لغيرك إلفاً[١]، فاتّخذ أولئك خاصّة لخَلَواتِك وحَفَلاتك، ثمّ لِيَكُن آثرهم عندك أقْوَلَهم بمُرِّ الحقّ لك، وأقلّهم مساعدةً فيما يكون منك ممّا كره اللّه لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع. والصَق بأهل الوَرع والصِّدق؛ ثمّ رُضْهُم[٢] علىٰ ألاّ يُطروك ولا يَبجحوك[٣] بباطلٍ لم تَفعله. فإنّ كَثْرة الإطراء تُحدثُ الزّهو[٤]، وتُدني[٥] من العِزّة (الغرّة). ولا يَكونَنّ المُحسن والمُسيء عندك بمنزلةٍ سواءٍ، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان، وتَدريباً لأهل الإساءة علىٰ الإساءة! وألْزِم كُلاً منهم ما ألزم نفسه.

أعلم أنّه ليس شيءٌ بأدعىٰ إلىٰ حُسن ظنِّ راعٍ برعيّته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وتَرك استكراهه إيّاهم علىٰ ما ليس له قِبَلَهُم[٦]. فليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسن الظّن برعيّتك، فإنّ حسن الظّن يَقطع عنك نَصَباً[٧] طويلاً. وإنّ أحقّ من حَسُن ظَنُّك به لَمَن حَسُن بَلاؤك عنده، وإنّ أحقّ من ساء ظنّك به لمن ساء بلاؤك عنده[٨] ولا تنقض سنّة صالحةً عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصَلُحت عليها الرّعية. ولا تُحدثنّ سنّة تَضر بشيء من ماضي تلك السنن، فيكون الأجر لمن سنّها، والوزر عليك بما نَقضت منها.

وَأكثِر مُدارسة العلماء، ومناقَشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر

١- الإلف - بالكسر -: الألفة والمحبة.

٢- رضهم: أي عَوّدهم على ألا يُطروك: أي يَزيدوا في مَدحك.

٣- لا يبجحوك: أي يفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك ولم تكن فعلته.

٤- الزّهو - بالفتح -: العُجب.

٥- «تدني»: أي تقرّب، والعزة هنا: الكبر.

٦- قِبَلهم: أي عندهم.

٧- النَّصَب: التعب.

٨- البلاء هنا: الصنع مطلقاً حسناً أو سيئاً.

بلادك، وإقامة ما أستقام به النّاس قبلك.

وأعلم أنّ الرّعية طبقات لا يَصلح بعضُها إلاّ ببعض، ولا غنىٰ عن بعضها ببعضٍ:

فمنها جنود ٱللّه، ومنها كتّاب ٱلعامّة وٱلخاصّة، ومنها قضاة ٱلعدل، ومنها عمّال ٱلإنصاف والرفق، ومنها أهل ٱلجزية وٱلخراج من أهل الذّمة ومسلمة النّاس، ومنها التّجار وأهل الصّناعات، ومنها الطّبقة السّفلى من ذوي ٱلحاجة وٱلمسكنة، وكلّ قد سَمّى ٱللّه له سَهمَه[1]، ووضع علىٰ حدّه فريضةً في كتابه أو سنّة نبيّه - صلّى ٱللّه عليه وآله وسلّم - عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود، بإذن ٱللّه حُصُون الرّعيّة، وزَينُ ٱلوُلاة، وعِزُّ الدّين، وسبيل ٱلأمن، وليس تقوم الرعيّة إلا بهم. ثمّ لا قِوام للجنود إلاّ بما يُخرج ٱللّه لهم من ٱلخراج الّذي يَقْوَون به علىٰ جهاد عَدوّهم، ويَعتَمدون عَليه فيما يُصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم[2]. ثمّ لا قوام لهٰذين الصّنفين إلاّ بالصّنف الثّالث من ٱلقضاة وٱلعمّال وٱلكُتّاب، لما يُحكمون من ٱلمعاقد[3] ويجمعون من ٱلمنافع، ويؤتَمَنون عليه من خواصّ ٱلأمور وعَوامّها. ولا قِوام لَهم جميعاً إلاّ بالتجار وذوي الصناعات، فيما يَجتَمعون عليه من مَرافِقِهم،[4] ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من التّرفق[5] بأيديهم ما لا يَبلغه رفق غيرهم. ثمّ الطّبقة السُّفلى من أهل ٱلحاجة وٱلمسكنة الّذين

١- سهمه: نصيبه من الحق.

٢- يكون من وراء حاجتهم: أي يكون محيطاً بجميع حاجاتهم دافعاً لها.

٣- المعاقد: العقود في البيع والشراء، وما شابهها مما هو شأن القضاة.

٤- أي المنافع التي يجتمعون لأجلها.

٥- أي التكسب بأيديهم ما لا يبلغه كسب غيرهم من سائر الطبقات.

يَحِقّ رِفدهم[١]. ومَعونَتُهم وفي ٱللّه لكلٍّ سعةٌ، ولكلٍّ علىٰ ٱلوالي حقّ بقَدَر ما يُصلحه، وليس يَخرج ٱلوالي من حقيقة ما لَزمه ٱللّه من ذٰلك إلاّ بالإهتمام والإستعانة باللّه، وتوطين نفسه علىٰ لزوم ٱلحق والصّبر عليه فيما خفّ عليه أو ثَقُل. فَوَلِّ من جنودك أنصحهم في نفسك للّه ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً[٢]، وأفضلهم حِلماً[٣] ممّن يُبطيء عن ٱلغضب، ويَستَريح إلىٰ ٱلعُذر، ويَرأف بالضعفاء، ويَنبو علىٰ ٱلأقوياء[٤]، وممّن لا يثيره ٱلعُنف، ولا يَقعُد به الضَّعف.

ثُمّ ٱلصق بذَوي ٱلمروءات وٱلأحساب، وأهل ٱلبيوتات الصّالحة، والسّوابق ٱلحسنة، ثمّ أهل النّجدة والشّجاعة، والسّخاء والسّماحة، فإنّهم جماعٌ[٥] من ٱلكرم وشعبٌ[٦] من ٱلعُرف[٧] ثمّ تَفَقَّد من أمورهم ما يَتَفَقَّد ٱلوالدان من وَلدهما، ولا يَتفاقَمَنّ[٨] في نفسك شيءٌ قَوَّيتهم به، ولا تُحَقِّرَنّ لُطفاً[٩] تَعاهَدتَهم به وإن قلّ، فإنّه داعيةٌ لهم إلىٰ بَذل النَّصيحة لك، وحُسن الظّنّ بك ولا تَدَع تَفَقّد لَطيف أمورهم ٱتّكالاً علىٰ جَسيمها، فإنّ لِلَيسير من لُطفك مَوضِعاً يَنتَفِعُون به، ولِلجَسيم

١- رفدهم: مساعدتهم وصلتهم.

٢- جيب القميص: طوقه، ويقال: «نَقي الجيب»: أي طاهر الصدر والقلب.

٣- الحلم هنا: العقل.

٤- ينبو عليه: يتجافى عنهم ويبعد.

٥- جماع من الكرم: مجموع منه.

٦- شُعب - بضم ففتح -: جمع شعبة.

٧- العرف: المعروف.

٨- تفاقم الأمر: عظُم، أي لا تَعدّ شيئاً قَوَّيتهم به غاية في العظم زائداً عمّا يستحقون، فكل شيء قوّيتهم به واجب عليك إتيانه، وهم مُستحقون لنيله.

٩- لا تُحقرنّ لُطفاً: أي لا تَعد شيئاً من تَلطفك معهم حقيراً فتتركه لحقارته، بل كل تلطف -وإن قلّ- فَلَه موقع من قلوبهم.

مَوقِعاً لا يَستَغنون عَنه.

وَليَكن آثَر[١] رؤوس جندك عندك من واساهم[٢] في معونته وأفضَلَ[٣] عليهم من جِدَتِه[٤]، بما يَسَعهم ويَسع مَن وراءهم من خُلُوف[٥] أهليهم، حتّىٰ يكون هَمُّهم هماً واحداً في جهاد العدو، فإنّ عطفك عليهم يَعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قُرّة عين الولاة أستقامة العدل في البلاد، وظهور مودّة الرّعية. وإنّه لا تَظْهر مَوَدَّتهم إلاّ بسلامة صدورهم، ولا تَصِحّ نَصيحتهم إلاّ بحيطَتِهم[٦] علىٰ ولاة الأمور، وقلّة أستثقال دولهم، وترك أستبطاء أنقطاع مدّتهم، فافسح في آمالهم، وواصل في حُسن الثّناء عليهم، وتعديد ما أبلىٰ ذَوُو البلاء[٧] منهم؛ فإنّ كَثرة الذّكر لحُسن أفعالهم تَهُزُّ الشّجاع، وتُحَرّض النّاكل[٨]، إن شاء الله.

ثمّ أعرف لكلّ أمرىء منهم ما أبلىٰ، ولا تَضُمَّنّ بَلاء[٩] أمرىء إلىٰ غيره، ولا تُقَصِّرَنّ به دون غاية بلائه، ولا يَدعوَنّك شَرَف أمرىء إلىٰ أن تُعَظِّم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضَعَة أمرىء إلىٰ أن تَستَصغِرَ مِن بَلائه ما كان عظيماً وأردُد إلىٰ

١- آثر: أي أفضل وأعلىٰ منزلة.

٢- واساهم: ساعدهم بمعونته لهم.

٣- أفضل عليهم: أي أفاض.

٤- الجِدَة: الغنىٰ.

٥- خلوف أهليهم: جمع خَلْف - بفتح وسكون - وهو من يبقىٰ في الحي من النساء والعجزة بعد سَفَر الرجال.

٦- حيطة - بكسر الحاء -: من مصادر «حاطه» بمعنىٰ حفظه وصانه.

٧- ذوو البلاء: أهل الأعمال العظيمة.

٨- يحرض الناكل: يحث المتأخر القاعد.

٩- بلاء امرىء: صنيعه الذي أبلاه.

اللَّه ورسوله ما يُضلِعُك[١] من الخطوب، ويشتبه عليك من الأمور؛ فقد قال اللَّه تعالى لقومٍ أحبَّ إرشادهم:

«يا أيها الَّذين آمنوا أطيعوا اللَّه، وأطيعوا الرَّسول، وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى اللَّه والرَّسول»

فالرَّد إلى اللَّه: الأخذ بمُحكم كتابه والرَّد إلى الرَّسول: الأخذ بسُنَّته الجامعة غير المُفرِّقة.

ثمَّ اختر للحكم بين النَّاس أفضل رَعيّتك في نَفسك، ممَّن لا تَضيق به الأمور، ولا تُمحّكه[٢] الخصوم، ولا يتمادى[٣] في الزَّلَة[٤] ولا يَحصَر[٥] من الفيء[٦] إلى الحق إذا عرفه، ولا تُشرِف[٧] نفسه على طمعٍ، ولا يَكتفي بأدنى فهم دون أقصاه[٨]؛ وأوقفهم في الشُّبهات[٩]، وآخذهم بالحجج، وأقلّهم تبرّماً[١٠]

....

١- ما يُضلعك من الخطوب: ما يؤودك ويُثقلك ويَكاد يَميلك من الأمور الجسام.

٢- تمحّكه الخصوم: تجعله ماحقاً لجوجاً. يُقال: محّك الرَّجل - كمَنَع - إذا لجَّ في الخصومة، وأصرَّ على رأيه.

٣- يتمادى: يستمر ويسترسل.

٤- الزَّلة - بالفتح -: السقطة في الخطأ.

٥- لا يحصَر: لا يعيا في المنطق.

٦- الفيء: الرّجوع إلى الحق.

٧- لا تُشرف نفسه: لا تطلع. والإشراف على الشيْ: الإطلاع عليه من فوق.

٨- أدنى فهم وأقصاه: أقربه وأبعده.

٩- الشبهات: ما لا يتضح الحكم فيه بالنص: وفيها ينبغي الوقوف على القضاء حتى يَرُد الحادثة إلى أصل صحيح.

بمراجعة ٱلخصم، وأصبرهم علىٰ تَكَشُّف ٱلأمور، وأضرَمهم[١] عند اتضاح ٱلحكم، ممّن لا يَزْدَهيه إطراءٌ[٢]، ولا يَستَميله إغراء، وأولئك قليلٌ. ثمّ أكْثِر تَعاهُد (تعهد)[٣] قضائه، وأفسح له في ٱلبَذل[٤] ما يُزيل عِلَّته، وتَقِلّ معه حاجته إلىٰ ٱلنّاس. وأعطه من ٱلمنزلة لديك ما لا يَطمَع فيه غيره من خاصّتك، ليَأمَن بذلك أغتيال (اغتياب) ٱلرّجال له عندك، فانظر في ذٰلك نظراً بليغاً، فإنّ هذا ٱلدّين قد كان أسيراً في أيدي ٱلأشرار، ويُعمل فيه بالهوىٰ، وتُطلب به ٱلدّنيا.

ثمّ ٱنظر في أمور عمّالك فاستعملهم ٱختباراً (اختياراً)[٥]. ولا تُوَلِّهم محاباةً[٦] وأثَرَة[٧]، فإنّهما جماعٌ من شعب[٨] ٱلجور وٱلخيانة؛ وتَوَخَّ[٩] منهم أهل ٱلتّجربة (ٱلنّصيحة) وٱلحياء، من أهل ٱلبيوتات ٱلصّالحة، وٱلقَدَم[١٠] في ٱلإسلام ٱلمُتَقَدِّمة . فإنّهم أكرم أخلاقاً، وأصحّ أعراضاً (أغراضاً)، وأقل في ٱلمطامع إشراقاً (إسرافاً)، وأبلغ في عواقب ٱلأمور نظراً. ثمّ أسبغ[١١] عليهم ٱلأرزاق، فإنّ

١٠- التَّبَرّم: الملل والضجر.

١- أصرمهم: أقطعهم للخصومة وأمضاهم.

٢- لا يزدهيه إطراء: لا يَستَخِفُّه زيادة الثناء عليه.

٣- تعاهده: تتبعه بالاستكشاف والتعرف.

٤- افسح له البذل: أي أوسع له في العطاء بما يكفيه.

٥- استعملهم اختباراً: وَلِّهم الأعمال بالإمتحان.

٦- محاباة: أي اختصاصاً وميلاً منك لمعاونتهم.

٧- أثرة - بالتحريك -: أي استبداداً بلا مشورة.

٨- فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة: أي يجمعان فروع الجور والخيانة.

٩- توخّ: أي اطلب وتحرّ أهل التجربة.

١٠- القَدَم - بالتحريك -: واحدة الأقدام، أي: الخطوة السابقة وأهلها هم الأولون.

١١- أسبغ عليه الرزق: أكمله وأوسع له فيه.

ذلك قوّةٌ لهم على استصلاح أنفسهم، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحُجّة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلَمُوا أمانتك[١].

ثمّ تفقّد أعمالهم، وابعث العيون[٢] من أهل الصّدق والوفاء عليهم، فإنّ تعاهُدَك في السّرّ لأمورهم حَدوَةٌ لهم[٣] على استعمال الأمانة، والرّفق بالرّعيّة. وتحفّظ من الأعوان، فإنْ أحدٌ منهم بَسَطَ يَدَه إلى خيانة اجتمعتْ بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهداً، فبَسَطت عَلَيه العقوبة في بدنه (يديه)، وأخَذته بما أصاب من عمله، ثمّ نَصَبته بمقام المَذَلّة، ووَسَمْته بالخيانة، وقلّدته عارَ التُّهمة.

وتفقّد أمر الخراج بما يُصلح أهله، فإنّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم، لأنّ النّاس كلّهم عيالٌ على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأنّ ذلك لا يُدرك إلاّ بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارةٍ أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقِم أمرُه إلاّ قليلاً. فإن شَكَوا ثِقلاً أو عِلّةً[٤]، أو انقطاع شربٍ[٥] أو بالّة[٦]، أو إحالة أرضٍ[٧] اغتمرها[٨] غرقٌ، أو أجحف[٩] بها عطشٌ، خفّفت عنهم، بما ترجُو

١- ثلموا أمانتك: نقصوا في أدائها أو خانوا.

٢- العيون: الرقباء.

٣- حدوة: أي سوق لهم وحَثّ.

٤- إذا شكوا ثقلاً أو علّة: يريد المضروب من مال الخراج أو نزول علة سماوية بزرعهم أضرّت بثمراته.

٥- انقطاع شرب - بالكسر -: أي ماء سقي في بلاد تُسقى بالأنهار.

٦- انقطاع بالّة: أي ما يَبُل الأرض من ندى ومطر فيما تُسقى بالمطر.

٧- إحالة أرض: بكسر همزة إحالة أي تحويلها البذور إلى فساد بالتعفن.

٨- اغتمرها أي: عمّها من الغرق فغلبت عليها الرطوبة حتى صار البذر فيها غَمِقاً - ككتف - أي له رائحة خمّة وفساد.

أن يَصلُح به أمرهم؛ ولا يثقلنّ عليك شيءٌ خفّفت به ألمؤونة عنهم، فإنّه ذخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم (نياتهم)، و تبجّحك[١] باستفاضة[٢] العدل فيهم، معتمداً فضل قوّتهم[٣]، بما ذخرت[٤] عندهم من إجمامك[٥] لهم، والثّقة منهم بما عوّدتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم، فربّما حدث من الأمور ما إذا عوّلت من عدلك عليهم من بعدُ احتملوه طيّبةً أنفسهم به؛ فإنّ العمران محتمل ما حمّلته، وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز[٦] أهلها، وإنّما يُعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع[٧] وسوء ظنّهم بالبقاء، وقلّة انتفاعهم بالعِبَر.

ثمّ انظر في حال كتّابك، فولّ على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك الّتي تُدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممّن لا تُبطره[٨] الكرامة، فيجترىء بها عليك في خلاف لك بحضرة ملإ[٩]، ولا تُقصّر به الغفلة[١٠] عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك، وإصدار جواباتها على الصّواب عنك،

٩- أجحف العطش: أي أتلفها. وذهب بمادة الغذاء من الأرض فلم ينبت.

١- التبجح: السرور بما يرى من حسن عمله في العدل.

٢- استفاضة العدل: انتشارة.

٣- معتمداً فضل قوتهم: أي متخذاً زيادة قوتهم عماداً لك تستند إليه عند الحاجة.

٤- ذخرت: وفرت.

٥- الإجمام: الترفيه والاراحة.

٦- الإعواز: الفقر والحاجة.

٧- إشراف أنفسهم على الجمع: تطلع أنفسهم إلى جمع المال، ادخاراً لما بعد زمن الولاية إذا عزلوا.

٨- لا تبطره: أي لا تطغيه.

٩- جماعة من الناس تملأ البصر.

١٠- لا تقصر به الغفلة: أي لا تكون غفلته موجبة لتقصيره في إطلاعك على ما يَرِد من أعمالك

فيما يأخذ لك ويعطي منك، ولا يُضعف عقداً أعتقده لك[١]، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك[٢]، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإنّ الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثمّ لا يَكن اختيارك إيّاهم على فِراستك[٣] واستنامتك[٤] وحسن الظّن منك، فإنّ الرّجال يتعرّضون لفِراسات[٥] الولاة بتصنّعهم[٦] وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النّصيحة والأمانة شيٌ، ولكن اختبرهم بما وُلّوا للصّالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإنّ ذلك دليلٌ على نصيحتك لله ولمن ولّيت أمره.

واجعل لرأس كلّ أمرٍ من أمورك رأساً منهم، لا يقهره كبيرها، ولا يتشتّت عليه كثيرها، ومهما كان في كُتّابك من عيبٍ فتغابيت[٧] عنه أُلزمته.

ثمّ استوص بالتجّار وذوي الصّناعات، وأوص بهم خيراً:

المقيم منهم والمضطرب بماله[٨]، والمترفّق[٩] ببدنه، فإنّهم مواد المنافع،

ولا إصدار الأجوبة عنه على وجه الصواب.

١- عقداً اعتقده لك: أي معاملة عقدها لمصلحتك.

٢- لا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك: إذا وقعت مع أحد في عقد كان ضرره عليك لا يعجز عن حل ذلك العقد.

٣- الفِراسة - بالكسر -: قوة الظن وحسن النظر في الأمور.

٤- الاستنامة: السكون والثقة.

٥- يتعرضون لفراسات الولاة: أي يتوسلون إليها لتعرفهم.

٦- بتصنعهم: بتكلفهم إجادة الصنعة.

٧- تغابيت: أي تغافلت.

٨- المضطرب بماله: المتردد به بين البلدان.

٩- المترفّق: المكتسب.

وأسباب ٱلمرافق[١]، وجلّابها من ٱلمباعد وٱلمطارح[٢] في برّك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم النّاس لمواضعها[٣] ولا يجترؤون عليها. فإنّهم سلمٌ[٤] لا تخاف بائقته[٥]، وصلحٌ لا تُخشَى غائلته. وتفقّد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك. وٱعلم – مع ذٰلك – أن في كثيرٍ منهم ضيقاً[٦] فاحشاً، وشحاً[٧] قبيحاً، وٱحتكاراً[٨] للمنافع، وتحكماً في ٱلبياعات، وذٰلك باب مضرّة للعامّة، وعيبٌ على ٱلولاة. فامنع من ٱلاحتكار، فإنّ رسول ٱللّه – صلّى ٱللّه عليه وآله وسلّم – منع منه. وليكن ٱلبيع بيعاً سمحاً: بموازين عدلٍ، وأسعارٍ لا تجحف بالفريقين من ٱلبائع وٱلمبتاع[٩]. فمن قارف[١٠] حكرةً[١١] بعد نَهيك إيّاه فنكّل به[١٢] وعاقبه في غير إسراف[١٣].

١– المرافق: ما ينتفع به من الأدوات والآنية.

٢– المطارح: الأماكن البعيدة.

٣– لا يلتئم الناس لمواضعها: أي لا يمكن التئام الناس واجتماعهم في مواضع تلك المرافق من تلك الأمكنة.

٤– إنهم سلمٌ: أي أن التجار والصناع مسالمون.

٥– البائقة: الداهية.

٦– الضيق: عسر المعاملة.

٧– الشحّ: البخل.

٨– الاحتكار: حبس المطعوم ونحوه عن الناس لا يسمحون به إلا بأثمان فاحشة.

٩– المبتاع: هنا المشتري.

١٠– قارف: أي خالط.

١١– الحُكرة – بالضم –: الاحتكار.

١٢– فنكل به: أي أوقع به النكال والعذاب، عقوبة له.

١٣– في غير إسراف: أي من غير أن تجاوز حد العدل.

ثمّ ألله ألله في الطّبقة السّفلىٰ من الّذين لا حيلة لهم، من ألمساكين وألمحتاجين وأهل ألبؤسىٰ[١] والزّمنى[٢] فإنّ في هٰذه الطّبقة قانعاً[٣] ومعتّراً[٤]، وأحفظ لله ما استحفظك[٥] من حقّه فيهم، وأجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلّات[٦] صوافي[٧] ألإسلام في كلّ بلد. فإنّ للأقصىٰ منهم مثل ألّذي للأدنىٰ، وكلّ قد أسترعيت حقّه، فلا يَشغَلَنَّك عنهم بطرٌ (نظر)[٨]، فإنّك لا تُعذر بتضييعك التّافه[٩] لإحكامك ألكثير ألمهمّ، فلا تشخص همّك عنهم، ولا تُصعّر خدّك لهم[١٠]، وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممّن تَقتَحِمُه ألعيون[١١]، وتُحقّره الرّجال: ففرّغ لأولئك ثقتك[١٢] من أهل ألخشية والتّواضع، فَليَرفَع إليك

١- البؤسىٰ - بضم أوله -: شدّة الفقر.

٢- الزّمنى - بفتح أوله -: جمع زمين وهو المصاب بالزمانة - بفتح الزاي - أي العاهة، يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الإكتساب.

٣- القانع: السائل.

٤- المعتّر - بتشديد الراء - المتعرض للعطاء بلا سؤال.

٥- استحفظك: طلب منك حفظه.

٦- غلّات: ثمرات.

٧- صوافي الإسلام - جمع صافية -: وهي أرض الغنيمة.

٨- بطر: طغيان بالنعمة.

٩- التافة: الحقير.

١٠- لاتشخص همك: أي لا تصرف إهتمامك عن ملاحظة شؤونهم.

١١- تقتحمه العين: تكره أن تنظر إليه احتقاراً وازدراءً.

١٢- فرّغ لأولئك ثقتك: أي اجعل للبحث عنهم أشخاصاً يتفرغون لمعرفة أحوالهم يكونون ممن تثق بهم.

أمورَهم، ثمَّ أعمل فيهم بالإعذار إلىٰ ٱللّه[١] يوم تلقاه، فإنّ هؤلاء من بين الرّعيّة أحوج إلىٰ ٱلإنصاف من غيرهم، وكلٌّ فأعذر إلىٰ ٱللّه في تأدية حقّه إليه.

وتَعَهَّد أهل ٱليُتم وذوي الرّقّة في السّنّ[٢] ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك علىٰ ٱلولاة ثقيل، وٱلحق كلّه ثقيل؛ وقد يخفّفه ٱللّه علىٰ أقوام طلبوا ٱلعاقبة فصبّروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود ٱللّه لهم.

وٱجعل لذوي ٱلحاجات[٣] منك قسماً تُفَرِّغ لهم فيه شخصك، وتَجلس لهم مَجلساً عامّاً فتتواضع فيه للّه ٱلّذي خلقك، وتُقعد عنهم جندك وأعوانك[٤] من أحراسك[٥] وشُرَطِك[٦]، حتّىٰ يُكَلِّمَك مُتكلّمهم غير مُتَتَعْتِع[٧]. فإنّي سمعت رسول ٱللّه - صلّىٰ ٱللّه عليه وآله وسلّم - يقول في غير موطنٍ[٨]:

«لن تُقدّس[٩] أمّةٌ لا يُؤخذ للضّعيف فيها حقُّه من ٱلقويّ غير متتعتع».

ثمّ ٱحتمل ٱلخَرَق[١٠] منهم وٱلعيّ[١١]، ونحّ[١٢] عنهم الضّيق[١٣]

١- بالإعذار إلىٰ اللّه: أي بما يقدم لك عذراً عنده.

٢- ذوو الرقّة في السنّ: المتقدمون فيه.

٣- لذوي الحاجات: أي المتظلمين تتفرغ لهم فيه بشخصك للنظر في مظالمهم.

٤- تقعد عنهم جندك: تأمر بأن يقعد عنهم ولا يتعرض لهم جندك.

٥- الأحراس - جمع حَرَس بالتحريك -: وهو من يحرس الحاكم من وصول المكروه.

٦- الشُّرَط - بضم ففتح -: طائفة من أعوان الحاكم، وهم المعروفون بالضابطة. واحده شُرْطة - بضم فسكون -.

٧- التعتعة في الكلام: التردد فيه من عجز وعي، والمراد غير خائف تعبيراً باللازم.

٨- في غير موطن: أي في مواطن كثيرة.

٩- التقديس: التطهير، أي لا يُطهر اللّه أمة... الخ.

١٠- الخُرق - بالضم -: العنف ضد الرفق.

١١- العي - بالكسر -: العجز عن النطق.

والأنَف[١٤] يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته[١٥]، ويوجب لك ثواب طاعته.

وأعط ما أعطيت هنيئاً[١٦] وامنع في إجمالٍ وإعذارٍ[١٧].

ثمّ أمورٌ من أمورك لا بدّ لك من مباشرتها:

منها إجابة عمّالك بما يعيا[١٨] عنه كتّابك.

ومنها إصدار حاجات النّاس يوم ورُودها عليك بما تَحْرَج[١٩] به صدور أعوانك.

وأمض لكلّ يوم عمله، فإنّ لكلّ يومٍ ما فيه.

وأجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل[٢٠] تلك الأقسام، وإن كانت كلّها لله إذا صَلُحت فيها النّية، وسَلِمت منها الرّعيّة.

وليكن في خاصّة ما تُخلص به لله دينك: إقامة فرائضه الّتي هي له خاصّة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفّ ما تقرّبت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلومٍ[٢١] ولا منقوصٍ، بالغاً من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للنّاس، فلا

١٢- نَحّ: فعل أمر من نحّى يُنحي، أي أبعد عنهم.

١٣- الضيق: ضيق الصدر بسوء الخلق.

١٤- الأنَف - بحركة -: الإستنكاف والإستكبار.

١٥- أكناف الرحمة: أطرافها.

١٦- هنيئاً: سهلاً لا تُخَشِّنه باستكثاره والمَنّ به.

١٧- امنع في إجمال وإعذار: وإذا منعت فامنع بلطف وتقديم عذر.

١٨- يعيا: يعجز.

١٩- حرج يحرج - من باب تعب: ضاق، والأعوان تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات، ويحبون المماطلة في قضائها: استجلاباً للمنفعة، أو إظهاراً للجبروت.

٢٠- أجزلها: أعظمها.

٢١- غير مثلوم: أي غير مخدوش بشيء من التقصير ولا مخروق بالرياء.

تكونن منفراً ولا مضيعاً[١]، فإنّ في النّاس من به العلّة وله الحاجة. وقد سألت رسول اللّه - صلّى اللّه عليه وآله وسلّم - حين وجّهني إلى اليمن كيف أصلّي بهم؟ فقال:

«صلّ بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً».

وأمّا بعد، فلا تطوّلنّ احتجابك عن رعيّتك، فإنّ احتجاب الولاة عن الرّعية شعبةٌ من الضيق، وقلّة علم بالأمور؛ والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيَصغُر عندهم الكبير، ويَعظُم الصّغير، ويَقبُح الحسن، ويَحسُن القبيح، ويُشاب الحق بالباطل. وإنّما الوالي بَشرٌ لا يَعرف ما تَوارىٰ عنه النّاس به من الأمور، وليست علىٰ الحق سماتٌ[٢] تُعرف بها ضروب الصّدق من الكذب، وإنّما أنت أحد رجلين:

إمّا أمرؤ سَخَت نفسك بالبذل[٣] في الحقّ، ففيم احتجابك من واجب حقّ تعطيه، أو فعل كريم تُسديه!

أو مُبتلىً بالمَنع، فما أسرع كفّ النّاس عن مسألتك إذا أيِسُوا[٤] من بَذْلك! مع أنّ أكثر حاجات النّاس إليك ممّا لا مؤونة فيه عليك: من شَكاة[٥] مظلمةٍ، أو طلب إنصاف في معاملة.

ثمّ إنّ للوالي خاصّة وبطانةً، فيهم استئثار وتطاولٌ وقلّة إنصاف في

١- لا تكونن منفراً ولا مضيعاً: أي لا تُطل الصلاة فتُكَرِّه بها النّاس، ولا تضيع منها شيئاً بالنقص في الأركان بل التوسط خير.

٢- سمات جمع سمة - بكسر ففتح -: وهي العلامة.

٣- البذل: العطاء.

٤- أيسوا: قنطوا ويئسوا.

٥- شكاة - بالفتح -: شكاية.

معاملة، فاحسم مادّة (مؤونة) أولئك بقطع أسباب تلك ٱلأحوال، ولا تـقطعنّ[١] لأحد من حاشيتك وحامّتك[٢] قطيعةً، ولا يَطمَعَنَّ منك في ٱعتقاد[٣] عُقدة، تضرّ بمن يليها من النّاس، في شرب[٤] أو عملٍ مشترك، يحملون مؤونته علىٰ غـيرهم، فيكون مهنأ[٥] ذٰلك لهم دونك، وعَيبه عليك في الدّنيا والآخرة.

وٱلزم ٱلحقّ من لَزِمَه من ٱلقريب وٱلبعيد، وكُن في ذٰلك صابراً محـتسباً، واقعاً ذٰلك من قرابتك وخاصّتك (خواصّك) حيث وقع، وٱبتغ عاقبته بما يَثقل عليك منه، فإنّ مَغَبّة[٦] ذٰلك محمودةٌ.

وإن ظَـنَّت الرّعـيّة بك حَـيفاً[٧] فأصـحِر[٨] لهـم بـعُذرك، وٱعـدِل (واعزل)[٩] عنك ظنونهم بإصحارك، فإنّ في ذٰلك رياضة[١٠] منك لنفسك، ورِفقاً برعيّتك، وإعذاراً[١١] تَبلغ به حاجَتك من تَقويمهم علىٰ ٱلحقّ.

١- الإقطاع: المنحة من الأرض.

٢- الحامّة - كالطامّة -: الخاصة والقرابة.

٣- الإعتقاد: الإمتلاك، والعُقدة: الضيعة، واعتقاد الضيعة: اقتناؤها، وإذا اقـتنوا ضـيعة فـربما أضروا بمن يليها، أي يقرب منها، من الناس.

٤- الشرب - بالكسر -: هو النصيب في الماء.

٥- مهناً ذٰلك: منفعته الهنيئة.

٦- المغبة - كمحبة -: العاقبة.

٧- حيفاً: أي ظلماً.

٨- أصحر لهم بعذرك: أي أبرز لهم، وبيّن عذرك فيه. وهو من الإصحار: الظهور، وأصله البروز في الصحراء.

٩- عدل الشيء عن نفسه: نحّاه عنه.

١٠- رياضةً: أي تعويداً لنفسك علىٰ العدل.

١١- الإعذار: تقديم العذر أو إبداؤه.

ولا تَدفَعَنَّ صُلحاً دَعاك إليه عَدُوّك وللّه فيه رضىً. فإنّ في الصّلح دعةً[١] لجنودك، وراحةً من همومك، وأمناً لبلادك. ولكن الحذر كلّ الحذر من عدوّك بعد صُلحِه، فإنّ العدوّ ربّما قارب ليَتَغَفَّل[٢] فَخُذ بالحَزم، واتّهِم في ذلك حسن الظّن. وإن عَقَدت بَينَك وبَين عَدوّك عقدةً، أو ألبسته منك ذمّةً[٣]، فحُط[٤] عهدك بالوفاء، وارع ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنّةً[٥] دون ما أعطيت. فإنّه ليس من فرائض اللّه شيءٌ النّاس أشدّ عليه اجتماعاً، مع تَفَرّق أهوائهم، وتشتّت آرائهم، من تَعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا[٦] من عواقب الغدر؛ فلا تَغدِرَنَّ بذمّتك، ولا تَخيسَنّ (تحبسنّ) بعهدك[٧]، ولا تَختلنّ[٨] عدوّك فإنّه لا يَجترىء على اللّه إلاّ جاهلٌ شقيٌّ وقد جعل اللّه عهده وذمّته أمناً أفضاه[٩] بين العباد برحمته، وحريماً[١٠] يسكنون إلى

١- الدَّعَة - محركة -: الراحة.

٢- قارب ليتغفّل: أي تقرّب منك بالصلح ليلقي عليك عنه غفلة فيغدرك فيها.

٣- أصل معنى الذّمة: وجدان مودع في جِبِلّة الإنسان، يُنَبّهه لرعاية حق ذوي الحقوق عليه. ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها. ثم أُطلقت على معنى العهد. وجعل العهد لباساً لمشابهته له في الرقابة من الضرر.

٤- حط عهدك: أمر من حاطه يحوطه بمعنى حفظه وصانه.

٥- الجُنّة - بالضم -: الوقاية، أي حافظ على ما أعطيت من العهد بروحك.

٦- لما استوبلوا من عواقب الغدر: أي وجدوها وبيلة، مهلكة.

٧- خاس بعهده: خانه ونقضه.

٨- الختل: الخداع.

٩- أفضاه: هنا بمعنى أفشاه.

١٠- الحريم: ما حرم عليك أن تمسه.

مَنَعَته[١]، ويَستفيضون إلىٰ جواره[٢]؛ فلا إدغال[٣] ولا مُدالسة[٤] ولا خداع فيه، ولا تعقد عقداً تجوّز فيه ٱلعلل[٥] ولا تُعولنّ علىٰ لحن قول[٦] بعد التّأكيد والتّوثقة، ولا يدعونّك ضيق أمر، لزمك فيه عهد ٱللّه، إلىٰ طلب انفساخه بغير ٱلحقّ، فإنّ صَبرك علىٰ ضيق أمر ترجو أنفراجه وفضل عاقبته، خير من غدرٍ تخاف تبعته، وأن تحيط بك من ٱللّه فيه طلبةٌ[٧]، لا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك.

إيّاك والدّماء وسفكها بغير حلّها، فإنّه ليس شيءٌ أدنىٰ لنقمةٍ ولا أعظم لتبعة، ولا أحرىٰ بزوال نعمةٍ، وٱنقطاع مدّةٍ، من سفك الدّماء بغير حقّها. وٱللّه سبحانه مبتدئٌ بالحكم بين ٱلعباد، فيما تسافكوا من الدّماء يوم ٱلقيامة؛ فلا تُقَوِّينّ سلطانك بسفك دمٍ حرامٍ فإنّ ذٰلك ممّا يضعفه ويوهنه، بل يُزيله ويَنقله. ولا عُذر لك عند ٱللّه ولا عندي في قتل ٱلعمد، لأنّ فيه قَوَد[٨] ٱلبدن. وإن أبتليت بخطإٍ، وأفرط عليك[٩] سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة؛ فإنّ في ٱلوكزة[١٠] فما فوقها

١- المنعة - بالتحريك -: ما تمتنع به من القوة.

٢- يستفيضون: أي يفزعون إليه بسرعة.

٣- الإدغال: الإفساد.

٤- المدالسة: الخيانة.

٥- العلل - جمع علّة -: وهي في النقد والكلام، بمعنىٰ ما يَصرفه عن وجهه ويحوله إلىٰ غير المراد، وذلك يطرأ علىٰ الكلام عند إبهامه وعدم صراحته.

٦- لحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض.

٧- أن تحيط بك من اللّه فيه طلبة: أي تأخذك بجميع أطرافك مطالبة اللّه إياك بحقه في الوفاء الذي غدرت به.

٨- القَوَد - بالتحريك -: القصاص، وإضافته للبدن لأنه يقع عليه.

٩- أفرط عليك سوطك: عجّل بما لم تكن تريده: أردت تأديباً فأعقب قتلاً.

١٠- الوَكْزَة - بفتح فسكون -: الضربة بجُمع الكف - بضم الجيم -: أي قبضته، وهي المعروفة

مقتلةً، فلا تطمحنّ[١] بك نخوة سلطانك عن أن تؤدّي إلى أولياء المقتول حقّهم.

وإيّاك والإعجاب بنفسك، والثّقة بما يعجبك منها، وحبّ الإطراء[٢] فإنّ ذلك من أوثق فرص الشّيطان في نفسه ليحق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإيّاك والمنّ على رعيّتك بإحسانك، أو التّزيّد[٣] فيما كان من فعلك، أو أن تَعِدَهم فَتُتبع مَوعدك بخُلفك، فإنّ المنّ يُبطل الإحسان، والتّزيّد يَذهب بنور الحقّ، والخُلف يوجب المقت[٤] عند الله والنّاس. قال الله تعالى:

«كَبُر مَقْتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون».

وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التّسقط (التساقط - التثبّط)[٥] فيها عند إمكانها، أو اللّجاجة فيها إذا تنكّرت[٦] أو الوهن[٧] عنها إذا استوضحت. فضع كلّ أمرٍ موضعه، وأوقع كلّ أمر موقعه.

وإيّاك والاستئثار[٨] بما النّاس فيه أسوة[٩]. والتّغابي[١٠] عمّا تُعنى به ممّا قد وضح للعيون، فإنّه مأخوذ منك لغيرك وعمّا قليلٍ تنكشف عنك أغطية

باللكمة.

١- تطمحنّ بك: ترتفعنّ بك.

٢- الإطراء: المبالغة في الثناء.

٣- التّزَيُّد - كالتقيّد -: إظهار الزيادة في الأعمال عن الواقع منها في معرض الإفتخار.

٤- المقت: البغض والسخط.

٥- التسقط: من قولهم «تسقط في الخبر، يتسقط»: إذا أخذه قليلاً، يريد به هنا: التهاون.

٦- اللجاجة: الإصرار على النزاع. وتنكرت: لم يعرف وجه الصواب فيها.

٧- الوهن: الضعف.

٨- الاستئثار: تخصيص النفس بزيادة.

٩- النّاس فيه أسوة: أي متساوون.

١٠- التغابي: التغافل.

الأمور، ويُنتصَف منك للمظلوم.

أملك حَمِيّة أنفك[١]، وسَوْرَة[٢] حَدّك[٣]، وسَطوة يدك وغَرْب[٤] لسانك، وأحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرة[٥] وتأخير السّطوة، حتّىٰ يسكن غضبك فتملك الاختيار: ولن تحكم ذلك من نفسك حتّىٰ تُكثر هومك بذكر المعاد إلىٰ ربّك.

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضىٰ لمن تقدّمك من حكومةٍ عادلةٍ، أو سنّة فاضلة، أو أثر عن نبيّنا - صلّىٰ اللّه عليه وآله وسلّم - أو فريضة في كتاب اللّه، فتقتدي بما شاهدت ممّا عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدت إليك في عهدي هٰذا، واستوثقت به من الحُجّة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علّةٌ عند تسرّع نفسك إلىٰ هواها. وأنا أسأل اللّه بسعة رحمته، وعظيم قدرته علىٰ إعطاء كلّ رغبةٍ، أن يوفّقني وإيّاك لما فيه رضاه من الإقامة علىٰ العذر الواضح إليه وإلىٰ خلقه، مع حسن الثّناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النّعمة، وتضعيف الكرامة[٦]، وأن يختم لي ولك بالسّعادة والشّهادة، إنّا إليه راجعون (راغبون). والسّلام علىٰ رسول اللّه صلّىٰ اللّه عليه وآله - الطّيبين الطّاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً، والسّلام.

١- يقال فلان حميّ الأنف: إذا كان أبياً يأنف الضيم.
٢- السّوْرة - بفتح السين وسكون الواو: الحدّة.
٣- الحدّة - بالفتح -: البأس.
٤- الغرْب - بفتح فسكون -: الحدّ تشبيهاً له بحد السيف ونحوه.
٥- البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب من سباب ونحوه.
٦- تضعيف الكرامة: زيادة الكرامة أضعافاً.

قائمة المصادر

١. *أبو ذرّ الغفاري*، ترجمة السيد جعفر شهيدي. كتابفروشي حافظ، سرچشمه.
٢. *أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام*، عمر رضا الكحالة. المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٧٩هـ.
٣. *الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد*، الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، انتشارات علميه اسلاميه، طهران.
٤. *الإستيعاب في معرفة الأصحاب*، يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البرّ، طبع دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٣٦ هـ.
٥. *الإصابة في تمييز الصحابة*، ابن حجر العسقلاني.
٦. *أنساب الأشراف*، أحمد بن يحيى البلاذري، تصحيح الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٣٩٤ هـ.
٧. *انقلاب بزرگ*، ترجمة السيد جعفر شهيدي، مؤسسه مطبوعاتى علي اكبر علمى، ١٣٣٦ هـ. ش.
٨. *بحار الأنوار*، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠٣ هـ.
٩. *تاريخ الرسل والملوك*، محمد بن جرير الطبري، افست عن طبعة بريل ١٨٧٩ م.
١٠. *تاريخ تحليلى اسلام*، السيد جعفر شهيدي، مركز نشر دانشگاهي.
١١. *تاريخ التمدن الإسلامي*، جرجي زيدان، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٠٢ م.
١٢. *تاريخ اليعقوبي*، أحمد بن أبي يعقوب، المكتبة المرتضوية، النجف ١٣٥٨ هـ.
١٣. *ترجمة الفتوح*، محمد بن أحمد المستوفى الهروي، ترجمة غلامرضا الطباطبائي مجد.

انتشارات و آموزش انقلاب اسلامي، طهران.
١٤. جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوة، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٣٥٢هـ
١٥. ديوان السيد الحميري، شاكر هادي شكر، مكتبة الحياة، بيروت.
١٦. ذخائر العقبى، محب الدين الطبري، طبع مكتبة القدسي مصر.
١٧. زندگاني امام علي بن الحسين، سيد جعفر شهيدي، دفتر نشر فرهنگ اسلامي.
١٨. زندگاني فاطمة الزهراء، سيد جعفر شهيدي، دفتر نشر فرهنگ اسلامي.
١٩. سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق محمد حميد الله، طبع قونيه، ١٤٠١ ق.
٢٠. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢١. سيرة النبي، المعروف بسيرة ابن هشام، عبدالملك بن هشام، المطبعة الحجازية. القاهرة.
٢٢. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تصحيح محمد أبوالفضل، إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٥ هـ.
٢٣. الطبقات، محمد بن سعد الواقدي، أفست عن طبعة ليدن، ١٣٣٢ هـ.
٢٤. العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٢ ق.
٢٥. الفتوح (تاريخ ابن أعثم)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٨٨ هـ.
٢٦. الفخري، محمد بن علي بن طباطبا، دار بيروت، ١٣٨٥ ق.
٢٧. القرآن الكريم.
٢٨. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، طبع دار صادر، ١٣٨٥ ق.
٢٩. كشف الأسرار وعدة الأبرار، رشيد الدين ميبدي، مطبعة المجلسي، ١٣٣١ش.
٣٠. كشف الغمة في معرفة الأئمة، علي بن عيسى الإربلي، مكتبة بني هاشم، تبريز، ١٣٨١ ق.

٣١. *كنز العمال في الأقوال والأفعال*، علاء الدين المتقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩ هـ.

٣٢. كيمياى سعادت، أبو حامد محمد الغزالي، تصحيح حسين خديوجم، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، طهران، ١٣٦٤ ش.

٣٣. مثنوي، مولانا جلال الدين الرومي.

٣٤. *مروج الذهب ومعادن الجواهر*، علي بن الحسين المسعودي، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٤٦ ق.

٣٥. *المعيار والموازنة في فضائل علي بن أبي طالب*، أبو جعفر الإسكافي، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي.

٣٦. *مقتل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب*، ابن أبي الدنيا، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، طهران ١٤١١ هـ.ق.

٣٧. *الملل والنحل*، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

٣٨. *مناقب آل أبي طالب*، محمد بن علي بن شهرآشوب، مطبعه علمية قم.

٣٩. *نهج البلاغة*، مجموعة خطب أمير المؤمنين.

٤٠. وقعة صفين، نصر بن مزاحم، تصحيح عبد السلام هارون، أفست، قم، ١٤٠٤هـ.

الفهرس

مقدمة ١
الفصل الأول ٣
الفصل الثاني ٨
الفصل الثالث ١٢
الفصل الرابع ١٦
الفصل الخامس ٢٣
الفصل السادس ٢٥
الفصل السابع ٢٩
الفصل الثامن ٣٢
الفصل التاسع ٣٩
الفصل العاشر ٤٦
الفصل الحادي عشر ٥١
الفصل الثاني عشر ٥٨
الفصل الثالث عشر ٦٧
الفصل الرابع عشر ٧٤
الفصل الخامس عشر ٨٠
الفصل السادس عشر ٨٤
الفصل السابع عشر ٨٩

الفصل الثامن عشر ٩٤
الفصل التاسع عشر ١٠٠
الفصل العشرون ١١٣
الفصل الحادي والعشرون ١١٨
الفصل الثاني والعشرون ١٢٦
الفصل الثالث والعشرون ١٣٨
الفصل الرابع والعشرون ١٤٢
الفصل الخامس والعشرون ١٤٨
الفصل السادس والعشرون ١٦٠
الفصل السابع والعشرون ١٦٨
الفصل الثامن والعشرون ١٧٦
- وصيته للحسن(ع) ١٧٦
- كتابه(ع) إلىٰ مالك الأشتر ١٩٥
قائمة المصادر ٢١٩
الفهرس ٢٢٢

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٢٦٧٠
التاريخ / ٢٤ / ٥ / ٢٠٠٥

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٠١/٥٤١١٩٩
ض.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري . بيروت . لبنان
E-mail:daralhadi@daralhadi.com
URL:http://www.daralhadi.com